نعمان عاشور

م. عبد العال

مع الرواد

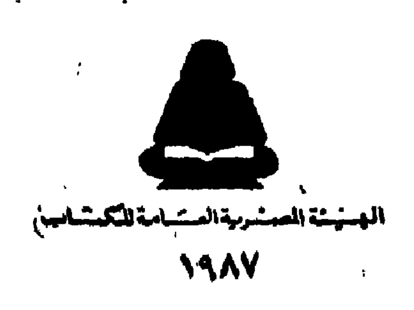



تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

نعمـــان عاشـــور

مع الـــــرواد





الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧



الاخراج الفنى	تصميم الغلاف
راجية حسين	محمد عبد العال

شخصيات الرواد

- طه حسين
- ابراهيم عبد القادر المازني
- ابراهيم ناجي
- عباس محمود العقاد
- محمد مندور
- سلامة موسى
- جورج أبيض
- نجيب الريحاني
- محمود تيمور
- محمود حسن اسماعيل
- بيرم التونسي
- مصطفى عبد اللطيف السحرتي
- زكريا الحجاوي
- نجيب سرور
- صلاح عبد الصبور

عصر الندوات الأدبية

تشكل الندوات والروابط والجماعات والهيئات الأدبية ٠٠ القوالب أو على الاصح ٠٠ الهياكل التى تنصهر فى داخلها وتنبعث من خلالها ٠٠ الحركات والاتجاهات والتيارات الادبية والفنية والفكرية المختلفة ٠ وقد كان لمثل هذه التجمعات شأنها الكبير أبان الاربعيات عندنا فى مصر ٠٠ فقام على وجودها وتكاثرها الصرح الثقافى الضخم الذى مهد وصاحب ثورة سنة ١٩٥٢ بكل ما واكبها من انطلاقات ٠٠ ويقينى ان أهم ما يجب أن يعنى به النقاد فى تتبعهم وبحثهم عن المنابت الحقيقية للازدهار الثقافى الذى نطقت به حياتنا ابان الخمسينات والستينات ٠٠ والرجوع الى هذه الظاهرة ورصدها ومتابعتها لانها من الظواهر المفتقدة فعلا والتى لا يمكن ان تغنى عنها بديلا ٠٠ الهيئات والتجمعات الرسمية ٠٠ كاتحادات الادباء أو حتى الندوات الأدبية واللقاءات والبرامج الثقافية التى أحيانا ما تنطلق بها الاذاعات أو يجسدها التليفزيون الملون ٠٠ وغير الملون ٠ !

عصر الندوات :

والذى يدفعنى الى طرق مثل هذا الموضوع ٠٠ ليس مجرد الشغف بالظاهر فى حد ذاتها ٠٠ أو لاننى عشتها فى شرخ شبابى بكل ما كان لها من أبعاد ٠٠ وسجلت جوانبها فى بعض كتاباتى وعلى الاخص فى ذكرياتى المسرحية (المسرح حياتى) ٠٠ وليس هو أيضا مجرد الاجابة على التساؤلات المطروحة من جانب شباب الأدباء حول مقومات الحياة الثقافية التى سبقت جيلهم ٠٠ وانما يستلفتنى الى الظاهرة تنويه عابر جاء على لسان الاستاذ الكبير فتحى رضوان ٠٠ وهو أول من تولى انشاء وزارة للثقافة ٠٠ فى حديث اذاعى ٠٠ ترحم فيه على زمان الندوات التجمعات الأدبية واعتبرها من أقوم مهيئات النهوض الثقافى الحقيقى ٠

.. أكثر من ذلك .. وهو ما يعطى للظاهرة أهميتها ودلالتهـا .. ان وجود مثل هذه الروابط والندوات .. لم يكن يستلزم تهيئة الغـرف المفروشة المكيفة بالهواء أو تنسيق القاعات الفسيحة المليئة بالمقـاعد والتحف والطنافس والمحاطة بالميكروفونات والمسجلات .. الخ .. وانما قد يكفى على سبيل المثال وجود غرفة أو شقة كالتى تشغلها رابطة الأدب الحديث حاليا ومن عشرات السنين لتلقى فيها بعض الاشعار وتناقش داخلها بعض الكتابات وكأنها واحة مجدبة فى وسط خلاء صحراوى قفر تحيطه الكثبان من كل جانب .

اللقاءات الفردية :

وهنا يحل السـؤال !! فما هى الحكمة من وراء ملاحقة مثل هذه الظاهرة التى ولى زمانها وانقضت أيامها؟! وهل من سبيل الى استعادتها أو تحقيق وجودها والجزم بصلاحيتها لمثل عصرنا الراهن ؟! صحيح أنه لا زالت هنـاك بعض الفلول المتبقيـة من هـذه الظاهرة .. فالى جانب الاصرار اللاهث لرابطة الأدب الحديث .. يوجد نادى القصـة وندوة الحكيم الشتوية بالأهرام وندوته الصيفية فى قهوة بترو بالاسكندرية .. والجلسات المتنـاثرة للأدباء الجدد على مقاعد مقهى ريش وسـوق الحميدية وقهوة أسترا ثم سهرة نجيب محفوظ والحرافيش .. الا أن هذه كلها لا تشـكل أكثر من لقاءات فردية بين بعض الأصدقاء . وليست روابط أو ندوات أو تجمعات !!

والحق أنه قد أصبح من المستحيل استعادة ما فات .. خصوصا بعد أن طغت المعبرات الحديثـة وعلى رأسها التيلفزيون والاذاعـة .. ببرامجها وندواتها التى امتصت وحجبت الروابط واللقاءات المجتمعة أو الجماعية .. وخصوصا أيضا .. بعد أن خلت معظم المجلات الثقافيـة والأدبيـة والفنيـة من أدنى ارتطـام أو مناجرة بين التيارات الأدبيـة والاتجاهات الفنية والمدارس الفكرية المختلفة المتعارضة .. ناهيكم عن الجرائد اليومية .. لكن .. لعل هذا الوضع الذى تجمدت فى داخـله حركة الحياة الثقافية .. هو الذى يدفعنا الى محاولة العودة الى استكشاف هذه الظاهرة وتلمس تأثير وجودها رغم ما لحقها من عوامل مغايرة وظروف متباينة استجدت بفعل ما طرأ على الحياة الكلية للمجتمع عامة فى مختلف جوانب نشاطه السياسى والاقتصادى والاجتمـاعى . وبالضرورة .. نشاطه الثقافى !!

حياة الأربعينات :

انها اذن ليست عودة الى الماضى بقدر ما هى محاولة استكشاف الحاضر الثقافى الذى نعيشه • وفى سبيل ذلك أخذتكم معى الى صورة عامة لما كانت عليه الحياة فى اعقاب الحرب العالمية الثانية • وبالتحديد فى النصف الثانى من الاربعينات •• حركة وطنية متوثبة للخلاص من الاحتلال الانجليزى •• صراع سياسى حاد بين الاحزاب ظاهرة التنافس على السلطة وحقيقة القضاء على سيطرة الحكم الفردى للملك •• أزمة اقتصادية طاحنة وعميقة الجذور •• حياة أدبية وثقافية متطورة تنتقل بالالوان والاتجاهات الأدبية الى أشكال جديدة هى القصة القصيرة والرواية الطويلة والتراجم •• والواقعية تأخذ مكان الرومانتيكية السائدة •• وموجة الشعر الحر ترتفع ومذهب الفن للفن يتراجع أمام تيار الأدب الاجتماعى والالتزام الفنى والفكرى • والحياة فى مسارها العام وهى مليئة بكل هذه الصراعات •• تجد لها متنفسا طبيعيا فى الندوات والجمعيات والروابط الأدبية وما ينصب داخلها من اشعاعات الاطار الواسع للحياة العامة بكل تياراتها السياسية والاقتصادية •• جيل جديد من الأدباء والكتاب يناهض جيل طه حسين والعقاد والمازنى •• وجيل آخر من الشعراء يناهض شعر القوافى • وجماعات من النقاد والمنظرين تهب لوضع قواعد ومقاييس عصرية مغايرة للالوان الأدبية المستحدثة والاتجاهات الأدبية القائمة •• وهكذا •

التفاعل الحى :

كل هذه البوادر الحية من الالوان والاتجاهات والتيارات الى جانب الحصيلة التى بدأت تأخذ طريقها من النتاج الأدبى الجديد •• وجد تفاعله الاولى فى الندوات والهيئات والروابط الثقافية والأدبية •• وكلها كانت تلقائية وقد لا يربط بين أعضائها الا المكان المختار لجلوسهم • كرصيف لاحدى المقاهى أو تجمع حول مائدة طعام أو من خلال بعض الاندية الخاصة •• أو داخل شقة صغيرة مستأجرة أو فى حديقة دار أو فى ركن بمقهى أو غرفة التحرير لاحدى المجلات •• ولكنها كانت ندوات منتظمة ودائمة لا ينقطع انعقادها •• اكتفى بما وعته الذاكرة مما كنت ارتاده وكان قائما منها •• هناك مثلا ندوة « كازينو أوبرا » وهى ندوة ثابتة تعقد صباح الجمعة اسبوعيا ونجمها الاول نجيب محفوظ وبين حضورها الدائمين •• عادل كامل ومحمد عفيفى وعبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب وعبد الحميد جودة السحار وعلى أحمد باكثير رحمهم

الله ٠٠ وندوة « الفصول » وكان يعقدها الاستاذ زكى عبد القادر فى مكتبه مساء الاثنين من كل اسبوع ومن شهودها احمد بهاء وفتحى غانم وعصام سليمان وعباس صالح وغيرهم ٠٠ ورابطة الأدب الحديث ليلة الثلاثاء وعلى رأسها مصطفى عبد اللطيف السحرتى والصيرفى وعبد المنعم خفاجه ٠٠ وندوة « المقتطف » التى كانت تجمع مفيد الشوباشى وابراهيم الابيارى ومختار الوكيل ٠٠ وندوة جريدة الاهرام الليلية التى كان يعقدها انطون الجميل ونجمها كامل الشناوى وبقية الشعراء من الصحفيين ٠٠ وندوة الدكتور ناجى بعيادته بشبرا ويحضرها مساء الاحد اسبوعيا صالح جودت وكامل أمين ٠٠ وندوة العقاد الشهيرة باتباعه وأشياعه ومريديه ٠٠ صباح الجمعة فى منزله بمصر الجديدة ٠٠ ثم هناك ندوة خريجى الجامعة بناديهم وكانت تضم عبد الرحمن الشرقاوى وعبد الحميد الكاتب ٠٠ وندوة الرسالة ويحضرها أحمد حسن الزيات ومعه أحمد أمين ودكتور زكى نجيب محمود ودرينى خشبة وابراهيم زكى خورشيد ٠٠ وندوة الشعر الاسبوعية فى نادى موظفى الحكومة بعماد الدين وعلى رأسها عبد الله شمس الدين ٠٠ وهناك الندوات التى تجمع بين الأدب والسياسة كندوة نشر الثقافة الحديثة أو الادب والاقتصاد والعلوم ٠٠ كدار الابحاث العلمية ٠٠ وكذلك كانت هناك ندوة الشبان المسيحيين وعلى رأسها المرحوم سلامة موسى ومنظمها خليل جرجس خليل ٠٠ وندوة الشبان المسلمين التى أسسها الدكتور محجوب ثابت ٠٠ وندوة نادى الممثلين التى تجمع بين أحمد علام وحامد مرسى وحسن البارودى وغيرهم ٠٠ وهى ندوات مفتوحة يستطيع أن يشهدها كل من له أقل صلة بأحد من أعضائها أو على الأصح مرتاديها ٠

منابت البذور :

كانت هناك العديد من الندوات والروابط التى يستحيل حصرها والتى طال واستمر عقدها لعدة سنوات حتى بعد بداية الخمسينات ٠٠ ومن الندوات المنتظمة أيضا ٠٠ ندوة المرحوم زكى مبارك الليلية على قارعة الرصيف فى ميدان توفيق ٠٠ وندوة الفيشاوى الساخرة فى رحاب الحرم الحسينى وتستمر حتى الصباح ٠٠ ثم ندوة باب الخلق فى كازينو كان يتوسط الميدان ٠٠ وكان يحضرها أحمد مخيمر والهمشرى وطاهر أبو فاشا والمرحوم الشاعر أحمد فتحى وعبد الرحمن الخميسى وندوة أمين الخولى وتلاميذه فى داره بمصر الجديدة ٠٠ ثم هناك ندوات وجلسات طارئة أهمها لقاءات ناجى والمازنى وبيرم التونسى وزكريا أحمد

ومن يلتف حولهم من المناصرين لهم فى جلساتهم بالمقاهى ٠٠ ومن ابرزها مقهى الحرية بميدان الازهار ٠٠ الخ ٠٠ وكل هذه الندوات واكثرها اثرا وحيوية وأطولها عمرا وانطلاقا بلا انقطاع تقريبا ٠ وأغلبها دورية ومنتظمة وثابتة ٠٠ كونت المنابت الحقيقية للبذور التى انبعث منها الصرح الثقافى لحياتنا الأدبية والفنية والفكرية على بداية منتصف القرن ٠٠ وهنا يجىء الدور الضخم لابرز هذه الندوات وأكثرها اثرا وحيوية وأطولها عمرا وانطلاقا ٠٠ وهى الندوة التى استبقيت الحديث عنها ٠٠ الندوة الشهيرة المعروفة بندوة قهوة عبد الله فى الجيزة ٠٠ فمن فوق مقاعدها ومن خلال جلساتها وفى ظل وجودها وامتدادها شهدت حياتنا الثقافية المعاصرة ٠٠ تخرج أغلب الكتاب والفنانين والمفكرين والادباء والنقاد الذين عرفناهم وقرأنا لهم طوال الربع قرن المنصرم ٠

الحى اللاتينى :

وأحسن ما أبدأ به للتعريف بهذه الندوة ٠٠ يأتى من تاريخها ومكانها والظروف التى كونتها ٠٠ فقد التصق تاريخها بالحياة الجامعية ذاتها وكانت خلال منتصف الثلاثينات وعلى مدى سنوات الحرب العالمية الثانية المحل المختار لمعظم الطلبة الجامعيين القاطنين فى الجيزة الحى اللاتينى المحيط بجامعة السوربون فى باريس والشهير بأنه مستودع تفريخ الادباء والفنانين ٠٠ فلقد كانت قهوة عبد الله هى أقرب المقاهى الى الجامعة وأرخصها سعرا وأكثرها احتكاكا بالحياة اليومية للجماهير العديدة من أبناء الشعب ٠٠ أسهلها ارتيادا لانها قهوة شعبية صرفة ٠٠ ثم أنها تتميز برصيف متسع يطل على ميدان الجيزة الفسيح ٠٠ وتقع على رأس الشارعين الرئيسيين الممتدين الى داخل الجيزة ٠٠ تحيطها الحوانيت من الجانبين ٠٠ حيث السندوتشات والوجبات السريعة الخاطفة ٠٠ وقد كانت المحط الذى يلتقى فيه أولياء الامور من الفلاحين القادمين للقاء أولادهم من طلبة الكليات ٠٠ وهى لا تغلق أبوابها على مدار الليل والنهار وتظل مضاءة حتى الصباح ٠ صاحبها كان رجلا من أهل الصعيد ٠٠ اسمه عم عبد الله ٠٠ ولا يعرف له لقب ٠٠ وجرسونها الدائم من أولاد البلد الظرفاء وهو عم أحمد ٠٠ وليس له لقب هو الآخر ٠٠ ولكنه رحمه الله كان من مواليد عابدين بالقاهرة ٠ والرصيف الخارجى يتسع لاكثر من ثلاثين كرسيا تتناثر حول طاولاتها ٠٠ ويستطيع الجالس فيها ان يراقب الحركة الكاملة للميدان الواسع الذى تتقاطع عنده أربعة شوارع رئيسية ٠ أحدهما يؤدى الى الاهرامات (شارع الهرم) والآخر يؤدى الى كوبرى عباس على النيل والثالث يمتد حتى أبواب الجامعة

والرابع يقود الى القاهرة ·· هذا عدا الشارعين الرئيسيين المؤديين الى الجيزة ·

ندوة قهوة عبد الله :

وقد عرفت دائما بهذا الاسم ·· أما أنا شخصيا فقد تعرفت على المقهى ذاته عام ١٩٣٦ أى قبل دخولى الجامعة بثلاثة أعـــوام ·· وكان اسمها جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) ·· وكانت هى الجامعة الوحيدة فى مصر ·· وكنت أنا أيامها فى المدرسة الخديوية الثانوية بحى السيدة زينب والصراع السياسى يغمر القاهرة على أشده حول الدستور والحـكم النيابى الديموقراطى ·· واشتركت كغيرى فى احدى المظاهرات الطلابية وانطلقنا من السيدة زينب الى الجيزة لننضم الى طلبة الجامعة الذين كان البوليس يحاصرهم داخلها ·· لكننا ما كدنا نصل الى ميدان الجيزة حتى قوبلنا بوابل من الرصاص فلجأت بسرعة الى أقرب مكان ·· وكان هـو قهوة عبد الله فبقيت فى داخلها مع بعض زملائى الطلبـــة فى حمـاية جرسونها عم عبده حتى هدأت الحالة ومن بعدها ·· أصبحت قهـــوة عبد الله هى المزار الدائم الذى أتردد عليه وكأنها السينما ·· كنت أقطن القاهرة ·· ولكن أمضى كل فراغى فى الجيزة على قهوة عبد الله ·

وكان طبيعيا حين التحقت بكلية الآداب وســـكنت فى الجيزة ان التحق أيضا بقهوة عبد الله وهكذا قدر لى ان أسمع أول نبأ عن بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ من راديو القاهرة وأنا جالس وسـط زبائنها ·· ثم تتابعت الاعوام لاشهد من فوق مقاعدها واشارك الاجيال المتعاقبة من المترددين عليها فى بناء صرح الحياة الثقافية حتى يوم اغلاقها لاقامة عمارة جديدة مكانها ·· وكان ذلك على ختام الخمسينات تقريبـا ·· مرحلة طويلة من عمر حياتنا الادبية تقارب العشرين عاما أو يزيد ·· استمرت قهوة عبد الله فى خلالها بؤرة الالتقاء ومركز التجمع ومنطلق الانبثاق لمعظم المدارس والتيارات والاتجاهات الادبية والفنية والفـكرية التى اجتاحت محيط حياتنا الثقافية ·

المكونات الأولى :

مع بداية الحرب العالمية الثـانية لم يكن معظمنا قد تخـرج بعد من الجامعة واغلبنا لانزال طلبة ·· وجاء قيام الحرب ليرتد بمعظم أعضـاء البعثات فى الخارج الى العودة لمصر ·· فشهدت قهوة عبد الله العديد من هؤلاء الوافدين يتزاحمون مع روادها فوق مقاعدها مع بداية كل ليلة ··

وحتى هذا العهد كان المترددون على القهوة لا يشغلون أكثر من ثلاث طاولات . طاولة يرابط حولها الناقد المرحوم أنور المعداوى وبعض من زملائه فى قسم اللغة العربية ويجالسهم فيها من مدرسيهم أو معيديهم.. الدكتور كامل حسين والدكتور عبد الحميد يونس .. وأخرى يشغلها دواما المرحوم زكريا الحجاوى واشياعه ومنهم المحامى الاديب عبد الحميد قطامش ومحمد على ماهر وثالثة تضم المرحوم الشاعر محمود حسن اسماعيل والمعجبين به من الشعراء الجدد مثله .

وكانت الجامعة ايامها قد هدأت فيها الاضطرابات السياسية ودخلنا على سنوات الحرب فاذا بسيل جديد وافد من دكاترة الادب ينسابون واحدا بعد الآخر الى قهوة عبد الله .. كان أولهم الدكتور محمد القصاص أثر عودته مباشرة من باريس .. ثم لحق به المرحوم الدكتور محمد مندور وتبعهما عائدا من انجلترا الدكتور عبد القادر القط .. وهكذا اصبحت قهوة عبد الله بمثابة ناد أدبى مفتوح ومستمر بالليل وبالنهار ليجتذب بعد هؤلاء الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى كان ينفرد بنفسه بعيدا عن طاولات تجمع الآخرين . وكان الجو أيامها فى الجامعة جوا غريبا خاصة فى كلية الآداب .. فعلى رأس الجامعة لطفى السيد وكلية الآداب مفتوحة بعد الظهر لمحاضرات متتابعة يلقيها الشيخ مصطفى عبد الرازق وابراهيم بيومى مدكور وسليم حسن ومحمود عزمى وأحمد زكى ومنصور فهمى وكافة الرجالات الكبار من الذين كانوا يشكلون الأقمار الساطعة فى حياتنا الادبية والفكرية..وكنا نتردد على محاضراتهم المسائية هذه وهى خبرات مفتوحة وعدد حضورها قليل مع ذلك .. ثم نسارع الى قهوة عبد الله فنقطع بقية الليل فى حوار متصل حولها وما دار فيها من حوار ومناقشات وما أثير من قضايا وموضوعات . ومن هنا بدأت قهوة عبد الله تأخذ طابعها كندوة ادبية موسعة اكثر منها قهوة بلدية والطريف الاكثر من ذلك فى هذه الايام ايضا .. ان القهوة كان يواجهها فى الميدان كازينو افرنجى بحديقة .. هو كازينو المثلث (سان سوسى حاليا) .. وكان هو الآخر من كازينوهات الليل .. يتدفق اليه العديد من الادباء والفنانين والصحفيين الكبار قادمين من القاهرة خاصة فى ليالى الصيف .. ومن المترددين عليها دواما .. انطون الجميل وابراهيم ناجى وحفنى محمود وكامل الشناوى .. ولقرب الكازينو من استديوهات السينما القائمة فى شارع الهرم كان يحفل دائما بجلسات كبار الممثلين .. يوسف وهبى وانور وجدى وليلى مراد وزينب صدقى ومحمد عبد القدوس وغيرهم .. وهذا أضفى على قهوة عبد الله الكثير فوسع من رقعة اهتمامات جالسيها الفنية .

مهب التيارات الأدبية :

ولعله من المفيد هنا أن نسجل أهم التيارات الأدبية التى اجتاحت قهوة عبد الله من البداية ·· وكان أبرزهـا الموجة التى حملها دكاترة الأدب الوافدين من البعثات بعد وقوع الحرب فى أوروبا · وتمثلت فى الدعوة الصارخة الى (الوجودية) ·· وبالذات وجودية سـارتر التى كانت أقوى الفلسفات المسيطرة فى الغرب أيا مذاك ·· وكان يحمل لواءها عبد الرحمن بدوى ثم الدكتور محمد القصاص · وهذه الدعـوة كان يعاديهـا زكريا الحجاوى وأنصاره على أساس الحاديتها ويبشرون بما يناقضها وهو ما كانوا يسمونه الواقعية الاسلامية المستندة الى التراث الفلكلورى الشعبى ·· ويقف فى وجهها مندور والقط فى التزامهمـا بما كان يسمى أيضا ·· الواقعية الحديثة ·· أو على حد تعريف السحرتى وكان قد أصبح من رواد الندوة ·· الواقعية المعاصرة ·· والحق ان دعوى الواقعية هذه كانت أيامها هى الدعوة الغالبة على المفهوم الأدبى كله ·· وعلى هديها بدأ نجيب محفوظ كتابة رواياته الأولى الصادرة بعد هـذه الفترة · خان الخليلى وزقاق المدق والقاهرة الجديدة ثم الثلاثية · ونفس هذه الدعوة الى الواقعية كانت تغمر مناقشات قهوة عبد الله الليلية التى أحيانا ـ ما امتدت الى الصباح ·· وذلك فى مضمار القصة القصـيرة وهى اللون الأدبى الذى بدأ يتبلور ليطفو على سطح الانتاج الأدبى فى السنوات التالية بعد ذلك ·· وكان من أبرز سماتها الحملة على القصص الرومانتيكية التى كان يكتبها محمود كامل المحامى ثم احسان عبد القدوس والمرحوم يوسف السباعى وأمين غراب وغيرهم ·· ونقد واقعية القصص القصيرة لمحمود تيمور ومحاولة اكتشاف بذور الواقعية فى القصـــة القصيرة عند يحيى حقى ·· وهى المحاولة التى مهدت لظهور كتـاب القصة القصيرة الجدد فى الفترة التالية مباشرة · ومنهم يوسف ادريس ويوسف الشارونى وغيرهم من الذين أصبحوا بعـد ذلك من رواد قهوة عبد الله أيضا ·

لكن لعل أغنى التيارات التى حفلت بها الندوة فى تلك الفتـرة ·· تيار الشعر الجديد ·· فقد تشـعب هذا التيار بأصحابه الى عدة منطلقات ·· كان يمثل احداها محمود حسن اسماعيل بنفثاته الشعرية المتطورة نحو ما سمى بعد ذلك بالشعر الحر ·· ثم تعصب منـدور لشعراء المهجر مما أدى به الى اصـدار كتـابه المعروف عن « الشعر المهموس » وموقف أنور المعداوى بنظريته عن الأداء النفسى فى الشعر ·· وكتـابه عن « الأداء النفسى فى شـعر على محمود طه » وصرخة

السحرتي وتفسيراته للشعر الملتزم الجـــاد وكتابه الباكر عن « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » •

بؤرة اشعاع ثقافي :

وكل هذه الدراسات والنظرات كانت الحصيلة الفعلية المكتوبة لمناقشات قهوة عبد الله التى أصبحت تشكل بعد هذه السنوات الاولى من وجودها ودوامها ثم استمرارها المضطرد •• البؤرة الواسعة والمهب الدافع لما تزخر به الحياة الأدبية من الوان واتجاهـــات ومدارس •• ومن أجل ذلك أصبحت ندوتها على نهاية السنوات العصيبة التى أعقبت الحرب من عام ١٩٤٥ وحتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ •• المســتقر الأكيد لمعظم النقاد والكتاب والشـــعراء ممن تتابع ظهورهم فى تلك الأثناء •• فعلى رصيفها كان مولد الكثـــيرين من الكتاب والنقاد الجدد والشعراء المعاصرين الذين أثروا حياتنا الأدبية والفنية بعد ذلك بالعديد من الأعمال والكتابات •• فيها بدأ رجاء النقاش خطواته الباكرة ناقدا ثم كاتبا من أكثر النقاد والكتاب انغمارا فى تيار الحياة الأدبية المتتابعة الأجيال بكل ما يشغلها من قضايا واتجاهات وتيارات • وعلى طاولاتها تكونت اللبنات الأولى لشعر صلاح عبد الصـــــبور وأحمد عبد المعطى حجازى وعبد القادر حميدة وأبو سنة وغيرهم •• ومن بعد ذلك ارتادها معظم من قدر لهم دعم وتعمير وازدهار الحياة الأدبية والحركة المسرحية التى انبثقت فى الستينات •• واستثنى نفسى منها لأنى شاهدت كافة عهودها منــذ بدايتهــا •• لكنى أذكر من بين المبرزين من روادها فى هذا المضمار الدكتور على الراعى الناقد المسرحى العتيد •• وأحمد عباس صالح وهو أيضا من النقاد الذين تبلور نضجهم فيها •• وكذلك الشاعر المسرحى نجيب سرور •

والخلاصة ان ندوة قهوة عبد الله ظلت حتى مرحلة السنوات التى عاشتها من عمر ثورة ١٩٥٢ حتى اغلاقها لبناء عمارة جديدة مكانها •• مهبط الالتقاء الدائم لكافة الكتاب والصحفيين الذين كان يحلو لهم بعد طبع جرائدهم ومجلاتهم قراءة ومتابعة ما يكتبون أو ينشرون فيهــا على طاولات القهوة بعد صدورها فى الصباح •

القيمة الفعلية للندوات :

ولا أحسبه انني أفضت فى الحديث عن ندوة قهوة عبد الله بأكثر مما تستحق فالواقع انها كونت جزءا كبيرا من تاريخ حياتنا الثقافيــة

المعاصرة .. وقد حرصت على هذه المحاولة المستفيضة وليس فى ذهنى التغنى بما كان عليه ماضينا الأدبى .. وانما القصد .. تقديم صورة مجسدة لنوع من أنواع التجمع الثقافى الذى يربط الحياة الأدبية بالحياة الواقعية لجموع الشعب بأحكم رباط .. وهو التجاوب اليومى المباشر المتلاحق .. الذى يستشف خفق الحياة فى صدور الناس بما تفيض به من مشاعر وأحاسيس .. ويستلهم ما يطيف بعقولهم من آراء وأفكار هى التى تكون أو على الأحرى تبلور ثم رجح فى حصليتها النهائية .. المقومات الصادقة للتعبير الأدبى والفنى والفكرى الناضج الحى الذى تقوم عليه الحياة الثقافية فى تطورها الدائب نحو الغد .

تلاحم الأجيـال

ساقتنى قدماى فى ليلة دافئة الى احدى مقاهى القاهرة التى تتوسط ميدانا فسيحا • وارتاحت نفسى الى الجلوس فوق الرصيف الواسع تلبية لدعوة من بعض الشبان الذين أعرف بينهم أحد شعراء العامية الجـدد وكاتبا قصصيا يحاول نشر مجموعته الأولى منذ أمد بعيد • كان الميدان يغص بالمارة ويمتلىء بالسيارات وتتشابك فيه الاصوات وتختلط فى صخب دائب وطنين مزعج لا ينقطع •• ولكن جلسة المائدة والصحبة التى حولها وما دار بيننا من أحاديث أنسانى كل ما حولنا وكأننا كنا نجلس فى داخـل أستوديو من أستوديوهات التسجيل الاذاعى لا ينفـذ اليه الصـوت •

أين الروابط والندوات ؟

والحق ان الجلسة كانت من أمتع الجلسات الى حد اننى فزعت حين نظرت فى ساعتى استدرك الوقت فاذا نحن على مشارف الفجر دون ان أحس أو أشعر بما انصرم من وقت •• وعدت الى البيت فى الساعات الأولى من الصباح فلم استطع الرقاد •• استبدلت ملابسى وانطلقت الى حياتى اليومية العادية وكأننى قضيت الليل كله أغط فى نوم عميق وأنا غارق فى حلم طويل •• كانت ليلة كالحلم •• حاولت بعد ذلك استعادته مرارا بتفاصيل كل ما دار فيه بينى وبين الجمع الذى أحاط بالمائدة من الشباب •• وكلهم أدباء جـــدد من الذين تتبلور فى جهودهم وتنمو مع نشاطهم بذور الامل فى نهضة أدبية مرجوة •• تحرك الساكن من حياتنا الثقافية الخابية •

أذكر أن الحديث بدأ بيننا بعتاب من جانبهم عن القطيعة والانفصال القائم بين جيلنا وجيلهم ·· ووجود الأجيال الادبية المتعانية خفيفة لا ينكرها أحد ·· ولكن وجود فجوة بين الاجيال لا يمكن أن يتهم بقيامها جيل دون جيل بل ان مسئولية حدوث مثل هذا الفراغ تقع بالضرورة على الجيل المقبل وليس على الجيل المرتحل · وطفقت أروى لهم ذكرياتى عن الاربعينات ·· كانت أعمارنا فى مثل أعمارهم وكانت مصر ايامها تنعم بنشاط ثقافى واسع أعقب نهاية الحرب العالمية الثانية ·· كان فى القاهرة وحدها أكثر من عشرين دارا أو ندوة أو رابطة أدبية ·· ورحت أعددها لهم بتجمعاتها المختلفة من الادباء والكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين ·· وكيف كنا نندفع نحو هذه التجمعات لنلتقى برجالاتها الذين نقرأ لهم أو نسمع عنهم ·· وما كان يغامرنا من أحاسيس الاكبار ومشاعر التقدير نحو كل منهم ·· وأشرت الى المقهى المجاور لنا بالذات ·· مقهى الحرية فى ميدان الازهار ·· كان يتردد عليه المازنى وبيرم التونسى وابراهيم ناجى ·· وكنت أنا وغيرى من الأدباء أو المتعلقين بهواية الأدب ·· نباغتهم فى جلساتهم المنفردة هناك · ورويت لهم طرفا من مقاءاتى بهم ومحاولات التعرف اليهم ·· والصد والاعراض الذى كانوا يقابلوننا به ·· ومع ذلك نصر على متابعتهم وملاحقتهم فى كل خطوة ··

وسألنى شاب من الجالسين ·· وفى شىء من التحدى أو ربمـــا اليأس والقنوط !

● وأين هى هذه الروابط والندوات والتجمعات الآن ؟!

فأجبته فى غير تردد :

ـ انها ظاهرة لم يعد لها وجود بالفعل ·· ولكن هناك البديل الذى يغنى عنها وهو بديل مفتقد بين جيلنا وجيلكم ·· مجتمعا يكبر ويتضخم فى سرعة هائلة وموجبات الحياة العصرية تحول دون مثل هذه اللقاءات الشخصية المباشرة ·· ولهذا تصبح الصلة « الانتاجية » هى الأساس ·

فاستفسرنى أكثر من جالس عما أقصد ··

ـ أننى أقصد بالصلة الانتاجية ·· ما يصدر عن جيلنا من أعمال أدبية وفنية ·· ان من أول واجباتكم نحو جيلكم استيعاب هذا الانتـــاج وهضمه وتفهمه ثم استكماله بانتاجكم · وعلى سبيل المثال ليس بينكم من يهتم بكتاباتنا مثلما كنا نهتم بطه حسين والعقـــاد وتوفيق الحكيم ·· وطبيعى اننى لا أقصد بذلك شخصياتهم أو لقاءهم ·· وانما اعنى التزود بانتاجهم كحصيلة أساسية لمـا يمكن أن يصدر عنكم من انتاج !

واهتزت بعض الرؤوس وكان على ان أتابع الايضـــاح من واقـع تجربتى الشخصية :

ــ تعالوا بنا الى مجال المسرح ٠٠ أنا بدأت بهواية الشعر فكنت أعشق شوقى وأهيم بناجى وأتيه ببيرم التونسى ٠٠ لم يفتننى شىء مما كتبوا وأبدعوا الا قرأته ٠٠ ثم شغلتنى القصة القصيرة فتابعت محمـود تيمور ويحيى حقى وانغمرت فى كتابة القصة القصيرة بروح واقعيـــة مستلهمة من كتاباتهما ٠٠ لكننى لم أبدأ من حيث كان كل منهما يكتب ٠٠ وانما نتيجة لتأثرى بهما ثم تأثرى بالمرحلة التى كنا نعيشها وهى مرحلة بروز الواقعية ٠٠ لم أتنكر لهما وحدهما وانما تنكرت أيضا للرومانتيكية مدارسها الواضحة فى أعمال الكثيرين مثل محمود كامل وأمين غراب ثم احسان عبد القدوس وغيرهم ٠٠ لقد ظهروا جميعا قبلى مع ان بعضهم يكاد يكون فى نفس سنى ٠

وجاءتنى المباغتة على صورة سؤال :

● هل كنت تكتب القصة القصيرة ؟!

ولم أفجع ولكننى أجبته :

ــ لى ثلاث مجموعات يا أخى ٠٠ وهى منشورة فى كتب من سنوات ٠٠ ولا يلزم أو يتحتم أن تكون قد قرأتها ٠٠ ولكن على الاقل كان يجب أن يكون لك ولو معرفة ضئيلة بها !

واعترض آخر مسترجعا الحديث :

● أنت بدأت بالكلام عن المسرح ؟!

ــ سيأتى هذا فى حينه ٠٠ ان كل همى أن أوضح لكم مدى الارتباط الذى يجب أن يقوم بين جيلكم وجيلنا ٠٠ بل وبين أية أجيال أدبيـــة متعاقبة ٠٠ أنا لا أزعم أننى قرأت كل ما كتبه طه حسين او المازنى او العقاد أو حتى توفيق الحكيم ٠٠ ولكننى عشت دائما ومنذ اللحظة الأولى التى اكتشفت فيها هوايتى ولا أقول موهبتى الأدبية ٠٠ عشت رابطـا نفسى بتيارهم سابحا فى الاطار الواسع الذى كانوا يسبحون داخلـه ٠٠ لا عن طـــريق اللقاءات ٠٠ وانما باستيعاب كل ما يمكن استيعابه من أعمالهم وما يحيطها من أجواء أخرى فى السماء الأدبية الشاسعة الابعاد ٠٠ مثل كتابات الرافعى وزكى مبارك وأحمد أمين والزيات وغيرهم ٠٠ وغيرهم ٠٠ وانصب تعلقى الدائم بما تعلقت به هوايتى وهو العيش فى مضمار الحياة الأدبية ٠

وعندئذ بادرني شاب منهم :

● كان الطريق أمامكم سهلا وميسرا ! ·

واستتلى الآخر بعده :

● وكنتم تقابلون بالتشجيع والاحتضان والحفاوة !

المسرح وليس الرواية :

وأضاف ثالث :

● ولم يكن هناك من يقاومكم أو يقف في طريقكم مثلما يحدث معنا الآن ؟!

وتوالت صنوف الاحتجاجات والمعاذير والتبريرات ·· وكان على ان أنصت صابرا ساكنا لكل ما قالوه ·· وهدأت ثائرتهم لحظة فعدت الى الحديث · دعوني أولا أوضح لكم بعض تجربتي ، ان الظروف أو الصدف قد تلعب دورها في كل شيء الا فيما يخص الموهبة الأدبية أو الفنية ··· لقد هويت الشعر ولكنني لم أكتبه وشغفت بالقصة القصيرة فكتبتهـــا لانها كانت اللون السائد حتى الخمسينات ·· كانت فن الجيل ·· ثم عشقت المسرح وتعلقت به من دراستي للدراما في كلية الآداب ·· ولما تخرجت كان أبرز ما راعني من انتاج الجيل السابق علينا ما يكتبه توفيق الحكيم مما كان يسمى أيامها « التمثيليات » ·· وبدأت أشق طريقي في هذا المضمار من خلال « الدراما الاذاعية » وأنا حتى الآن لا أكاد أصدق انني خلال عشر سنوات فقط في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٨ قدمت للاذاعة في مختلف برامجها مـــا يزيد عن مائتي تمثيلية وبرنامج خاص ·· وهذا دفعني الى كتابة مسرحيتي الأولى عام ١٩٥٠ ولو انها لم تمثل الا بعدها بعدة سنوات ·· ولكنها كانت بمثابة رد فعل لطاقتي المستهلكة المبـــددة على الهواء في الراديو ·· رغم ما أفدته من كتاباتي الاذاعية من التمرس والخبرة الدرامية الاكيدة ··

وعادت المقاطعة المباغتة مرة أخرى :

● لماذا لم تكتب الرواية الطويلة ؟!

ولكنني لم افاجأ بالسؤال لانه كان منطقيا ··

ـ ليس فقط لانها لم تجتذبني ·· ولكن أصلا لانها كانت لا تزال لونا غير ناضج في حياتنا الأدبية ·· لم يكن قد سبق جيلنا اليها غير هيكل في « زينب » والمازني في « ابراهيم الكاتب » وطـــه حسين في

« شجرة البؤس » وتوفيق الحكيم فى « عودة الروح » والعقاد فى « سارة » وتيمور فى أكثر من رواية .. لكنها جميعا كانت بواكير ناقصة بالمقارنة مع ما كنت أعيه عن هذا اللون من مقاييس وما أدركه من مفاهيم بينما كان نجيب محفوظ لا يزال فى بداياته ومعه عادل كامل فى « مليمه الاكبر » وكلاهما لا يبعد عن مسار جيلى بأكثر من خطوات .

الأصل والأساس :

● كأنك كنت تعول دائما على من سبقوك ؟!

ـ قطعا .. وهذا هو الأصل والاساس .. فكيانى الادبى .. اذا كان لى حقا كيان .. لا يمكن أن ينفصل عن تراثهم ونتاجهم .. أنه امتداد منه واستكمال له وخروج عليه .. بل وتفرد واستقلال عنه فى نفس الوقت .. وأنا فى هذا لا أتناقض بالالفاظ .. إن الانتاج الادبى والفنى فى مرحلة لا يعدو أن يكون مهما اختلف أو تناقض أو تعارض مع ما سبقه واحدا من الجذور العديدة المتشعبة فى الأرض والتى تنتصب من فوقها الساق العامة الضخمة للحياة الأدبية العريضة الواسعة الممتدة بكل ما تحمله من فروع وأغصان وأوراق وثمار . وهذا هو الشأن فى كل آداب العالم .. فى الأدب الأنجليزى الممتد من شكسبير الى ديكنز الى أوسكار وايلد الى برنارد شو حتى سومرست موم أو فلنقل حتى هارولد بنتر الآن .. وكذلك الحال بالنسبة للأدب الفرنسى .. من راسين وموليير الى بلزاك وزولا حتى أندريه مالرو مثلا .. ونفس الشىء ينطبق على الادب الروسى .. ابتداء من بوشكين ومرورا بجوجول وتولستوى وديستوفيسكى وجوركى وتشيخوف الى إن يصل لشولوخوف حاليا .. بل إن هذا الارتباط قائم ومتوال ومتصل .. فى المضمار الفنى .. فى الرسم والنحت الذى يجمع بين مايكل انجلو من قرون عبر فان جوخ وحتى بيكاسو .. وفى الموسيقى التى تصل باخ وموتزار ببيتهوفن وفاجنر وتشايكوفسكى حتى خاتشادوريان .

الثقافة العالمية والتراث القديم :

وطالت فترة الصمت حتى قطعها أحدهم بسؤال :

● وما رأيك فى تأثير الثقافة العالمية المحيطة وأثر التراث القديم المتراكم ؟ .. .. ..

فبادرته بالاجابة :

ـ كلاهما يشكل عوامل مساعدة ولكنه لا يدخل فى صميم الكيان الاصلى للاديب المنتج كعصب رئيسى يجب أن يكون له امتداده فيما سبقه ٠٠ لقد كان جيل طه حسين والعقاد متأثرا بالثقافة الأوروبية (العقاد بالانجليزية وطه بالفرنسية) بقدر ما كان ضالعا فى استيعابه للتراث العربى ٠٠ وجاء الجيل الذى تلاهما والجيل الذى بعده فلم يأخذ منهم الا ما فيهم من أصالة بيئية ٠٠ أعنى ما فى انتاجهم من امتداد غائر فى تيار الحياة الاجتماعية وواقعها ٠ وأبرز مثل على ذلك قد يكون توفيق الحكيم ٠٠ ولكن الاكثر وضوحا ما يتبدى فى انتاج نجيب محفوظ ٠٠ ثم فى انتاج جيلنا بعده ٠٠ ويقينى ان جيلكم لابد أن تتصل خيوطه اتصالا كاملا بما يمتد اليه من خيوط جيلنا فى هذا المتجه اذ لابد من الارتباط المتزايد المتصل بالقاعدة الواسعة العريضة من الواقع الاجتماعى ٠

وقال أحدهم فيما يشبه الاحتجاج :

● ولكن الواقعية قد انتهى زمانها ٠٠

ـ عفوا ٠٠ يبدو أننى غير واضح بما فيه الكفاية ٠٠ أنا لا أقصد الواقعية أبدا فالواقعية اتجاه من الاتجاهات الادبية ٠٠ وان كانت فى تقديرى من أثبت وأبقى الاتجاهات أو المذاهب الادبية ٠٠ وانما أقصد الالتصاق الحتمى الموضوعى والشكلى أيضا بكل متطلبات التطور التى تفرضها الحياة الاجتماعية واحتياجاتها الفعلية من الانتاج الادبى والفنى ٠٠ « أو ما يمكن وصفه بالمعاصرة » ٠٠ ففى عصر كعصرنا القائم لم يعد الانتاج الادبى والفنى مجرد تعبير عن الذات وانما أصبح وهو بالفعل قوة أو سلاح من أسلحة الحياة وبناء الحياة ٠٠ تماما كالاقتصاد ٠٠ انه المقابل الطبيعى للانتاج المادى فى الصناعة والزراعة ٠٠ وليس مجرد روايات وقصص أو اشعار تصدر فى كتب ٠٠ انه اليوم مادة غذائية كالرغيف واللبن وخاصة فى ظل ما تطورت اليه الحياة العصرية من أساليب تعبيرية جديدة كاسحة على رأسها الاذاعة والتليفزيون ولا أقول السينما ٠

وماذا عن جيلهم ؟

كانت الرؤوس تهتز من حولى وأنا مندمج فى محاولة شرح نظرتى ٠٠ فاصبح لزاما على ان أتوقف اذ لم تكن الجلسة لتحتمل مثل هذا النقاش الجاد ٠٠ لكن الحديث دار بنا فى كل مدار ٠٠ واعتذرت لانى أخذتهم الى شىء من الجدية الثقيلة ولكنهم لاحقونى بالكثير من الاسئلة

الأخرى وكانت كلها تدور حول ظروف جيلهم وما يعترضهم من صعاب في محاولة نشر انتاجهم ٠٠ اما لافتقارهم الى الشهرة كما زعم بعضهم واما للجحود الذى يواجههم به جيلنا وهو الجيل السابق عليهم ٠٠ ففى زعمهم أيضا اننا نقاومهم ونسد عليهم المسالك ونحول بينهم وبين الظهور ٠٠ بدليل اننا لا نشجعهم أو نأخذ بيدهم !

وأخيراً جاء الدور على لكى اسأل هذه المرة :

● ومن ذا الذى كان يساعدنا من الجيل السابق علينا حين اندفعنا ونحن فى مثل أعماركم لتأجير مجلة اسبوعية متوقفة كانت تصدر عن احدى الأندية (النادى النوبى) وحولناها الى مجلة أدبية عام ١٩٤٩ ٠٠ كنا نصرف عليها من مرتباتنا الضئيلة ومصروف قوتنا ونقوم بطبعها وتوزيعها بأيدينا واستمرت أكثر من عام ونصف فى الصدور ٠ انها مجلة « الاديب المصرى » ٠٠ وكانت تضم الى جانب الاستاذ مفيد الشوباشى ٠٠ المرحوم زكريا الحجاوى والمرحوم أنور المعداوى ، والمرحوم الدكتور ناجى ، والاساتذة مصطفى السحرتى وابراهيم الابيارى ، وزكى خورشيد ، وعلى الراعى ، وعباس صالح ؛ وعلى أحمد باكثير وغيرهم ٠ ولم نكن ننشد من وراء اصدارها مجرد التعبير عن أنفسنا أو نشر انتاجنا والبروز فى المجال الادبى بوصفنا كتابا ٠ ولكننا كنا نندفع الى طبعها ـ وتوزيعها حبا فى الادب وما نرجوه ونتمناه له من ازدهار ٠

وانطلق أحدهم معترضا :

● حاول جيلنا ذلك أيضا فاصدرنا أكثر من دورية غير منتظمة يمكن اعتبارها مجلة ٠

أجبته فى هدوء :

ـ طبيعى ان يحدث ذلك ٠٠ ولكن العبرة بما أوجده مثل هذا التجمع من وحدة أدبية ٠٠ لقد خرجنا نحن من تجربتنا ٠٠ وكنا ندرك من البداية انها لن تدوم ولن تستمر ٠٠ بما يمكن أن يكون ٠٠ صفا جديدا متراصا وموحدا ٠٠ وتمكننا عن طريق ما أوجدته المجلة بيننا من ترابط أدبى قائم على أساس مفهوم جديد مشترك ومبلور للادب الذى ننشده ونسعى الى انتاجه ٠٠ تمكنا من ان نقتحم الحياة الادبية كفيلق يصارع بأسلحة مغايرة ٠٠ ولم نتقدم فرادى فى اعتداد بما يحركنا من دوافع أو تطلعات ذاتية ٠

وهب من بينهم من لاحقنى :

● هذا هو اتهامكم الدائم لجيلنا .. انكم تعتبروننا وكأن كلا منا غارق في ذاتيته ويحاول الانفصال بنفسه عن الحياة الأدبية كلية .

وتشعب نقاش حاد بيني بينهم حول ما زعموا انني اتهم به جيلهم والواقع انني ما كنت أحب للجلسة ان تتحول الى هذا المسار لأن الحديث عن مثل هذه المؤرقات كان يجنح بنا الى الاعتبارات الشخصية وحدهـــا .. فقد راح كل منهم يعرض معاناته في نشر انتاجه ويأسه من استكمال جهوده الادبية واقتناعه بتفضيل البحث عن « شغلانه » أخرى .. لكنهم كان يهزون رؤوسهم في غير اقتناع لاختلاف الظروف والأوضاع والمهيئات والملابســـات .

والحق أن ما يواجهه الجيل الجديد من الأدباء اليوم يختلف كثيرا عما كان يواجهنا نحن الذين سبقناهم بسنوات قليلـــة .. ذلك ان التطورات التي تطرأ على الكيان الادبي لحياتنا جذرية وعميقة بقدر ما هي سريعة وساحقة .. ولقد أدت من البداية الى حتمية الفصل بيننا وبينهم .. وصحيح أن لكل جيل من الاجيال الادبية مفهومه وحاجاته من الأدب وبما يتناسب مع مقومات أوضاعه ومتطلبات عصره وزمانه .. ولكن حين تكون الشقة قريبة الى هذا الحد بحيث لا تباعد بيننا وبينهم الا بسنوات .. فلا يجوز ان توجد مثل هذه الفجوة العميقة التي قد يستعصى عليهـــم اجتيازها .

لقد عشنا نحن في ظل تطورات سياسية وتغيرات اقتصادية وعلاقات اجتماعية كان لها أثرها الكبير وفاعليتها الضخمة في اعادة تشكيل الحياة بمختلف مظاهرها .. وجاءوا هم ليعاصروا أوضاعا سياسية مغـــايرة ويعيشوا في ظل تغيرات اقتصادية متناقضة وعلاقات اجتماعية تجنح الى منطلقات غير متكافئة .. ومن هنا أصبح يشق عليهم ما حاولت ابرازه في محاورتي معهم خلال جلسة المقهى على مدار الليل .

ان هذا الانقسام القائم الملموس بيننا وبينهم .. وبفعل هذه العوامل التي سقتها الآن .. هو الذي أدى ويؤدى الى انقطاع صلتهم بانتاج جيلنا وما سبقه من أجيال قبلنا .. وهو الذي قذف بهم بعيدا عن الدوران في الاطار الادبي العام الذي لم يعد له وجود حقيقي في فلك حياتنا الثقافية . وهذا بدوره خلق المهيئات الكافية للفصل بينهم وبين المكونات الأصلية لجذور الامتداد الادبي الذي يمكن أن يربطهم بما يتشعب في أعمـــاق الحياة الادبية المتلاحقة من مقومات .. وبفعل ما أصبحوا يعيشونه في ظل مجتمعهم الجارف التطور ضعف ارتباطهم بل كاد يفصلهم عن السيل الاجتماعي المنصهر تحت اقدامهم في خضـــم الحياة الشاســعـــة للجموع

الشعبية ٠٠ وجاءت وسائل التعبير الجماهيرية الحديثة ٠٠ السينما والاذاعة والتليفزيون وربما المسرح فيما طغى عليه من اتجاهات التسلية ، لتباعد بينهم وبين الكلمة المكتوبة ذاتها وما يمكن أن يجب أن تنطق به من قيم ومثل وتطلعات فيما ينتجون من أعمالهم الأدبية شعرا أو قصة أو رواية أو حتى مسرحية ٠٠

وفى يقينى ٠٠ ان هذه العوامل مجتمعة ومهما تضافرت فانها لابد بل لعلها بالفعل قد خلقت أمام هذا الجيل من الادباء الجدد من الموجبات ما يحتم عليهم الا ينظروا وراءهم فى غضب وسخط ونفور لمن سبقوهم من أجيال الخالقين المبدعين للكلمة المكتوبة ٠٠ فهى العصب الجوهرى الثابت الدائم لكل تراث أدبى وفنى وفكرى ٠٠

هذا هو المحك :

هنـــاك اذن وبلا شــك فجوة قائمة بين الجيــل الجديد من الأدباء والكتاب وبين جيلنا الذى لا يزال يستبق المستقبل ٠ وهى فجوة صعبة الاجتياز بحكم ما استجد على حياتنا الثقافية ٠٠ لكن هذا الجيل الجديد يشهد ما لم يشهده جيلنا وما لم يكن يحلم به من أسباب التقارب وعلى الرقعة الواسعة المتوسعة للعالم العربى كله ٠ على أيامنا نحن وفى بداية نشأتنا كان المشهد ضيقا والساحة حسيرة والنظرة لا تجاوز الانوف ٠٠ كنا نعيش فى غمار بيئة مغلقة لا تتسع آفاقها لأبعد من العودة الى أطراف الخيوط الواهنة للفرعونية المصرية القديمـــة أو التعلق باذيال الثقافات الاوروبية بمختلف ألوانها أو محاولة الاستناد الى بعض الاحجار الصلبة للتراث العربى ٠ لكن هذا الجيل الجديد وفى ظل الانجازات العديدة لمـا سبقه من أجيال حديثة ٠٠ طورت الشعر وجددته وأبدعت القصة وأرست قوائم الرواية وبلورت المسرح وتوسعت فى فنون الدراما ٠٠ أمامه ساحات الانتاج الادبى والفنى ليلجأ من أوسع الابواب وعلى متن وسائل نشر متضاعفة العدة والعدد ٠٠ فبدلا من خمسة دور للطبـاعة يوجد فى العالم العربى اليوم مئات الناشرين للكتب والمؤلفات ٠٠ وبدلا من ثلاث أو أربع مجلات أدبية يوجد فى العـــالم العربى اليوم عشرات المجلات ٠٠ وهكذا ثم ٠٠ أين هى دار النشر أو أين هى المجلة التى يمكن أن تتردد فى تقديم ديوان أو قصة أو رواية أو مسرحية لــكاتب جديد منهم ٠٠٠ يرتفع بها وفيها على من سبقوه من المبدعين قبله !! ان هذا هو المحك !!

ولست أزعم الا موجب للسخط أو الغضب أو التنكر من جـانب الادباء الجدد لكل ما يواجههم من عقبات أو صعاب أو عوائق ٠٠ ولست

أهون من شأن الحمل الثقيل الذى تنوء به طاقاتهم وامكاناتهم ومواهبهم أمام ما تفرضه عليهم وسائل التعبير الحديثة فى اهدارها لقيمة وأهمية الكلمة المكتوبة ·· ولكنى أصر وأؤكد على أن جيلهم يمكن ان يتخطى الفجوة بالالتحام بالاجيال التى تقدمتهم ثم بالالتحام مع ما استجد على واقع عصرهم ووجودهم من وسائل التعبير الادبى والفنى ·· وأكثر من ذلك كله ·· الالتحام عن أصالة بالحياة الفعلية لجموع الناس لا فى مصر وحدها ·· ولكن فى كافة أرجاء عالمنا العربى فضلا عن الحياة الانسانية المعاصرة بكل حداثتها ·

نعمان عاشـــور

***

استكتاب طه حسين

الذى أذكره وكان ذلك فى السنوات الأولى من الستينات ٠٠ اننى كنت أقوم بتحرير باب أدبى أسبوعى بجريدة الجمهورية التى تصدرها دار التحرير ربما عام ١٩٦٢ أو ما بعدها ٠ وذات صباح وأنا أقدم مواد الباب للمراجعة والنشر فاجأنى الزميل الصديق المرحوم سامى داود بانه مكلف من المشرف على الدار ٠٠ الصاغ صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة باستكتاب الدكتور طه حسين بوصفه من كتاب الدار ٠ وكان سامى رحمه الله محرجا من هذا المطلب ٠٠٠ صحيح ان الدكتور طه معين ومن المفروض أن يوالى الجمهورية بكتاباته ولكن طه حسين لم يكن الكاتب الهين الذى يقال له أكتب فيكتب ٠٠ ولم يكن أحد يدرى لماذا انقطع طه حسين عن الكتابة والفترة طالت لعدة شهور ٠ وانتهز المرحوم سامى داود فرصة تقديمى للباب الذى أحرره ٠٠٠ وطلب الى بصفتى مسئولا عن الجانب الأدبى أن أقوم بهذه المهمة نيابة عنه ٠٠٠ ولكننى لم أطاوعه رغم تلهفى على لقاء طه حسين خصوصا انه كان أيامها يكلف سكرتيره بابلاغى عن رأيه فى كل مقال أكتبه ٠٠٠ وأيامها كنت أقوم بالدفاع عن كتاباتى للمسرح ٠٠٠ وكان الدكتور طه حسين يتابع مقالاتى ساخطا لاصرارى على كتابة الحوار بما كان يعتبره اللغة العامية « أو لغة الكلام الدارج » بدلا من استعمال العربية الفصحى ٠٠ ترددت فى زيارة طه حسين خوفا من تقريعه ولما كان يبديه من استنكار لمسرحياتى بالعامية ولم أحاول من

قبلها بل صراحة لم أكن أجرؤ على أن أطلب مقابلة من سكرتيره الذى شجعنى أكثر من مرة على مثل هذه الزيارة ·· فلما عاد سامى داود رحمه الله يلح فى ضرورة ذلك ··· عرضت عليه أن أصحبه ولا أذهب وحدى ·· وتواعدنا على اللقاء فى موعد حدده لنا طــه حســين لكنه لم يحضر فى الموعــد ···

معركة اللغــة العامية

بعد بضعة أيام ·· نشرت الجمهورية مقالا لطه حسين فى الصفحة الأولى فأدركت أن سامى داود لابد وأن يكون قد قابله وحده ·· ولكن اتضح بعد ذلك انه لم يذهب لأن طه حسين كان قد أجل الموعد المحدد ·· واكتفى سامى باخطار سكرتيره طه عن السبب فى محاولة لقائه ·· وهو رغبة الدار فى أن تحظى جريدة الجمهورية ببعض من مقالاته ·· وبالفعل أرسل المقال ونشر ولكنه نشر فى نفس العدد الذى كانت فيه كلمة لى كتبتها بعنوان « اللغة العامية من تانى » · فاذا بى أفاجأ بمكالمة تليفونية والمتحدث هو الدكتور طه حسين بنفسه قال انه لايحب الكلام فى التليفونات ولكنه لا يستطيع ان يغفر لى هذا العنوان السخيف وتطاولى على اللغة الفصحى الى هذا الحد ولدرجة أن أختار عنوانا لمقالى بهذا الشكل ··· وحاولت وأنا فى غاية الذهول من المفاجأة أن أعتذر ··· ولكنه رفض قبول اى اعتذار « عن هذا الجرم » وترك السماعه لسكرتيره كى يطلب الى ان أقابل طه حسين فى مساء نفس اليوم بفيلا « رامتان » بالهرم ··

الاستعداد للمقابلة

ذهبت أجرجر أذيالى كما يقولون ··· كان الموعد فى السادسة بعد الظهر فوجدتنى أرتدى ثيابى قبلها بساعات ··· ولما كنت أقطن بالجيزة فقد قررت أن أذهب ماشيا على قدمى لأن المسافة الم تكن بعيدة ··· وكان اللقاء المنتظر قد بعث فى نفسى من الرهبة ما جعلنى أشبه بالطائر الجريح الذى يرفرف بجناحيه فى الهواء ولا يدرى فى أى مكان سيقع ··· هذا اللقاء كنت أخشاه دائما وقد حاولت تلافيه لعدة مرات ··· لانه كان لقاءا خاصا ··· ومع من ··· مع طه حسين ··· طه حسين · الشخصية الكبيرة الضخمة التى عشت فى ظلها منذ عرفت القراءة والكتابة ··· منذ كنت صبيا فى الخامسة عشر ··· حين قرأت كتابه عن الأدب الجاهلى

ثم الجزء الأول من الأيام .. اننى لن أقابل رجلا ... بل سأقابل تاريخا طويلا حافلا شامخا ذلك كان احساسي وأنا أسير بخطى ثقيلة فى الطريق اليه وصادفت فى اتجاهى نحو شارع الهرم على بداية النفق .. احدى المقاهى التى تعودت الجلوس عليها ... فسارعت الى مقعد بعيد وطلبت فنجانا من القهوة السادة ... كان باقيا على الموعد أكثر من ساعتين .. وسبح خيالى على شتات من ذكرياتى . هذه ليست المرة الأولى التى أقابل فيها طه حسين ... ولكنها المرة الأولى التى يحادثنى تليفونيا وينتظرنى فى لقاء خاص ببيته ... يا سبحان الله !! كان يخيل الى اننى أعيش فى حلم ....

الاعتداء على طه حسين

وارتدت بى الذكرى بعيدا ... فى الثلاثينيات ... كنت قد بدأت أشغف بكتابات توفيق الحكيم ... ولكن شخصية طه حسين وكتاباته كانت هى التى تظلل كل حياتى وكيانى المنبعث نحو هذا العالم الشاسع الساحر عالم الأدب والفكر ... كان طه حسين هو معبودى فى تلك الفترة ... ومن أجله سحبت أوراقى بعد شهر كامل من كلية الحقوق لألتحق بكلية الآداب الذى كان هو عميدها مغاضبا والدى وأهلى جميعا .. طه حسين الذى دخلت الى حجرته بكلية الآداب عام ١٩٣٦ وأنا لا زلت طالبا فى الثانوى مع جمع من الطلاب الآخرين لنحميه من محاولة الاعتداء عليه من جانب أعدائه السياسيين من الطلاب التابعين للأحزاب المعادية للوفد وهو من أبرز رجاله ... تلاحقت الذكريات تجر بعضها بعضا ... كيف وقف بشجاعة لمقاومة الهجوم وهو يضحك ساخرا بينما كانوا يهتفون فى وجهه بأنه كافر وملحد وعدو للعرش ... وكيف أحطنا به وهو يغادر الغرفة بوثبات حتى أوصلناه الى سيارته فراح يشكرنا لوفائنا واخلاصنا للحرية ... ثم حين عرضت عليه أوراقى لقبول تحويلى من كلية الحقوق الى كلية الآداب فاستدعانى كطالب علم ... وراح يختبرنى ليتبين مدى صدقى وأحقيتى فى الالتحاق بالآداب .. لا زلت أذكر السؤال البارع الذى وجهه الى وأنا مرتبك فى وقفتى عند الطرف البعيد من الغرفة .. ماذا قرأت من كتب الأدب .. فلما أجبته بأننى قرأت الأيام .. استبعدها جانبا .. وهو يردد .. والكتب الأخرى .. فسارعت الى ملاحقته .. مسرحيات شوقى والديوان للعقاد والمازنى وأهل الكهف لتوفيق الحكيم .. وكل روايات المنفلوطى وجورج زيدان .. فهز رأسه باسما وهو يقول لمن حوله « يقبل تحويله فورا » .

العلم كالماء والهواء

مرة أخرى بعد التحاقي بكلية الآداب وكان قد ترك العمادة ··· دهبت الى داره مع جمع من الطلاب · وكان أيامها لا يزال يقطن فى الزمالك ! ·· فرضوا علينا ونحن فى نهاية عام التخرج أن ندفع المصروفات المتأخرة والا حرمنا من الامتحان ··· وهذه المصروفات كان قد أعفانا منها فى أيام عمادته للكلية ·· فالعلم كالماء والهواء لا يباع ولا يشترى ووعدنا خيرا وحذرنا بأن لا نوقع على أى تعهد بدفع هذه المصروفات من مرتباتنا بعد التخرج والحصول على وظيفة كما قرروا أو اشترطوا ··· كان لا يزال عضوا فى المجلس الأعلى للجامعات ··· وقال ان مثل هذا الاجراء لن يتحقق طالما هو موجود ··· وفى اليوم المحدد لاجتماع المجلس ··· أحطنا به وهو فى طريقه الى الجلسة فطلب الينا أن ننصرف فى هدوء ومنعنا من أى هتاف ··· وعقد المجلس ··· وكانت الجلسة علنية ويرأسها لطفى السيد باشا وامتلأت طرقات ادارة الجامعة بالطلبة ولم يستطيعوا أن يبعدونا عن القاعة ··· ووقف طه حسين بعد أن أعطى الكلمة فقال انه يعتبر ما يجرى نوعا من الابتزاز ·· لأن الذين عادوا الى فرض ضريبة على العلم وبهذه الصورة الجبرية ·· تلقوا جميعهم التعليم بالمجان ···· فلماذا يطالبون اليوم بتحريمه على غيرهم ··· وسكت وطلب بقية الأعضاء ابعادنا عن القاعة وتحويل جلسة المجلس الى جلسة سرية · وانتهى المجلس بعد ساعات الى قرار نهائى اعفاء الطلبة من دفع المصروفات المتأخرة عليهم والسماح لهم جميعا بدخول الامتحانات· أنا سأقابل هذا الرجل الذى لولاه لما قدر لنا أن نتم تعليمنا ؟ ··· وعادت بى الذكرى الى لقاء آخر فى عام ١٩٥٦ بعد وقوع العدوان الثلاثى على مصر ·· منحنى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون « ميدالية » تقديرا لمسرحيتى « عفاريت الجبانة » التى قدمها المسرح القومى أثناء العدوان ·· وكان ترتيبى الأول فى الجوائز وحضر الحفل الدكتور طه حسين · فلما انتهى توزيع الجوائز استدعانى وهو واقف فى حديقة المجلس ··· وقال مشجعا ··· أنا سمعت الناس الى تحت ··· وعجبتنى لكن للأسف ·· لماذا لم تكتبها بالفصحى » وحاولت أن أجيبه ولكنهم كانوا قد استدعوه الى حفل الشاى ··

استئناف المقابلة

تذكرت كل هذا وأنا أخطف الطريق بأقدامى متجها الى اللقاء وأخيرا عثرت على الشارع الذى تقع فيه فيللا « رامتان » ··· كانت الساعة

قبل السادسة بدقائق ·· والموعد فى السادسة · وأخذتنى الحيرة والارتباك ··· ولكننى اندفعت لأدق الجرس ··· أخذونى الى صالة واسعة نوعا ··· وقالوا ان « الباشا » وكان هذا هو اللقب الذى تعودوا أن يطلقوه عليه ··· سيقابلنى فورا ··· جلست على المقعد المقابل لمقعده وسارعت الى اخراج سيجارة ··· كنت فى حاجة الى ما يشجعنى على ملاقاته ··· وانقضت دقائق قليلة كانت وكأنها ساعات ··· وبعدها أقبل طه حسين مستندا الى يد سكرتيره ··· حيانى باسما بسمته الشهيرة الساخرة ولكنها كانت هذه المرة بسمة صامتة لا يصاحبها صبوت الاستخفاف الملازم لها دائما ··· وجلس على مقعده وكنت أنا لا زلت واقفا بعد استقباله فطلب الى أن أجلس ··· ولم أدهش أمام هذه اللفتة منه فقد سبق أن دخلت ذات مرة الى محاضرة له فى احدى فصول الدراسات العليا أيام كان عميدا للكلية ··· تسللت من الباب وراء أحد المعيدين فما كان منه الا أن تنحنح معلقا ان الحجرة دخلها أكثر من واحد ولعله لا يكون مدسوس ·· وكنت أنا هذا الواحد ولكنى لم أجرؤ على أى تعليق وانما عدت فخرجت ثانية مغلقا الباب ورائى بصوت مسموع ··

طلب سيجارة وأشعلتها له وبعدها مباشرة أفهم سكرتيره انه لا يريد أى مقاطعة تليفونية أو غير تليفونية ·· معنى هذا انه كان شديد الاهتمام بوجودى ··· وتفاءلت خيرا من ذلك ··· لاننى أعرفه من صوته وبسمته قال وهو ينفث دخان السيجارة ··· أظنك تحسب أننى لا أعرفك ··· أنت أصلا لست من تلاميذى ··· فأجبت مسرعا ··· كلنا تلاميذك يا دكتور ··· صمت لحظة ثم ضحك ساخرا لا ··· لا ··· تلاميذى لا يكتبون باللغة العامية أبدا ··· وعبثا حاولت أن أرد حين لمحت سكرتيره يشير على بالصمت ومن طرف المكتبة ··· بينما الدكتور طه يتابع كلامه أنا أعرف تماما جميع الحجج واللغة الدرامية التى تقول عنها ··· كلام فارغ ··· يمكن أن يغتفر لك أنك صاحب أسلوب عربى جيد وقادر على الصياغة بأفصح عبارة ·· لا ·· لا ·· أنت تكابر وقد غرك النجاح الجماهيرى ··· وعدت لمحاولة الرد ··· ولكنه أوقفنى قائلا ··· اسمعنى حتى النهاية ··· أنا المتكلم وأنت المستمع ··· ولهذا طلبتك للحضور ·· لنأخذ مثلا عنوان كلمتك هذا العنوان السخيف « اللغة العربية من تانى » ·· لماذا استعملته على هذه الصورة ·· فأجبته تلقائيا ·· كلمة « من تانى » أوقع وأكثر دلالة وتعبر عن المعنى بصدق وحرارة ·· فاندفع يقهقه ساخرا ثم سألنى ··· هل تظن ذلك ···· وحاولت الاستشهاد بما قرره رفاعة الطهطاوى عن صلاحية اللغة العامية فى أحيان كثيرة للتعبير الأقوى فلاحقنى قائلا ومع ذلك فلم يكن يكتب الا باللغة العربية الفصحى

... ووجدتنى مجبرا على الصمت فليس فى طاقتى أن أحاجى طه حسين خصوصا بعد أن لاحظت علامات الغضب تتجمع فوق شفتيه ..

وانقضت ثلاث ساعات لا تنسى وأنا جالس أنصت اليه ... كنت أحيانا أجيب بكلمة وأحيانا أخرى أعتذر بعدم المعرفة ... وكان الرجل يتحدث بكل حرص واهتمام عن رأيه فى الحياة الأدبية القائمة أيامها .. والتيارات الجديدة التى تعتمل فى داخلها .. وشعرت من خلال كلامه أنه لم يكن يوجه الى شخصيا وانما يطلقه على الرقعة المتسعة لأوضاعنا العامة وكأنه يعرض الى بأن أفيد منه فيما أكتب ... ولم يخل الحديث من حملة صارخة على جيلنا الذى أمثله جيل يخطف القراءة خطفا كما كان يقول دائما ... لكن أهم انطباع خرجت به من هذه الجلسة .. ان طه حسين لم يكن يعيش فى أسر ماضيه ومجد ماضيه بقدر ما كان ينتفض حبا فى الواقع الماثل الذى نعيشه بفكره الواعى النفاذ وانطلاقاته الحرة المتصلة التى عرف بها دائما فى كل مراحل عصره ... لم يتوقف به الفكر للركون عند مفاهيم جامدة ولم يفارقه الوعى الكامن المتجدد الذى كان يمكن أن يقف به جامدا وهو على مشارف الشيخوخة .. حقـا ان الفنان والمفكر لا عمر لهما ... كان يقرع ويلوم ويرفض ويسخر من كل ما لا يوافق عليه أو يرضاه ... ولكنه كان يتقبل بل أكاد أقول يسبق فى نظرته الكثيرين من الذين يضنيهم الكلف بالمستقبل ولعل مرجع ما كنا ننعاه عليه أيامها من عنت انه صاحب منطق حاسم وباتر وحاد لا يخلف وراءه الا الصدمة المباغتة .. وتلك صفة أضفتها عليه ثقافته الفرنسية ذاتهـا ..

ومـرة ثانية فى فيللا رامتـان

لكل هذا لم يمكن لقائى الأخير بطه حسين ... فقد ظل اتصالى به مقطوعا حتى انى لم أحظى بمقابلته الا بعدها بسنوات .. وبمناسبة غريبة أيضا .... تتعلق بعملى الصحفى ... فى ختام عام ١٩٦٤ وكنت لا أزال فى جريدة الجمهورية صدر أمر بنقلى ضمن أكثر من عشرين كاتبا للعمل فى هيئات مؤسسات القطاع العـام . وكان طه حسين على رأس القائمة التى استبعدت من الجريدة .. ولم يكن من اللائق تعيينه فى مؤسسة أو هيئة ... ولذلك اكتفوا بقطع مكافأته الشهرية المقررة ... كان موقفا مشينا أثار ضجة غير هينة فى داخل الدور الصحفية وخارجها بقدر ما أثار غضب واستنكار كافة المثقفين ... وكان طبيعيا ألا يعبأ

طه حسين بمثل هذا التصرف وأن يقابله بالسخرية ان لم يكن بالغضب وحدث بعدها مباشرة أن التحقت بدار أخبار اليوم ... وكنت أتولى كتابة اليوميات وتحرير أكثر من باب أدبي وثقافي ووجدتني غير قادر أن أسكت .. كان استبعاد طه حسين من الكتابة الصحفية في الصحف يعني أكثر من التحريم السياسي ... فالرجل معروف بانه كان من رجال الأحزاب السابقين التي لم تكن أوضاع السلطة السياسية القائمة تتحمل وجودهم ... ولكن استبعاد طه حسين كان له معنى كبير آخر فهو يعني توجيه ضربة قاسمة لصرح ثقافي شامخ .. واذا كان قد أمكن ذلك بالنسبة لطه حسين فما أسهل أن يتم بالنسبة لأي كاتب آخر من تلاميذه . وطه حسين مهما كان موقفه لم يكن يعادي ثورة ١٩٥٢ بدليل حفاوتها به في البداية كواحد من كتابها وبدليل اختياره عضوا مؤسسا للمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون .. الخ .. الخ .. والحق انه كان موقفا غير مفهوم وتناقض يبعث على الحيرة ربما أدت اليه حالة الافلاس التي كانت تعانيها الجريدة أيامذاك وان ما حدث انما كان من باب التوفيق بسبب العجز المالي .. لكن وقع مثل هذا التصرف لم يكن هينا .... لان طه حسين كان من أشد الملتزمين بقضايا التقدم الجوهرية ... قضية حرية الرأي والديموقراطية بل انه كان من قبل الثورة أحد المنادين بالعدالة الاجتماعية ، ثم ان مواقفه معروفة ومشهودة بالنسبة لأهم القضايا الثقافية .. وهو صاحب الدعوة الى أن التعليم كالماء والهواء وانه حق طبيعي لكافة المواطنين ويجب أن يكون بالمجان وفي جميع المراحل ... تماما كما أخذت بذلك ثورة يوليو من البداية في صلب مبادئها الأساسية ...

لكن ... هل كان من الممكن أن يتكلم طه حسين ؟ وأن يسمح بعد ذلك بنشر كلامه ؟ قدمت اقتراحا الى مجلس التحرير باستكتاب طه حسين في الأخبار وأخبار اليوم .. وتأجل الأخذ به .. فلم يعد أمامي الا أن أذهب لملاقاته بنفسي ... فاتصلت تليفونيا بسكرتيره الأستاذ فريد لتحديد موعد مع الدكتور العميد .. وانصرم أسبوع وأكثر بكامله قبل أن أتلقى المكالمة المنتظرة وان الدكتور يرحب بلقائي فقط يلزم أن أحدد موضوع اللقاء .. كان هدفي أن أطلب اليه الموافقة على الكتابة ... وبالفعل صارحت الأستاذ فريد غير انه أشار على أن لا أفاتحه في ذلك أبدا ... فعرضت أن يقبل اجراء حوار معه حول القضايا الأدبية الملحة والمشهد الثقافي العام كما يراه ... فترك السماعة وذهب يستشيره ثم عاد الى مكالمتي ... الدكتور موافق ... اتفضل بكره الساعة السادسة .

آخر لقاء

وكان هذا هو آخر لقاء لى مع طه حسين ··· كنت قد نويت أن آخذ نفسى على حد تعبيره بالتزام الصمت ··· ولكنى ما كدت أجلس اليه حتى وجدته يطوى ذراعيه على صدره ويطالبنى بالكلام ··· وفى البداية أرجعت موقفه هذا الى مرضه ··· لان وجهه كان مصفرا وكان يتململ فى ضيق ويتكلم بصوت خافت وقد زايلت شفتيه البسمة الساخرة المعتادة ···· أكيد ان صحته لم تكن على ما يرام ··· وطال الصمت من جانبى فتنحنح مبتسما وطالبنى بالكلام ··· تلعثمت قليلا ثم اندفعت لأعتذر له عما حدث فنهانى بقوله ··· دعك من هذا الموضوع ··· ورحت أسأله رأيه فى شتى القضايا والمشاكل الثقافية والأدبية القائمة وأنا حريص كل الحرص على أن أسجل كلامه حرفيا ·· كان يتحدث ببطء وكأنه يعرف اننى أكتب كل ما يقول ··· ودار الحديث فى كل مدار ··· حول مهمة الأدب وأهمية الثقافة ··· ونظرته الى المسرح ورأيه فى جيلنا الخ ·· الخ ·· من الموضوعات التى نشرتها فى صفحة كاملة بالأخبار · ولم تخرج فى مضمونها الكلى عن آرائه المعروفة الزائعة عن كل هذه القضايا ·

وانتهت المقابلة ··· وكان هو الذى أنهاها بعد ساعتين ·· أحسست انه متعب ومرهق وانه يتحامل على نفسه ·· وابتسم وهو يقف ليودعنى قائلا ·· لا أحسب اننى أثبت بجديد فيما قلت ··· ولكنى أحب دائما أن ألقاك ·· وشكرته على هذا التقدير ··· وفيما أن انصرف ·· أخذت يده وقبلتها وعيونى تغمرها الدموع ·· وسحب يده بسرعة وقد بدأ عليه التأثر وذقنه ترتعش وقد تقطب جبينه ··· لقد فوجىء الرجل بما فعلت ·· وأنا نفسى لم يكن فى نيتى أن أفعل ما فعلت ·· فلم يحدث ان قبلت يد أحد فى حياتى غير يد والدى وأنا صغير جدا ·· وكتبت ذلك كله فيما نشرته عن هذا الحديث معه فى جريدة الاخبار فاتصل بى سكرتيره بعد ذلك ليبلغنى تحية الدكتور العميد وشكره الخالص العميق ·· فى حين واجهنى أكثر من زميل وصديق صحفى باللوم والتقريع ·· لاننى كان لا يجب ان اقبل يده لانى أديب وكاتب مثله ··

- ·· يا سبحان الله ·· كيف كان يمكن أن يحدث غير ذلك وقد كنت لازلت اعتبر ما فعلت أقل ما يستطاع من وفاء بشخصية ومكانة وأثر طه حسين على حياتى بل وعلى حياتنا جميعا نحن صناع الكلمة فى كل مكان على أرضنا العربية ··

***

العدميـــة فى الأدب

بدأ تاثرى بالمازنى مبكرا فى أوائل الثلاثينيات .. وكنت لا ازال فى مراحـــل دراستى الثانوية ونحن لازلنـا نقيم فى مـــدن الريف ولم نغادره الى القاهرة بعد وكان أهم ما يلفت نظرى اليه وحببنى فيه .. ما كان يقدمه من ترجمات لبعض الأعمال الأدبية العـــالمية من القصص والكتب وأحيـــانا الروايات تنشر فى السياسة الاسبوعية وفى بعض مجلات دار الهلال وغيرها وبأسلوب غير مسبوق يجمع بين دقة التعبير وسلاسة الرد وبساطة اختيـــار العبارات والألفـــاظ .. وزاد اهتمامى به حين اهدانى استاذى مصطفى عبـــد اللطيف السحرتى وكان موجهى الأول فى دراستى للأدب وتعلقى به ... كتابى المازنى الشهيرين قبض الريح .. وحصـــاد الهشيم » .... وكان أستاذنا السحـــرتى لا يزال يفتتح مكتبه للمحاماه فى المدينة ويحاول جاهدا ان يدفعنى للقراءه .. انه من مواليد نفس بلدنا ومن القلائل الذين يخلصون فى رعايتهم لكل أديب ناشىء ... وكانت طريقته ان يعيرنى الكتاب الذى اقراه . ثم نلتقى فى المساء على النيل أو فوق الكوبرى الفاصل بين ميت غمر وزفتى أو فى رحـــاب شـــبه الجـــزر المنتشره على الســـاحل ... فى احضـــان الطبيعة ... وهى أقوى ما تلقاه فى أدب السحرتى وشعره الباكر ... ويروح يناقشنى فيما خرجت به من الكتاب ... والحق اننى لم انطبع كثيرا بكتابى المـــازنى ... لا بحصـــاد الهشيم ولا بقبض الريح ... ولعل السبب كان لاننى قليل الميل الى ما عرفناه بعد بأنه أدب الهروب وكان كتابى المازنى يحملان هذا الطابع رغم ما فيهما من جده وطرافه ..

لكنى عرفت المازنى بعد ذلك من « الديوان » وهى الدراسات التى اخرجها مع العقاد للاعلان عن مدرستهما الجديدة فى الشعر المناهضة لكلاسيكية شوقى وحافظ · الشيء الغريب ان المازنى رغم ارتباطه اللاصق بالعقاد كان يمثل بالنسبة لى وفى تقديرى وتذوقى شخصية مستقلة لانه بالفعل يتميز بطاقة ابداعية خالقة كان يمكن ان تأخذه الى بعيد فى عالم القصة والرواية ··· وشاهدى على ذلك روايته ابراهيم الكاتب رغم موضوعها المقتبس ··· فالمازنى صاحب أسلوب روائى أكثر منه شاعرا أو كاتب مقال ··· لكن ظروف حياته وامتهانه للكتابة كحرفة الزمته أن يهدد طاقاته الخلاقة فى بيع الكلمة لضمان القوت المتصل ··· وهذه جناية كبرى لا يدركها الا من عمل فى الكتابة اليومية المتصلة لكسب المعاش وتغطية نفقات الحياة ولهذا عشت من ايامها اتابع المازنى فى اعجاب يشوبه الاشفاق وأتطلع الى نفسى من خلاله ··· لو فرض واننى كما كنت احلم ايامها ··· اصبحت مثله من الكتاب اصحاب الأقلام · وهو ما حدث ·· وما جنبتنى اياه تجربة المازنى نفسه ·· ولهذا عشت دائما على التشبث بالوظيفه المضمونة المرتب ولم احاول ابدا أن أبتعد عنها الا قهرها ·· فاحتراف الكتابة الأدبية كانت ولا تزال من مستحيلات مجتمعاتنا العربية · تابعت المازنى بعد ذلك فيما كان يكتبه فى الجرائد اليومية ··· مقالات ··· أحيانا بامضاء وأحيانا بدون امضاء وفى صحف متعارضة الاتجاه يعبر فيها عن مختلف هذه الاتجاهات رغم تناقضها ومع ذلك فلم أفقد تعلقى به ··· كان المازنى بكتاباته يكون ركنا دافئا فى واعيتى الأدبية المتفتحة ··· وكنت أحس بكتاباته وعمقها وغزارتها وأسلوبه المتفرد بما لا احسه بالنسبة لمن اتطلع اليهم من العمالقة الآخرين ··· طه حسين أو العقاد أو حتى توفيق الحكيم ··· المازنى كان شيئا آخر تماما ·· كان صاحب أسلوب فنى بديهى يستحيل ان يخرج الا من قلمه ومن العسير ان يقلده فيه أحد تقراها فتشعر وكأنك تأكل ما يشبه البسكويت فى حالة الطعام ·· شهى المذاق لذيذ الطعم تتمنى الا تنتهى صفحاته لانه خال من كل العثرات نبراته مختلفة متعددة الألوان ··· لكنه ينساب فى نغمة متكاملة تأخذك الى آخر كلمة فى آخر سطر فتجد نفسك فى حاجة الى ان تعيد ما قراته من جديد لانك لم تشبع منه بعد ···

عزلة المازنى

هكذا كان تأثرى بالمازنى ۰۰۰ ولهذا اندفعت الى محاولة لقائه عدة مرات والكننى لم أوفق ۰۰۰ لم يكن هناك من أعرفه وهو على صلة به ۰۰۰ والذين عرفوه كانوا يحذروننى منه ۰۰۰ فالرجل نفور منعزل بنفسه عن معظم الناس ولا يطيق ان يتطفل عليه أحد ۰۰۰ انه حتى لا يكاد يقابل من يعمل معهم فى الصحف ومن يكتب لهم فى المجلات ۰ وقد ارسلت اله خطابا ذات مرة على أحداها وهى جريدة « المقطم » اطلب لقاءه ۰۰۰ فلم يعبا بالرد على وربما لا يكون قد استلم الخطاب ۰۰۰ كانت مثل هذه اللقاءات مع الكبار الذين تقرأ لهم وتأخذ عنهم ۰۰۰ من أهم ما يشغل تفكيرى دائما ۰۰ لاننى كنت اتطلع دائما الى هؤلاء الناس بأكبار وقداسة لا يعاد لهـا الا اكبارى لما يكتبون وتقديسى لما ينتجون ۰۰۰ وهذا فى الواقع اتجاه صحى كان يلازمنى دائما حتى بالنسبة لاستاذى فى المدرسة ۰۰۰ مدرس التاريخ مثلا ۰۰۰ كنت اتطلع اليه مثلما يتطلع الانسان العادى لأصحاب الأضرحة من أولياء الله الصالحين ۰۰۰ وكان المازنى عندى وفى داخليتى لا يقل مقاسا عن أى ولى من أصحاب المقامات أو الاضرحة التى يتبرك الناس بزيارتها ۰

مسابقة القصة

وفقدت الأمل لسنوات عديدة فى محاولة لقاء المازنى أو حتى رؤيته من بعيد ۰۰۰ ولعل الظروف الثقافية كان لها أكبر دخل فى ذلك ۰۰ لأن المازنى على ختام حياته كان قد بدأ يزوى فى داخليتى ويأخذ مكانه وليا جديدا آخر هو توفيق الحكيم ۰۰۰ ومع ذلك تشاء الظروف وكان هذا على ما أذكر عام ۱۹٤۸ أو قبلها بعام ۰۰۰ ان ألقى المازنى وان اجلس اليه بساعات طويلة وأن يدعونى الرجل الى لقائه ۰۰۰ كنت فى ذاك الوقت قد انغمرت فى كتابة القصص القصيرة التى تتكون منها مجموعتى الأولى « حواديت عم فرج » وكان قد نشر لى منها أكثر من قصة فى المجلات العديدة التى كانت تصدر فى تلك الأيام وحدث ان اعلنت الادارة الثقافية لوزارة التربية والتعليم (وزارة المعارف كما كانت تسمى أيامها) أعلنت عن مسابقة للقصة القصيرة وحددت شروطها وجوائزها ولا أدرى بالضبط ما الذى لفت نظرى الى هذا الاعلان ۰۰ ربما قلة أو ندرة الحصول على مجال للنشر ۰۰ أو لاننى كنت أيامها قد فرغت من كتابة قصة جديدة ۰۰۰ المهم انى اندفعت بعد اتمامها ۰۰ فارسلتها من

ثلاث نسخ على عنوان المسابقة ... وكانت القصة تدور حول اسطورة ريفية شائعة عندنا فى القرى الواقعة على النيل ... مؤداها .. ان هناك جنيه من جنيات الماء تسكن فى داخل النيل وتطلع الى الشـــاطىء بين وقت وآخر لتختار لها حبيبا من بين أهل القرية تأخذه الى قاعـــة النيل ليعيش معها فى قصرها هناك ... ثم تعود به بعد فترة ليعاود الحياة فى القرية من جديد بعد أن تكون قد منحته .. ما لا يتـــوقع من أسباب المتعة والنعمة والثراء ... وصورت الاسطورة . فجعلت الجنيه تخطىء فى الاختيار وتجتذب احدى فتيات القرية من اللوائى يمـــلان جرارهن من النيل ... لكنها لا تستطيع وتتسبب فى غرقها ... ورحت احلل الواقعة على ان الفتاة الغريقة انما انزلقت الى الماء بتأثير الاسطورة الشائعة وكما توهم الناس لأن الجنيه جاءت فجذبتها من قدمها والسبب ان الجنيه كانت تعشق خطيبها .. أى بدافع الغيرة منها ... وطبيعى ان اسفه ذلك فى سياق القصة وارجعه الى سيطرة وهم الاسطورة على عقولهم وبالذات الفتاة الغريقة ..

الجـــائزة

مـرت شهور ... ونسيت خلالهـا كل ما يتعلق بهـذه القصـة واشتراكى بها فى المسابقة .. حتى كان صباح .. أقدم ساعى البريد الى منزلنا وكنا انتقلنا لسكن الجيزة .. ـ وسلم والدى رحمة اللـه خطابا باسمي من وزارة المعارف لم يتردد والدى فى فتحة فاذا به يفاجا بوجود شيك بداخله بمبلغ أربعين جنيها وخطاب اخطار وتهنئة عن فوزى بالجائزة الأولى لمسابقة الوزارة فى القصـة القصيرة ... كانت مفاجأة جعلت والدى بعدها وكان دائما يعنفنى على كثرة الكتابة والقراءة ... يندفع الى تشجيعى على مواصلة ما أنا غارق فيه من كتابات ... وذهبت الى الوزارة .. فاذا بى افاجا بأن الذى اختار قصتى لتمنح الجائزة ... هو المازنى الذى كان يرأس لجنة تقدير الجوائز .

وأخيرا جاءت الفرصة المواتية للقاء الرجل ... ولكنهم قالوا لى انه لا يحضر ابدا الى الوزارة .. وان القصص كانت ترسل اليه فى منزله ويقرأها ثم يعيدها مشفوعة براية فيها ... أخذت العنوان ... كان فى نهاية مصر الجديدة على اطراف الصحراء ولا أحد يعرف الوصول الى البيت الا سائق الموتوسيكل الذى يحمل اليه مثل هذه المواد ... وكان السائق قد نقل ولا أحد يعرف له مكانا لكنها فرصتى الوحيدة ولا سبيل

غيرها ولا مثلها لكى ألقاه ٠٠٠ كنت ايامها فى غاية الزهو والفخر بما نالنى من وراء تقديره ماديا وأدبيا ٠٠٠ وطفقت اسال كل من أعرف عن كيفية العثور على المازنى ٠٠٠ وبطريق الصدفة المحضة أخبرنى صديق كان يعمل ايامها فى الجامعة العربية على ان المازنى يحضر يوميا الى الجامعة بعد الثانية عشر ظهرا لانه يقوم بتقديم مواد مترجمة لهم هناك ٠

مباغتة اللقاء

وكانت المباغتة بعدها مباشرة ٠٠٠ فى اليوم التالى قصدت مبنى الجامعة العربية القديمة وكان يقع بالقرب من ميدان الأزهار وسط القاهرة ٠٠ وقفت على الباب ولم أجرؤ على الدخول ٠٠٠ منعونى لأن المازنى لم يكن موظفا ثابتا فى الجامعة العربية وصديقى الذى أعرفه والذى دلنى على وجوده هناك ٠٠٠ لم يكن فى مكتبه ٠٠٠ وظللت لأكثر من ساعة رائحا غاديا على الرصيف المقابل لمدخل الدار ٠٠٠ وبعد نصف ساعة تقريبا ٠٠ رأيته وهو ينزل السلالم الطويلة المؤدية الى باب الخروج ٠٠٠ كان قصيرا نحيلا وبه عرج خفيف ٠٠٠ يمشى فى هدوء وقد بدأ الشيب الخفيف يجتاح رأسه ٠٠٠ كان دقيق الخطوه يتطلع من حوله وكأنه يختشى أن يداهمه أحدا ، وكانت عيونه تبرق فى ذكاء ٠٠٠ وهو يسير فى عصبية ظاهرة ويحمل فى يده بعض الأوراق ٠٠ ترددت ان القاه على مدخل الدار ٠٠٠ ولكنى ظللت أترصده وأتابعه حتى أصبح أمامى على نفس الرصيف وحينذاك ناديته لاهفا ٠٠٠

ــ استاذ مازنى ٠٠٠

التفت الى واجما وهز رأسه ٠٠٠ ولكنه لم يتكلم ٠٠٠

ــ تسمح لى أكلمك ٠٠٠

ــ عاوز تقول ايه ؟

وحرت وتلعثمت ٠٠٠ ولم أجد ما أقوله ٠٠٠ فاستدار الرجل ليكمل سيره غير عابىء بوجودى ٠٠٠ وبعد لحظة ٠٠٠ يبدو أنه قد أحس خلالها باننى أتابعه ٠٠٠ التفت وراءه قائلا :

ــ انت مين يا ابنى ؟ ٠٠٠٠

وأسقط فى يدى فوجدتنى أبادره خوفا من أن يشيع عنى :

ـ أنا كاتب قصة قصيرة ··· حضرتك اديتنى الجائزة عنها ···

ـ قصـــة ايه ؟ ···

ـ أم شوشه ·· كانت في مسابقة ادارة الثقافة بوزارة المعارف ··

ـ موضوعها ايه ؟ ···

ـ جنية الميه اللى بتطلع من النيل ···

ـ آه ··· هو انت ··· قصة كويسة ··· أنا اديتها الجائزة ·

ـ متشـــكر ···

ونظر الى نظرة فاحصة هذه المرة ··· وهو يتطلع الى قامتى ··· كنت أطول منه قليلا ··· ثم أردف :

ـ يا ابنى أنا لا أعرفك ···

ـ ولكنى يا سيدى أعرفك معرفة جيدة وأعيش معك فى كل خطواتك القلمية ··

وابتسم راضيا وهو يتمتم :

ـ لا احسبها خطوات ثابتة ···

ـ يا أستاذ انت أثبت من قرأت لهم ···

وهز رأسه وهو يدوس بطرف لسانه على شفته السفلى بما معناه ··· دعك من النفاق » ثم وضع يده فى ذراعى ·· وطلب الى أن أصحبه الى المقهى مقهى الحرية العتيد فى ميدان الأزهار حيث تعود ان يجلس ليلتقط انفاسه من التردد على الجرائد والمجلات التى كان يكتب فيها وكلها تقع قريبا من هذا الميدان ···

جلسة مع المازنى

طلب لى مشروبا وطلب لنفســه قدحا من القهــوة السادة وكان قد وضع اوراقة على مقعد بجواره ··· ثم فاجانى بسؤاله المفجع ···

ـ انت عاوز منى ايه بالضبط ؟ ··

ـ أتشرف بمعرفتك وأشكرك ···

ـ لو ان قصتك لم تعجبنى لما اعطيتك الجائزة ··

ـ يا استاذى انما يسعدنى أن اقول فى يوم من الأيام اننى جالست المازنى وتحادثت اليه ··· وعرفته ···

ـ لا ··· لن تعرفنى ··· أنا نفسى لا اكـاد أعرف نفسى ··· وأنا افضل لو ظلت معرفتك بى قاصرة على ما أكتبه ·· أما أنا شخصيا فلا فائدة لك من معرفتى ···

ـ أتتلمذ عليك ···

ـ سخافة ··· الكاتب أو الفنان لا يمكن أن يكون تلميذا لأحد ·· هذا ضد طبيعة الأدب وحقيقته ··· الأديب خالق نفسه ··· أعنى صاحب انتاج لا يصدر الا عن نفسه مهما تأثر الآخرين ···

واستمرت جلستنا أكثر من سـاعة ··· كان يصمت خلالها أحيـانا لفترات طويلة ولكنى كنت أنتزعه من صمته بأسئلة مباغتة ··· ولم يحدث أن أجابنى عن احداها بالموافقة أبدا ··· انه متناقض مع كل ما هو سائد أو متعارف عليه من الآراء الدارجة ··· ومن الواضح أن فلسفته بالنسبة لعـــديد من الأمور فلسفة ثابتـة لا تحتمل التغيـير ··· لكن الشيء الذى استلفتنى حقا فى المازنى ··· انه يقول ما يكتب ·· أعنى أن كتاباته تستمد قوامها من فكره وهو فكر سوداوى يميل الى ما نسميه العدمية ·· تساندە فى ذلك سخرية قاسية يخيل لك معها ان الرجل قد من الضجر ·· ولكنه مع ذلك لا يخلو من ومضات العاطفة والاحساس الدائم بحيوية ما حوله من الكون ··· وقد أفزعنى وهو يهب واقفا ليدفع الحساب للجرسون ·· ثم يعتذر عن عدم امكانه متابعة الجلوس وسط كل هذا الضجيج الذى يعتم المكان ··· وطلب الى أن أظل جالسا ولا أقف لتحيته ··· وخرج مسرعا وأنا أتابعه فى استغراب وذهول ··· وكان أول ما فعله حين أهل على الشارع ووقف على رصيف المقهى أن نادى تاكسيا وركب فى الحال ولم يلتفت وراءه ليرانى ··· بل دلف الى مقعده فى السيارة ··· وقبع فى ركنها القريب غارقا فى صمت ووجوم ··· وأنا اسائل نفسى هل هذا هو المازنى ··· وعدت أدراجى لأسترجع جلستى معه ·· ولا تزال ترن فى أذنى حتى اليوم وبعد طول هذه السنين اجابته المفجعة لا ··· لن تعرفنى ··· أنا نفسى لا أكاد أعرف نفسى ·

***

ابراهيم ناجى

تعلقت بركب ناجى من زمن بعيد ... فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة وبعد تخرجى فى كلية الآداب ... كان ناجى يكتب فى معظم مجلات دار الهلال وبالذات فى مجلة « الاثنين » التى كانت تصدر أيامذاك ... وفى مجلة المصور أيضا .. قرأت له قبل أن ألقاه ... ولكنى عرفته قبل أن أقرأ له ... وكانت حصيلة ما يكتب شيئا خارجا وبعيدا كل البعد عن الشعر ... كان يقدم أبوابا قصـيرة عن الأمراض النفسية . ثم بدأ يشق طريقه نحو معالجة القضايا العاطفية حتى استقر نهائيا وتخصص تماما فى الكتابة عن الجنس ... يباحث آخر نظرياته ويتصدى لمعالجة قضاياه ومشاكله من واقع ما كان يقرأه عنه فى الكتب والمجلات ... وكان الجنس فى هذه الأيام يغمر جميع الكتابات .. وليس فقط الأدب الروائى أو الأدب القصصى .. لكنى كما قلت كنت أعرف ناجى قبل أن أقرأ له مثل هذه الأبواب والفصول الصحفية .. والذى وجهنى الى ذلك من قبلها بسنوات ... الاهتمامات الشعرية التى حفزتنى وبفضل توجيه الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى .. الى أن أتابع ما كان أيامها يسمى بمدرسة أبولو ... ومن أبرز شعرائها أبو شادى وناجى وغيرهما ....

وكان أول ما أثار اهتمامى بناجى .. الأبيات المحفوظة التى كانت تردد عن ملحمته الرائعة التى كتبها خلال سنوات الحرب ملحمة « الأطلال » ... وهى مجموعة قصائد فى قصيدة طويلة واحدة لم يعنى ناجى بجمعها وانما كانت تنشر له تباعا فى مجلة أبولو أحيانا .. وعلى ألسنة الشعراء من المعجبين به أحيانا أخرى ... وظلت كذلك متناثرة حتى جمعها بنفسه بعد سنوات وضمنها أحد دواوينه ... فتنتنى الأطلال وفتحت مغاليق حسى وتذوقى على شاعرية ناجى فانفرد بين كافة معاصريه باعجابى ... والحق انه كان أستاذهم جميعا أو هذا ما أثبتته الأيام بالفعل . لذلك فما كدت أسمع ذات ليلة بوجوده فى مقهى مقابل « لقهوة عبد الله » التى كانت بمثابة مجمع ليلى للأدباء فى الجيزة حتى سارعت اليه ... كان يجلس فى حديقة مقهى « المثلث » المطل على الجانب المقابل لقهوة عبد الله فى ميدان الجيزة ... وكان ذلك فى احدى السنوات التالية لنهاية الحرب ... ربما عام ١٩٤٦ لم يكن ناجى يجلس لوحده ... وانما كان محاطا بمجموعة من الشعراء والكتاب غير المعروفين ... وكان يقرأ عليهم من ورقة فى يده ... احدى قصائده الأخيرة ... كانت هذه هى عادة ناجى دائما فهو لا يكتب شعرا الا ويقرأه على المحيطين به ... واستأذنت فى الجلوس معهم بجرأة وشجاعة لم أكن أعهدها فى نفسى من قبل وانما دفعنى اليها اعجابى المتصل بشعر ناجى .. وفرح الرجل بانضمامى اليهم .... فلما أفصحت له عن اعجابى بشعره ... ازداد غبطه وكأنه طفل صغير ... ومن هذه اللحظة عرفت شخصية ناجى على حقيقتها ... انه من ذلك النوع الذى تستطيع أن تكون صديقا عزيزا له من أول دقيقة .. وقد كان هذا موقفه منى بعد ذلك على الدوام وحتى نهاية عمره ...

جلسات المثلث

فى الليلة التالية سارعت الى جلسة الحديقة فى مقهى المثلث بالجيزة بعد أن مررت على قهوة عبد الله لاثبات وجودى هناك اذا سأل عنى أحد .. ولم أجد ناجى فى جلسته المعتادة ... لكننى اكتشفت شيئا كان جديدا على بالفعل بالنسبة لهذا المقهى ... فهو مقهى على مستوى أرفع بكثير من قهوة عبد الله .... صاحبه يونانى وهو يعتبر بمثابة مصيف ليلى

كان يتردد عليه العديد من الأدباء والكتاب والفنانين بل ورجالات السياسة أيضا ··· وهو المحل المختار لمخرجى السينما وممثليها وممثلاتها والعاملين بأستديوهاتها الواقعة جميعا بشارع الهرم على امتداد ميدان الجيزة ··· والمقهى، متخصص فى تقديم البيرة والمثلجات من الجيلاتى والآيس كريم وغيرها ··· وفى تلك الليلة بالذات وأنا أبحث عن ناجى وشلته ··· لاحظت هذه الملاحظة فحول أكثر من مائدة ·· كان يجلس بعض السياسيين ·· بينهم الوزير حفنى محمود الذى أصبح باشا ووزيرا فيما بعد ومعه مجموعة من أصحاب الوجوه المألوفة فى كاريكاتير المجلات السياسية من الوزراء والحكام الذين لم أكن أعنى بمعرفة أسماءهم ·· ثم مائدة أخرى تضم يوسف وهبى ···· والمخرج بدرخان ··· والمنتجة آسيا وغيرهم من السينمائيين الذين أقرأ عنهم وأرى صورهم فى الصحف والمجلات واعلانات الأفلام ·· لكن المائدة التى كان يجلس عليها ناجى ليلة الأمس ··· كانت خالية ··· وأوصيت الجرسون قبل أن أغادر مقهى المثلث اذا جاء الدكتور ناجى ··· أن يخطرنى بحضوره ·· وأنا جالس على المقهى المقابل ··· قهوة عبد الله ·· وعدت أدراجى وظللت جالسا أترقب وصول من يخطرنى بحضوره ··· حتى مللت الانتظار فعدت ثانية الى حديقة مقهى المثلث وهناك وجدت ناجى وفى صحبته نفس مجموعة الأمس ومعهم احدى الممثلات ··· وما أن رآنى ناجى حتى دعانى الى الجلوس مع انه حتى اللحظة لم يكن يعرف اسمى ومن أكون الا أننى مجرد معجب عابر من المعجبين بشعره ··· وطلب الى مشروبا فقد كانت هذه هى عادته التى اكتشفتها فيما بعد من متابعتى له ·· انه لا يسمح لأحد بأن يدفع ثمن أى شىء يطلبه وهو فى حضرته ··· وبعد حديث خاطف عما يجرى من أحداث عامة ··· أخرج ناجى من جيبه ورقة ·· كانت فيها قصيدة من الشعر ·· وراح يقرأها لنا ··· قصيدة يودع بها غراميات ويستقبل بها حبيبا جديدا · ومن الواضح ان هذا الحبيب كانت السيدة التى تجلس معنا ··· ولم تعجبنى القصيدة ··· لانها كما يبدو كانت مكررة فى معناها لكثير من القصائد التى قراتها له ·· ولم يسألنا رأينا فيما كتب ولكنه اكتفى بأن اعطى القصيدة للسيدة الجالسة معنا طالبا منها أن تحتفظ لها بها كهدية منه ···

غراميات ناجى

كان ناجى كلما رأى امرأة وقع فى حبها ·· فالحب عنده كما كان يقول المرحوم كامل الشناوى مثل « قزقزة اللب » وكامل الشناوى نفسه

كان كذلك ... ويبدو ان جميع كتاب القصائد الرومانتيكية من الشعرا جميعا ... مثلهما تماما ... والشرط الوحيد عندهم ان تكون المرأة جميلة وأن يكون جمالها موحيا بالشعر وأن تستطيع بما خلفته فى وجدانه من انطباع واحساس بالجمال قادرة على الصد والجفاء وعلى براعة فائقة فى الدلال .. فبذلك وحده تستطيع ان تهز عواطفه ... وبذلك وحده ايضا يستطيع هو ان يستغنى عنها اذ صادفته واحدة أخرى من نفس نوعها متفوقة فى الجمال . ذات ليلة دعانا ناجى لصحبته أنا ومجموعة من المحيطين به فرحلنا فى تاكسى الى ضاحية مصر الجديدة .. طبعا على حسابه ... ووصلنا الى هناك القمر ينسكب على الصحراء لشاسعة ويغطى الليل بغلالة ساطعة من الفضة ... ونزلنا الى شارع قفر ليس فيه الا بيت واحد ... فيلا مغلقة صامتة خالية ... وطلب الينا ان ننتظره .. وراح يطوف حول الفيلا والطواف حول مرقد الحبيب لاتكاد تخلو منه احدى قصائده .. وظل يطوف ... ويطوف ... ثم عاد يلهث ..
ورقة وراح يتمتم وهو يكتب يستعيد ويسجل الأبيات التى طوف بها حول الفيلا ... ثم اخذ يترنم بها فى صوت مسموع وهو يشهق ملوحا.. « روشته الشفاء » ...

ـ خلاص ... برئت من هواها ...

كانت الأبيات التى كتبها تفيض لوعة وحسره والما ... ولم يحاول أحدا منا أن يصدمه ... فقد كان هذا هو حب ناجى حب دائم متجدد فى خياله وأحاسيسه وحدها ... وما دامت هناك امرأة جميلة تحب فانه يعيش قصة هواها ... حتى ولو كان عن بعد وبغير لقاء ... فاذا أراد لها نهاية ... سجلها فى « روشتة الشفاء » وهذا هو الطابع المميز لأغلب قصائده ...

وعدنا مع الفجر لينصرف كل منا الى بيته ... ذلك أن ناجى لم يكن ينام الا مع طلوع الشمس ...

فى عيادة ناجى

كان ناجى طبيبا بشريا كما هو معروف .. وكان يشغل وظيفة مدير لمستشفى حكومى يقع على أطراف حى شبرا ... مستشفى الخازندار ... وكانت له عيادته الخاصة فى وسط الحى ... وفيها يلتقى عادة بأصدقائه وصفوة خلانه ... صحبت أستاذنا مصطفى عبد اللطيف

السحرتى فى أكثر من زيارة الى ندوة عيادة ناجى ٠٠ كان يعالج أغلب مرضاه مجانا ٠٠٠ ويعتمد فى علاجه على حالاتهم النفسية أكثر من اعتماده على حالاتهم الجسمانية ٠٠٠ ومن أجل هذا كان شديد الشغف بقراءة علم النفس ولديه مكتبة زاخرة بالتحليلات النفسية خاصة ما يتعلق منهـا بالجنس ونظريات فرويد بالذات ٠٠ فقد كان ملما بها الماما كبيرا ٠٠ كما كان شديد التعلق بالكتابات المتلاحقة التى كانت تصدر أيامها عن اللاعقل واللاشعور واللامعقول ٠٠٠ والهذا تضيع الجلسة اذا لم يكن لديه قصيدة ليقرأها فى الحديث عن العقل الباطن والأسرار الكامنة وراء الظاهر من شواهد الأمور حتى ان الكثيرين كانوا يعتبرونه متصوفا أكثر منه باحثا ومحللا نفسيا كمـا كان يحب دائمـا أن يكون فى مجـال نشاطه النثرى والفكرى ٠٠٠ وكل هذا يتفق تماما مع طبيعة ونهجه الفكرى فضلا عن اتفاقه مع متجهه الرومانتيكى الغامر فى الشعر ٠

ليلة مع زكى مبارك

ومن الليالى المشهودة فى صحبة ناجى ٠٠٠ اننا كنا نصـدر مجلة أدبية ٠٠ يشرف عليها الشاعر والكاتب القدير الأستاذ مفيد الشوباشى وكنا نساهم جميعا فى تحريرها بل وطبعها وتوزيعها واسمها « الأديب المصرى » ٠٠ وكان من عادتنا أن نجتمع مساء كل خميس فى أحد مقاهى ميدان التوفيقية كصحبة أدبية جديدة ٠٠ وحدث ذات مساء ٠٠٠ أن أهل علينا ناجى ونحن جلوس على مقاعد المقهى الخارجية فوق رصيف الميدان بدعوة كان قد وجهها اليه الأستاذ مفيد الشوباشى بمناسبة نشر أحـدث قصائده التى أهداها للمجلة ورفض أن ينشرها فى أى مجلة أخرى ٠٠ وتصادف فى تلك الليلة ان كان يجلس بداخل المقهى يقارع بنت ألحان أديبنا العتيد زكى مبارك ٠٠٠ وكان يفضل دائما أن ينزوى بنفسه أو فى رفقة قليلة بعيدا عن الأنظار ٠٠٠ فلما حضر ناجى وطالت جلسته معنا لمحه زكى مبارك فقام يهتز لناحيتنا ٠٠ ويدعونا ما دام فى صحبتنا ناجى أن ندخل اليه فى أغوار المقهى ٠٠٠ وكانت ليلة لا تنسى ٠٠ بدأها زكى مبارك بالهجوم على شعر العقاد ٠٠٠ ثم تطرق الى ناجى فحاول أن ينال من شعره ٠ ودعاه الى كأس صداقة وصراحة كما كان يسميه ٠٠٠ وتبودلت الأنخاب فى صحة ناجى ٠ فلما طلب له زكى مبارك كأسا ثانية ٠٠٠ كان ناجى قد الوحت برأسه الخمر من الكأس الأولى فامتنع ٠٠٠ وتهكم عليه زكى مبارك بعد أن اكتشف انه يكتب عن الخمر وهو الذى لا يقدر على

شربها مع أن كل شعره ينصب على السكارى الذين لا يفيقون منها ...
وراح زكي مبارك رحمه الله يعيب على ناجى هذا النقص ... فهو بالفعل
لا يشرب ولكن معظم قصائده لا تخلو من التشبث بأجواء السكارى ونشوة
المخمورين وقال ناجي ان خمر حياته هو حبه لأن الحب هو عصارة قلبه
.. وما الخمر الا عصارة من العصارات ..

وطال بنا الليل فأغلقت المقهى علينا ونحن جلوس داخلها وبدأ زكي
مبارك يتحرش بناجى فى الشعر .. فطالبه لمطارحته على أن يقول كل
منهما بيتا فيسارع الآخر بالرد عليه من آخر حرف فى آخر كلمة فيه ..
وبشرط أن يكون من تأليفه على غير العادة في مطارحات الشعر ... وبدأ
زكى مبارك ببيت من شعره ... فرد عليه ناجى ببيت آخر ارتجله مباشرة
واستمرت المطارحة .. كان زكي مبارك يستحضر أبياتا من شعره المكتوب.
بينما ناجى يرتجل الأبيات عفوف الخاطر وفى بداهة لا تعرف التوقف وزكي
مبارك نفسه لايصدق ويتهمه بأن ما يقوله من أبيات انما هو من محفوظ
اشعاره ... كان تحديا مثيرا رد عليه ناجى ... بأن كان يقابل كل بيت
بقوله زكى مبارك بعده ابيات متلاحقـة على صورة رد فى المعنى والفكرة
والمضمون ... شيء اشبه بالقصائد القصيرة ....

وتلك كانت حقيقة شاعرية ناجى .. فهو يقول الشعر على سجيته
ويرتجله ارتجالا فوريا ... موهبـة فذة لا يضارعها الا عجزة عن حفظ
أكثر من بيت أو بيتين من أى قصيدة سبق أن كتبها .

آخر لقاء

على اخريـات حياته ترك ناجى ادارة مستشفى الخـازندار وكانت
تابعة لوزارة الأوقاف ... وعين رئيسا للقسم الطبى بالوزارة .. واذكر
ان أخر مرة رأيته فيها حين لقيته خارجا من الوزارة ومعه أحد الفراشين..
كان يحمل حوالى خمسين من ديوانه الأخير ويتقاسم حملها مع الفراش ...
فلما رأنى ... نادى على من الرصيف المقابل فما ان اقبلت عليه حتى رمى
ينسخ الديوان على الأرض ... ثم أسرع وفى يده نسخة ... فأهداها
الى فى فرحة بالغة لا تعادلها فرحة الطفل وهو يبارك لك لعبته الأثيرة ...
وسألته اذا كان قد جمع فيها كل شعره .. فهز رأسه فى حزن ووجوم

هذا كل ما أسعفني به لأصدقاء من أوراقهم ... يقصد الأوراق التى كان يدون عليها قصائدة قبل ان ينساها ويهديها لهم .. ثم ينساها حين يكتب غيرها .. وأسرع ليلحق بالفراش بعد أن منعنى من مساعدته على حمـل بعض ما كان يحملـه من النسـخ ... ورجانى أن اقرأ الديوان واناقشه فيه حين القاه ... ولكنى لم القاه بعد ذلك حتى اليوم ... لأن هذه كانت أخر مرة رأيت فيها ابراهيم ناجى .... ابرز وألمع شعرائنا الرومانتيكيين المحدثين واستاذهم جميعا ....



مكنه الساعة الخامسة ٠٠٠ أى القطار الذى يربط بلدنا بالقاهرة كان يصل دائما عند الغروب ٠٠٠ وهو عبارة عن عربتين ٠٠ أحدهما للبضائع والأخرى للركاب ٠٠٠ ولهذا لم تكن تطاوعنى نفسى على الرقاد فى الظهيره حتى الحق بعربة البضائع وهم ينزلون منها جرائد المساء ٠٠٠ ويناولنى عم سيد الزنجى ٠٠٠ بائع الجرائد الوحيد فى بلدنا ٠٠٠ نسخة من جريدة البلاغ اخذها منه وأنا أكاد اطير فى الهواء عائدا الى بيتنا ٠٠٠ واقبع فى ركن قصى من الغرفة المخصصـة لى ولشقيقى وانفرد بنفسى لاقرا أو على الأصح لأحفظ مقال العقاد اليومى ٠٠٠٠ فقد بلغ أعجابى بالعقاد أننى كنت أحفظ كتاباته عن ظهر قلب كما نفعل فى مادة المحفوظات المدرسيـة ولم يكن يعنينى كثيرا ما يطرقه فيها من موضوعات ٠٠ لأن مقالاته كانت كلها تدور حول السياسة ٠٠٠ انما كان شغفى واعجابى ينصب على أسلوب الكتابـة نفسها ٠٠٠ فقد سحرنى العقاد باسلوبـة لسنوات عديدة فلما اتسعت دائرة اهتماماتى ٠٠٠ وشرعت فى قراءة طه حسين والمازنى ثم توفيق الحكيم بدأت ازهد فى قراءة العقاد لكنى على مدار الثلاثينات كنت اتعقب العقاد فى معظم كتاباته وكتبه ٠٠٠ وشيئا فشيئا بدأت تخف حدة اعجابى به وهوايتى له ٠ ولم يكن ذلك بتأثير من أحد ٠٠٠٠ أعنى اننى لم أجحد العقاد مفضلا عليه غيره ٠٠٠ ولكنى جحدت العقاد بسبب ما أخذ يتطور فى داخليتى وتكوينى من آراء ومثل وقيم ومبادىء كانت كلها تتناقض مع ما يكتبه ٠٠٠٠

الاطـار السـياسى

على بداية الأربعينات كان العقاد قد وصل الى عدة مفاهيم ومواقف محددة فى كثير من القضايا الفكرية والاجتماعية بل والسياسية أيضا ٠٠٠ لذلك برز فى كتاباته الكثير من الآراء المخالفة لما كان يكتب عنه وينادى به قبلا ٠٠٠ فقد تحول الى محافظ متعنت يتقيد بآراء جامدة بعد ان كان مفكرا حرا ينحاز للتيارات الشعبية ٠٠ ولعلنا نستطيع أن نلمس ذلك بوضوح كامل فى مواقفه السياسية ٠٠٠ ففى البداية انفرد بين الآخرين بمشايعته لحزب الأغلبية ٠٠٠ حزب الوفد ـ وكان كما وصفه سعد زغلول « جبار القلم » وبلغ به الأمر الى حد أن سجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ٠٠٠ لكنه لم يلبث بعدها بسنوات أن تحول ليصبح أكثر الكتاب تطرفا فى مناصرة السراى وحكم الأقليات وأكثرهم دفاعا عن الديمقراطية على الصورة التى فرضها الانجليز بالذات فى جانبها المحافظ الذى يرجح حكم الأرستقراطية عما عداها من فئات ووقعت الحرب العالمية الثانية والعقاد يقف على رأس التيار المعادى للفاشبية فى دفاع محموم صارخ عن النمط الديموقراطى الغربى وبالذات أسلوب حكم المحافظين الانجليز فلما اقتربت قوات المحور من العلمين وأصبح روميل على مسيرة أميال من الاسكندرية هرب العقاد من مصر وارتحل الى السودان ٠٠٠ وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى يغادر فيها العقاد أرض الوطن ٠٠

ظاهرة العقـاد

فاذا خرجنا بكم عن هذا الاطار السـياسى الذى كان يلف الحيـاة العامة للعقاد كاتبا ومفكرا ٠٠٠ فقد يلزم أن نرتد الى بدايات العقاد ٠٠٠ شاعرا وأديبا ورائدا من الرواد الكبار لحياتنا الثقافية ٠٠٠ وفى هـذا أيضا لا يمكن فصل العقاد عن السياسة لانه مهما كانت قيمة الدور الذى لعبه العقاد ٠٠٠ وهو دور بارز لا شك ٠٠٠ فان هذا الدور تحدد دائما بموقف العقاد السياسى ٠٠٠٠ ودعكم من أنه علم نفسه بنفسه وكان مثقفا عصاميا لم يتابع الدراسة المنتظمة التى حظى بها بقية الرواد من معاصريه فهذه العصامية الثقافية التى دائما ما تلصق به ليست بالشىء المستبعد على تكوينه ٠٠٠ وليست هى أيضا التى ميزته عن الآخرين ٠٠٠ فقد كان العقاد من الأصل يتمتع بما يمكن أن نسميه مواصفات المثقف ٠٠٠ رجل كثير القراءة ٠٠٠ قادر على الكتابة وله أسلوبه المميز القوى ٠٠٠ لكن

مواهبه وملكاته وطاقاته تجنح به جميعا الى الموسوعية وتباعد بينه وبين الخلق الابداعي ... ولهذا غلب الجانب الدراسى على مؤلفاته وكتاباته .. فهو قد يكون باحثا ودارسا ومنعتا وربما ناقدا ... أكثر منه روائيا أو شاعرا ... ولهذا فقد لا نجد له بين مؤلفاته الوافرة العديدة غير رواية واحـدة يتيمة هى « سارة » وعمل بارز آخر تمتزج فيه الدراسة بالابداع هو كتابه عن « ابن الرومى » ولهذا أيضا فان دواوينه الكثيرة من الشعر لم تشفع له أن يتبوأ ما كان يصبو اليه دائما من مكانة بارزة كشاعر ... وقد وجد له خير متنفس لهذا الجانب الخابى من طاقاته الخلاقة فى كتابه « العبقريات » وهى تراجم كانت تقربه من ملكة الخلق الفنى الابداعى التى تطمرها قدرته على الدراسة والبحث وما تمده به قراءاته المنوعة من طاقات ومنطلقات ... فاذا أضفنا الى ذلك شخصية العقاد نفسه وهى شخصية يعرف صاحبها كيف يفرضها على الآخرين فى تسلط وهيمنة واعتداد لما استعصى علينا أن ندرك حقيقة التمايز الذى أوجد ما يمكن أن يسمى ظاهرة العقاد « ذلك ان العقاد كان كاتبا ومفكرا وأديبا ... ولكن العقاد كان أيضا شخصية ولهذا فان أغلب ما يكتبه اليوم عن العقاد .. لا ينصب فى مجموعه على انتاجه الأدبى والفنى ... ناهيكم عن شعره وانما يتركز فى الأعم الأغلب على شخصيته .. ثم ما كانت هذه الشخصية تمثله سواء فى كتاباته أو ندواته أو مواقفه كسند لمختلف الآراء والمفاهيم التى يتميز بها الفكر المحافظ ...

الطـود الصـامد

فى عام ١٩٤٩ كان العقاد وهو من أسبق الكتاب فى المناداة بالحرية .. يتصدر الصفوف التى تقف فى وجه كل منطلق فكرى متقدم وحر ... بل كان قد نصب نفسه نهائيا وبحكم قامته الأدبية المديدة وكأنه السد الشامخ المانع لكل ما يعتقده انحرافا عن النهج القويم ... ويقصد بذلك نهجه المحافظ ... ولهذا غلبت على كتاباته باستعمال ألفاظ قاطعة مانعة من ألفاظ الوجوب والحتم والالزام والمفخمات اللفظية التركيبية التى تميز أسلوبه عامة ... وفى تلك الفترة كانت مصر تموج بالتيارات الاشتراكية على صورة جارفة وتغلغل صارخ لم تعرفه من قبل ... وكان رد الفعل الطبيعى لذلك ظهـور الجماعات الدينية المتطرفة التى نهضت لمقـاومتها بالعنف ... وأصبح لابد للعقـاد أن يختط لنفســه وفى مجال الصراع الفكرى والعقائدى الذى ولد قيام مثل هذه المتعارضات منهجا واضحا ...

منهج يتفق مع ترفعه الثقافى وابتعاده الكلى عن مضمار النشاط السياسى ويحفظ له كيانه كشخصية لها تأثيرها المتصل فى المجال الواسع للرأى العام فكان أن رسخ فى ندوته يجمع من حوله الأشياع والأتباع والمعجبين ليزود بالقول والفكر ··· وباللسان والقلم عن كل ما يصدر عن الجانبين المتطرفين ··· فى أقصى اليمين وفى أقصى اليسار من كتابات ··· هى فى نظره « عين الضلال » لهذا اتجه فى مقارعة المتهوسين الدينيين وأعدائهم من الملحدين الخارجين الى الكتابات التى يمكن أن نصفها بالاسلاميات البحتة ·· فكما كتب عن « الله » عاد فكتب عن « ابليس » ··· وفى كلا الكتابين تجلت براعته الاقناعية والمنطقية التى تميز بها أسلوبه اللغوى نفسه ···

جريمة نقد العقاد

أيامها كان العقاد اذا ظهر كتاب أو مقال أو رأى يخالف ما يكتبه ينبرى له خصمه فى عنف وسخط وسباب واضح مرتكنا على ما لصق بشخصه من اعتداد وتسلط أو ما كان يتصوره عنه أنصاره من جبروت نتيجة لاعجابهم الصارخ به ··· حدث أيامها أن صدر للعقاد نفسه كتيبا عن برنارد شو ···· ويظهر انه كتبه بسرعة مستندا الى قراءاته القديمة ومعلوماته العامة عن الكاتب الايرلندى ·· وكان الهدف من نشره مهاجمة الاشتراكيين من خلال المسرح الايرلندى وكنا أيامها (مجموعة من الشبان الأدباء) تصدر مجلة « الأديب المصرى » باشراف الأستاذ مفيد الشوباشى الذى كان من ألصق أصدقاء العقاد ومن أكثر الشعراء تأثرا بأسلوبه الشعرى « العقلانى » كما كان يسميه · ولم يعجبنى كتاب العقاد بعد أن قرأته واستفزنى فيه اللهجة التى كتبه بها والمعلومات الأولية الساذجة التى اشتمل عليها ··· وكنت حينذاك متشبعا ببرنارد شو الى درجة اعداد أربع مسرحيات كاملة من أعماله وتقديمها فى الاذاعة مما يتعارض مع ما فى كتاب العقاد عنه من قدح وبالذات لما عرف عن برنارد شو من تسخيره لمسرحياته للترويج لآرائه ومذاهبه··وقد انصب تسفيه العقاد لبرنارد شو فى كتابه عنه على هذا الجانب ·

قدمت نقدى عن الكتاب الى المطبعة مباشرة ولم أستشر فيه الأستاذ مفيد وكنت بذلك أحاول وضعه أمام الأمر الواقع خشية أن يمنع المقال بحكم صلته بالعقاد ··· ولكنه ما كاد يراجع بروفة العدد حتى أقبل يحيينى فى اطراء بالغ لاننى نقدت الكتاب وما فيه من معلومات وحقائق

عن برنارد شو باتزان ودقة مع استنكار مبطون لأن يصدر مثل هذا الكتاب. الساذج عن كاتب فى قامة العقاد ·· وكان العقاد يقرأ المجلة لاننا نرسلها له ··· وطبيعى أن ينفجر ثائرا لما كتبته عنه ··· وعلمت من بعض رواد ندوته الأسبوعية انه يشتمنى بأقذع العبارات واتهم الرابطة جميعها بانها تضم مجموعة من « العيال الذين يلعبون فى أوساخهم » ··· والعبارة رسخت فى ذهنى لانها لا تستبعد على لسان العقاد اذا غضب ···

مواجهة العملاق

لكن الذى حدث أكثر من ذلك اننى بعدها بأيام دخلت مكتبة الأنجلو بغية الحصول على كتاب جديد فاذا بى وجها لوجه أمام العقاد وهو ينتقى عدة كتب من هناك كما كانت عادته ··· ولم يكن العقاد يعرفنى بالطبع ·· وأين أكون أنا منه ؟ كاتب شاب مجهول لم يبلغ الثلاثين ويتطاول على عملاق ··· وبغتة ·· أشار الى أحد أتباعه المرافقين له « أهـه » ···· اللى هاجم كتابك عن برنارد شو ··· ونظر الى العقاد ··· ولكن نظرته لم تنم عن الغضب مع انى توقعت وهو ينظر الى انه على الأقل سيأمرهم باخراجى من مكتبة الأنجلو ··· قال العقاد وهو يشير بأصبعه وكان على غير المألوف لا يرتدى نظارته وعيونه شديدة الاحمرار ··· ولم تكن الكوفية التقليدية تحيط بعنقه لاننا كنا فى الصيف ··· كانت صورته مختلفة عن الصورة التى تعودت أن أراه عليها ···

ـ أنا شفتك قبل كده ؟ انت جيت الندوة ؟

وكان يقصد ندوته الأسبوعية فى داره بمصر الجديدة وهى الندوة المشهورة التى ظل يعقدها حتى وفاته ··· أجبته اننى حضرتها مرة واحدة ··· فردد وفى صوته حشرجة ··· « مش كفاية » ··· وتقدم منى أحد الأتباع وأخبرنى انى الأستاذ يريدنى أن أتردد على الندوة ···

موقف العقاد

لم أكن محرجا أبدا ··· ولكننى كنت حانقا على الطريقة التى عاملنى بها لانه سرعان ما تجاهل وجودى حين جاءه موظف المكتبة باحدى المطبوعات ليعرضها عليه ··· من الواضح ان شيئا كان قد أصاب عيونه لانه يرتدى

المنظار كما قلت ... وطلب الى أحد مرافقيه أن يقرأ له عنــوان كتاب ثم أعاده الى موظف المكتبة وأنا فى غاية الحرج ... لا شك أن العقاد يريد أن يظهر لى اننى تافه لا أستحق أن أواجهه ... لكنه لمحنى وأنا أغادر المكتبة بعدها بلحظات وكان قد جلس على أحد المقاعد وأمامه كوب من الماء وفنجان قهوة .. وناداني .. فلم أتردد فى العودة رغم انى كنت قد وصلت الى عتبة الباب الخارجي لمدخل مكتبة الأنجلو وطلب لى مقعد لأجلس ...

أشعلت سيجارة وأنا جالس فى صمت والكل ينتظر أن يتكلم العقاد وتنحنح بحشرجته المعهودة ... « هه ... واضح انك بتعرف انجليزى كويس » فأجبته باننى خريج قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب ... وهز رأسه .. « انت مجتهد وعندك أسلوب » فلاحقته بأن الفضل له واننى أخذت أسلوبى عنه .. وكنت صادقا فيما أقول ....

ـ واضح جدا انك مش « طه حسينى » .

وكان يقصد فى أسلوب الكتابة .. واستطرد بعدها :

ـ لكن انت متهجم ...

فأجبته « الفضل لك يا أستاذ » ... فقهقه ضاحكا ثم راح يوجه كلامه الى المحيطين به شارحا .. بأن هذا الجيل الجديد من أمثالى ... مضلل ... لكنه مثقف بثقافة عاجزة وعقيمة تشل عقولهم وتكبل أرواحهم ومن المؤسف انها تدفعهم الى التطاول ... فاهمين فى روحهم أكثر من اللازم ... فقمت واقفا محتجا .. وهنا انقلبت سحنة العقاد وتخلى عن السماحة والتبسط الذى أظهره من قبل ...

ثم انطلقت منه العبــارات وكان يوجههــا للآخرين ... مســاكين مضللين تجردوا من أى منطق أو معقولية ثم التفت الى وأنا على وشــك التحرك لأنسحب متمما :

ـ اسمع يا ابنى ... هو الميزة الوحيدة فى الكلام اللى انت كتبته انك كنت مهذب ... لكن هذا لا يشفع لك تطاولك ... انت تعرف برنارد شو أكثر منى ؟

فأجبته باننى لم أدعى ذلك ...

ـ لكن كلامك بيدل على كده .... ما أنا عارفكم ... كلكم دماغكو ناشفه ... كان العقاد يتكلم بحدة هادئة ... ولذلك انتهزت فرصة دعوة

أحدهم له كي يشرب القهوة قبل أن تبرد ... وانسحبت وكان العقاد قد بدأ في ارتشاف القهوة فلم يحاول حتى أن ينظر الى وأنا أغادر المكتبة ... ولحق بى واحد من أتباعه على الباب :

ـ ابقى تعالى الندوة ... دى تعتبر دعوة مفتوحة ... عمر العقاد ما عملها ...

وأجبته موافقا وأنا أقول :

ـ عارف لو كان معاه العصايا ... كان حيضربنى بيها ...

ولكنه أنكر زعمى :

ـ أبدا ... العقاد مش كده ... انتوا مش فاهمينه كويس ...

الرقة العاطفية

حين قابلت الأستاذ مفيد الشوباشي بعد ذلك أخبرته بما حدث فابتسم ضاحكا وأفهمنى ان العقاد انما يعاملنى بهذه البساطة ... اكراما لخاطره ... والواقع ان هذا كان غير صحيح ... لأن العقاد على قدر تهجمه وعنفه وعلى قدر ما يبدو عليه فى صورته العملاقة التى كان يصوره بهـا أعوانه وأتباعه ... الم نكن تنقصه الرقة أو الليونة ... وهى رقة عاطفية كان يجتهد دائما فى اخفائها وكأنها مسبة أو ضعفا يتعارض مع ما يجب أن ترسخ عليه صورته فى أذهان الآخرين ... وهذا الجانب الخافى من شخصيته لم يكن يبرز الا فى معاملاته الجانبية لمن يحيطون به من أهل بيته والملاصقين بحياته اليومية ... وهذه الصفة تقابلها صفة أخرى للعقاد ... وهى صفة الجمع بين الجدية الكاسحة ... والسخرية اللماحة التى تستند الى الفكاهة الخالصة ... ولعل هذه من أبرز الصفات التى تتحلى بها كتاباته فى أبعادها الصحيحة اذا طرحنا عنها المفهومات السائدة عن التهجم المتسلط والجمود المتجبر الذى كان يلصقه به عادة ... معظم المعجبين به من البعيدين عنه ...

مع ذوى القربى

ذات مساء وكنت فى دعوة عشاء مع المرحوم الشاعر عبد الرحمن صـدقى جرى الحديث عن العقـاد فلم أستطع أن أكتم رأيى فى الكثير مما أثير خلال الأمسية ... وكان اعتراضى فى مجمله ينصب على ان العقاد

كظاهرة أدبية الها قوامها الشامخ الوطيد ... لا تستند مكانته الى كتاباته وحدها ... لانها مكانة تعتمد على شخصيته أيضا وان العقاد فى أروع مواهبه ... كاتب مقال لا يشق له غبار حسب الوصف المعتاد .... والم يعجب هذا الكلام معظم الموجودين فيما عدا عبد الرحمن صدقى رحمه الله ... فقد وافقنى على اننى لمست فى العقاد جانبا خافيا على معظم من يقدرونه وهو ما يتميز به من شخصية تجعله أقرب ما يكون من فولتير الفرنسى ... أو كما أضفت فى حوارى معه ... بل « دكتور جونسون » الانجليزى ....لأنه أقرب الى ما يمكن أن يتمثله العقاد فى نفسه بحكم ثقافته ... وازاء هذا التوافق كان لابد أن أستجيب لدعوة عبد الرحمن صدقى فأصحبه بعدها بأسبوع واحد الى ندوة العقاد ..

النـــدوة

ترددت طويلا قبل أن أستجيب للدعوة ... وسرعان ما وجدتنى فى صحبة عبد الرحمن صدقى رحمه الله ... واذا بنا فى حضرة العقاد .. مثل هؤلاء الناس ما دمنا أحياء معهم لابد أن نراهم طالما نقرأ الهم ونتأثر بهم ... ولهذا كنت أسعى دائما الى مثل هذه اللقاءات فى سعادة غامرة لأنها تحفر فى داخلية نفسى ذكريات لا تنسى خصوصا واننى تعودت أن أسجل ما يدور فيها بعد الانتهاء منها ...

لا أرانى فى حاجة لكى أصف لكم شقة العقاد أو أروى لكم الكثير عن ندوته ... لانها أشياء استهلكتها الكتابات الصحفية العديدة ولا تزال تتحدث عنها الأقلام التى عاش أصحابها مع العقاد باتصال لا ينقطع فى ندوته الشهيرة الى درجة أن بعضهم يطالب بالعودة الى عقد للندوة بعد العديد من السنين التى انصرمت على وفاة عملاقها ... جلست قبالة العقاد مع عبد الرحمن صدقى وكان يرتدى طاقية ويلتفح بالكوفية حول عنقه .. اذ كنا فى الشتاء ... وكانت صحته جيدة ومعنى هذا بالنسبة للعقاد ان مزاجه سيكون رائقا ... وبالفعل كان العقاد يومها كذلك ...

وحين حاول المرحوم عبد الرحمن صدقى أن يقدمنى له ابتسم وقال انه يعرفنى لأننى هاجمته من سنوات . وخشى الرجل أن يهاجمنى العقاد فرجاه أن يسامحنى وأخبره بما جئنا من أجله وهو اننا نختلف فى تحديد شخصيته لانى أرى انه أقرب الى الدكتور جونسون منه الى فولتير كما يراه هو ... وتجهم العقاد قليلا ثم قال :

ـ هذا تصور غير صحيح فلا أنا هذا ولا أنا ذاك ··· أنا عباس محمود العقاد ··· وكفى ···

ورد عليه أحد الأشياع فى اطراء ظاهر ··· لم يسبقه أحد ولن يلحق به أحد ··· قال العقاد وهو يتململ :

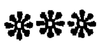
ـ دعونا من مثل هذه الترهات ··· فلا يجب أن نغلق على أنفسنا ··· ونادى أحدهم فى طلب الشاى معلنا ان الندوة مفتوحة ·· كنت اعرف بعض أصحاب الوجوه من الجالسين ··· أعرفهم بأسمائهم كما كشف عنها الحوار الذى دار بعد ذلك حول عديد من الموضوعات ولكنه انصب فى أغلبه على رأى لطه حسين كان قد ظهر فى حديث له مع أحد الجرائد خلال الأسبوع وهو رأى يحبذ فيه طه حسين ضرورة الاتجاه نحو ما يسمى أيامها بالاصلاح الاجتماعى ويتهمه فيها معظم الجالسين بانه يقصد من وراء ذلك الترويج للمبادىء الاشتراكية ··· وانبرى أحدهم يستثير العقاد ··· لكن العقاد لم يكن فى حاجة الى أدنى استثارة ··· فسرعان ما انطلق :

ـ هـذا رأى طه حسين على الدوام ··· يجـارى الموجة وأحيـانا ما يسبقها طه حسين كان حرا دستوريا ··· واليوم أصبح أكثر الوفديين تطرف ومع ذلك فأنا لا أستبعد أن ينشق بعد ذلك على الوفد ··· وتوالت المطاعن على طه حسين ··· ولكن العقاد سرعان ما نادى بصوته المجلجل :

ـ لاء ·· أنا لا أسمح بمثل هذه الأقوال فى الدكتور العميد ···

ويبدو ان بعضهم أخذ كلمة الدكتور العميد على انها عبارة تهكمية يسخر بها العقاد من طه حسين ··· ولكن الواقع ان العقاد كان جادا وحازما فطالبهم بأن يحتفظ كل منهم برأيه لنفسه فى هذا الموضوع ثم بدأ يتحدث عن نيته فى الانتهاء من كتاب يعده للطبع عن الشيخ الامام محمد عبده ··· ومع تشتت الحديث الى مختلف الموضوعات كان العقاد ··· لا بوصفه صاحب الدار ··· ولا بوصفه أستاذا للجالسين جميعا ··· يأخذ على امتداد الجلسة سمتا عجيبا خيل لى معه انه أشبه بتمثال فرعونى ضخم وضع على مدخل الكرنك وسط طريق الكباش المتراصة حوله على مختلف المقاعد ···

وانفضت الندوة٠٠وخرجت كما جئت فى صحبة المرحوم عبد الرحمن صدقى ٠٠٠ ولم يحاول الرجل أن يفرض على رأيا ٠٠٠ وانما رجانى أن أتردد على الندوة لأدرس العقاد جيدا حتى أعرفه على حقيقته ٠٠ وهذا نوع من الاخلاص النادر الذى كان يتميز به كل من ارتبطوا بالعقاد أو داروا فى فلكه ٠٠٠ بعدها بسنوات قليلة مات العقاد ومنذ سنوات قليلة أيضا كنت فى جلسة مع توفيق الحكيم فى رواقه بفندق سميراميس قبل هدمه ٠٠٠ ودار الحديث حول العقاد وكانت المناسبة الاحتفال بانشاء قبر له فى مسقط رأسه بأسوان لتخليد ذكراه وكان الحكيم كعادته منطلقا فى الحديث مستتأثرا بالكلام يروى ذكرياته عن العقاد وطه حسين وعلاقته بهما ٠٠٠ وفجأة سأله أحدهم عن رأيه الصريح فيهما ٠٠٠ فلم يتوقف الحكيم وانما راح يحدد مكانة العقاد ومكانة طه حسين وعلاقته بهما ٠٠٠ وفى صراحة عجيبة لا تستغرب أحيانا منه قال الحكيم ان كلاهما كان فذا فى مجاله ولكن كلاهما توقف بانتاجه عند الحدود الفاصلة ٠٠٠ بين المقال الأدبى ٠٠٠ والابداع الفنى انه وحده الذى حمل عبء الابداع الفنى الخالص من دونهما ٠٠٠ ولكم أن تسألوا توفيق الحكيم عن ذلك وهو لن يتجنب الرد لأن ميزة هذا الجيل من الرواد مهما اختلفت نظرتنا اليهم ٠٠٠ ان كل منهم كان يبنى نفسه بنفسه ويحكم على الآخرين وهو يقف فوق قمة ما بناه بغض النظـر عن أى خلاف أو اتفـاق يمكن أن تكون قد أنبتته العلاقة الشخصية ٠٠٠ وهذا يصدق على العقاد مثلما يصدق على توفيق الحكيم ومثلما يصدق على طه حسين ٠٠٠ فلا مكان عندهم للحقد أو الغيرة أو الجحود ٠٠٠ وانما كان يحركهم دائما ٠٠٠ ما يمكن أن نسميه الاحساس بالتمايز الذى يربطهم بالمستقبل ٠



بلـــديات

بعد حصولى على شهادة البكالوريا وهى ما يعادل حاليا فى شهادات التعليم عندنا ما يسمونه بالثانوية العامة ‥ صمم والدى رحمه الله ان يدخلنى كلية الحقوق ‥ وبالفعل صحبنى الى القاهرة وقدمت أوراقى لألتحق بها وأدرس القانون ‥ وأمضيت بضعة أسابيع فى الحقوق كانت من أتعس أيام حياتى التعليمية ‥ ولأنى كنت أقيم بالقــاهرة وحدى وأقطن حى الجيزة مع بعض التلاميذ من أبناء بلدنا ‥ أتيح لى ان أحتك بالعديد من العاملين بالجامعــة ‥ جامعة فؤاد ‥ وكانت هى الجامعة الوحيدة فى القطر كله ‥ وذات مساء جلست أحتسى الشاى على الرصيف الواسع لقهوة عبد الله الشهيرة ‥ وكان يجاورنى مسجل كلية الآداب الذى يقطن فى نفس الشارع الذى يقع فيه مسكننا ‥ كنت قد لقيته أكثر من مرة وأنا أشترى حاجياتى من البقال وكان يعرف اننى من طلبة الجامعة الجدد ‥ ولكنه لا يدرى اننى فى كلية الحقوق ‥ أيامها كان عددنا قليل جدا ‥ لا يتجاوز مائة طالب جديد فى كل كلية ‥ ويبدو أن الرجل لاحظ على الوجوم والحزن واننى أفرط فى التدخين ‥ واقترب منى ولكنه لم يحاول ان يسألنى عن كليتى وانما على البلد الذى أتيت منه فقد كان من الواضح اننى لست من أبناء القاهرة ‥ واتضح اننى جئت من بلد قريب لقريته وانه يعرف عمى وبعض أقاربى وفى الحال ربطتنا صـــداقة مفاجئة ‥ كان من نتيجتها انه راح يستشف سبب

حزنى ووجومى وسر تعاستى ·· فقد اتضح انه كان يراقبنى من زمن سواء فى لقائنا فى الشارع الذى يضم مسكنه أو فى هذه المقهى الذى اعتاد الجلوس فيها ·

الظل الوارف لطـه حسين

كانت المفاجأة الأولى حين عرفت انه مسجل كلية الآداب ·· والمفاجأة الثانية انه من أقرب المقربين للعميد ·· الدكتور طه حسين ·· وفى الحال صارحته بما أعانيه فقد أجبرنى والدى على دخول كلية الحقوق ودفع لى المصاريف وسجلت بها وأصبحت طالبا فيها · ولكننى لا أطيق الجلوس الى مقاعدها والاستماع لمحاضرات الأساتذة فيها ·· فأنا لست صاحب عقلية قانونية وحياتى وكل آمالى معلقة بدخول كلية الآداب ·· وأخذ الرجل اسمى بالكامل والصف الدراسى الذى الحقه به فى كلية الحقوق وطلب الى ان القاه غدا مباشرة فى كلية الآداب ·· هرولت فى صباح اليوم التالى مسرعا الى مكتبه فوجدته فى انتظارى ·· وكان قد أجرى اتصالا هاتفيا مع زميله مسجل كلية الحقوق عنى وعن حالتى · وحصل منه على الدرجات التى نلتها فى العلوم المختلفة فى شهادة البكالوريا ·· وأخبرنى بأنها تتناسب مع وجودى أو على الأصح الحاقى مباشرة بكلية الآداب خاصة بالنسبة الى درجات اللغات والفلسفة والتاريخ ·· واذن فليس هناك عقبة وان فى امكانه تحويلى للآداب لكنه لا يستطيع الا اذا حصلنا على موافقة والدى ·· وأسقط فى يدى فخاب أملى من جديد ولكننى لم أيأس فافهمته بأننى سأقدم على تحويل أوراقى ثم أخطر والدى فأنا لست صغيرا وهذا هو مستقبلى ·· وأذكر اننى بكيت ·· كان الرجل فى غاية الطيبة والسماحة فربت على كتفى فى حنان وقال انه سيتحمل المسئولية أمام والدى مستعينا بعمى الذى يعرفه والذى كان زميلا وصديقا له فى الدراسة الابتدائية بمدرسة بلدنا ·· ثم تركنى الى الغرفة المجاورة ولكنه لم يغب طويلا وسرعان ما عاد وأخذنى من يدى فاذا أنا وجها لوجه داخل الغرفة التى يتصدرها مكتب العميد ·· والدكتور طه حسين يسألنى لماذا أريد أن التحق بكلية الآداب وما هى الكتب التى قرأتها من كتب الأدب كانت مباغتة مذهلة ·· لكننى لم أتلعثم فلما انهيت اجابتى قال طه حسين كلمته الحاسمة التى قالها والتى لم انساها طوال عمرى ·· يقبل فورا بين طلبة الكلية ··

نصيحة مندور

على ضوء هذا الاستطراد أدخل بكم الى لقائى بمندور ٠٠ ففى العام الثانى مباشرة من التحاقى بالآداب ٠٠ كان المرحوم الدكتور مندور أو الاستاذ محمد مندور لانه لم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد كان يدرس لنا الترجمة من الانجليزية الى العربية وقد اختار لذلك المرتبة الشهيرة للشاعر جراى ٠٠ وكنت أنا كثير الكلام وكثير الشغب ٠٠ فلما انتهت الحصة استبقانى أمام المنصة لينصحنى لا بأن أكون أكثر هدوءا ولا بأن أكون أكثر طاعة ٠٠ ولكن بأن أسارع الى ترك كلية الآداب والالتحاق بكلية الحقوق لأننى أصلح أن أكون محاميا ولا يمكن أن أصبح مفكرا أو أديبا لم يكن يعرف عنى شيئا ولم أكن أنا قد عرفت عنه شيئا ٠٠ ذكرته بذلك بعدها بسنوات فضحك ساخرا وكشف لى سبب نصيحته فقد كان هو نفسه طالب الحقوق وقد أرسل فى بعثة لدراسة القانون وحصل على شهادة تبيح له امتهان المحاماة ٠٠ ولكنه وبفضل طه حسين أيضا ٠٠ مدت له البعثة فى باريس بعد لندن لدراسة الآداب ٠٠ غير ان وقوع الحرب العالمية الثانية اضطره للعودة الى مصر وقطع البعثة هو وعدد لا بأس به من المبعوثين كان بينهم ٠٠ الدكتور على حافظ والدكتور محمد القصاص وغيرهما ٠٠ وكانوا مجموعة من الشبان الجدد أحدث الحاقهم كمعيدين بكلية الآداب بضغط من طه حسين وفى مقابل أجر بالحصة اذ لم تكن خصصت لهم درجات فى ميزانية الجامعة ٠٠ دويا كبيرا فى الدوائر الادارية بالجامعة ٠٠ فعاشوا فى سنواتهم الأولى أقرب الى الطلبة منهم الى الأساتذة واندمجوا بالفعل فى الحياة الطلابية سيما وانهم كانوا يعيشون معنا فى نفس المساكن والحجرات بحى الدقى والجيزة ٠

صديق وأستاذ

وهكذا عرفت مندور صديقا أكثر منه أستاذا ٠٠ وكان مندور هو الوحيد بينهم الذى لم تسعفه الاقامة فى باريس للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب ٠٠ ذات مساء فوجئت به يجلس بيننا فى مقهى عبد الله بالجيزة وتناول معنا عشاءه من سندويتش الفول والطعمية ٠٠ ثم يدعونا أنا والصديق الراحل أنور المعداوى لزيارته فى منزله ٠٠ وكان قد وقع على شقة فى الدور الأول بعمارة جديدة على الشارع الرئيسى الذى يسير فيه الترام بجوار حديقة الحيوان ٠٠ كان ايجارها ثلاثة

جنيهات ولكنها تقع فى المنطقة الأرستقراطية من الحى ٠٠ ولم يكن مندور يكبرنا الا بسنوات قليلة أو هكذا كان يبدو لنا بشخصيته وبساطته وكأنه زميل وليس أستاذا يدرس لنا فى الجامعة بل أكثر من ذلك اننى كنت دائما وفى هذه السنوات الباكرة التى عرفته فيها استغرب ان يكون قد عاش فى لندن وباريس ٠٠ وهو على ما هو عليه ريفى كأنه لم يخرج من القرية التى ولد فيها بالشرقية وكنت استغرب حين اسمعه يتحدث بالانجليزية أو الفرنسية لأنه كان ينطقها بلهجة فلاح أصيل ٠٠ وكأنه تعلمها فى كتاب القرية ولم يدرسها فى اكسفورد أو السوربون ٠

الشعر المهموس

شىء آخر عن مندور فى تلك الفترة ٠٠ انه كان يحب المناقشة وكثرة الحوار كما لو كان يريد ان يعرف ما فاته معرفته من خبايا حياتنا الثقافية والاجتماعية أثنـاء غيابه في الخارج بوصفنا أكثر منه احتكاكا بالبيئة ٠٠ وفى تلك الفترة ما بين أعوام ١٩٤٠ الى ١٩٤٥ ورغم الاحكام العرفية واستمرار الحرب العالمية ٠٠ بدأت تظهر فى مصر دعوات عصرية جديدة وجريئة تتبلور فى جماعات مختلفة تنادى جميعهـا بالاشتراكية وكان مندور منصرفا أيامها لدراساته الأدبية واستقراره العائلى فتزوج وانتقل ليقطن فى حى الروضـــة ٠٠ ولكنه لم يبتعد أبدا عن الكلف والاهتمام بكل ما تفيض به حياتنا الفكرية والثقافية من تيارات ٠٠ بدأ أولا بنشاطه الأدبى فى مجلتى الرسالة والثقافة يكتب العديد من المقالات ثم شغف بدراسة الشعر المهجرى فكانت النتيجة ان نشر عنه كتابه الشهير « الشعر المهموس » الذى أحدث دويا غير منكور فى الأوساط الأدبية حينذاك فلفت اليه الأنظار كناقد مجدد خلاق ٠ وقبلها كان مندور قد بدأ سلسلة من الكتابات عن الشخصيات الأدبية التى درسها أثناء بعثته واطلاعه على التراث الأدبى الغربى ٠ جمعها من بعد ذلك فى كتاب بعنوان « نماذج بشرية » كان يعتز به أكثر من اعتزازه بأى عمل آخر من أعماله ٠٠ أهدانى مندور نسخة من هذا الكتاب ونحن نعمل معا فى جريدة الجمهورية على ختام الخمسينات فقراته وكتبت عنه ولا أنسى ولن أنسى سعادته بما كتبت عن هــذا الكتاب الذى كان يعتبره من أعظم ما كتب ٠٠ ومع ذلك يسميه « سقط المتاع » ٠

الكتابة الصحفية

زهد مندور فى الحياة الأكاديمية الجامعية بعد سنوات قليلة وشجعه نجاحه فى الكتابة بالصحف والمجلات ونشرة لأكثر من مؤلف وكتاب ان يحاول الانفصال عن الجامعة والاشتغال بالحياة العامة والكتابة الصحفية . ولكن عقدته انه لم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد .. ولذلك ظل ملتصقا بالجامعة حتى أجيزت رسالته فى الدكتوراه عن « الجرجانى » باشراف أستاذه طه حسين .. بعدها كان من السهل على مندور أن يترك الجامعة غير نادم وغير أسف وجاء ذلك نتيجة لانغماره فى الحياة العامة وتأثره بالتيار الاشتراكى القوى الذى غير الحياة الثقافية على نهاية الحرب العالمية الثانية .

قائد جناح اليسار

ولذلك لم يكن غريبا ان يحل عام ١٩٤٥ ومندور يرأس تحرير جريدة « صوت الأمة » المعبرة عن حزب الوفد .. ويصبح فى نفس الوقت على رأس الجناح السياسى اليسارى الذى برز داخل الوفد.انشغل مندور تماما بالنشاط السياسى والعمل الصحفى وهجر الكتابة الأدبية والنقدية.. ونجح فى الكتابة السياسية نجاحا غير مسبوق كان الوفد بعيدا عن الحكم وقد اشتد الصراع بينه وبين السراى والانجليز .. وبدأ النشاط الثقافى الذى يغمر الحياة العامة فى القاهرة وكانت تضم أيامها عشرات الروابط والأندية الثقافية بدأ يتحول الى نشاط سياسى يطالب بجلاء الانجليز بعد اقرار السلام وانتهاء الحرب ويدعو الى تحديد سلطة الملك والدعوة الى الاصلاح الاجتماعى .. وهى دعوة كانت تلتف كلها حول الأخذ بمبادىء الاشتراكية .. واحتضن حزب الوفد هذه الدعوة وكان مندور يبلورها فى كتاباته السياسية الواضحة وبأسلوب متطور يعتبر أبسط وأرشق الأساليب فى الكتابة السياسية على حد ما وصفه يوما يحى حقى وهكذا اتسعت دائرة شهرته ومكانته حتى ان باعة الصحف أنفسهم كانوا ينادون عليها فى كل مكان بهذا النداء المثير .. « الدكتور مندور » اقرأ مقال الدكتور مندور بدون اسم الجريدة التى يكتب فيها المقال .. ومن المؤسف ان هذه المقالات الرائعة التى طرق فيها مندور معظم القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم تجمع حتى الآن رغم أهميتها وقيمتها ورغم ان معظم هذه القضايا لا تزال تكون الأساس الفعلى لكثير من المشاكل التى

لا تزال معلقة فى حياتنا العامة الى اليوم وأخصها قضية الحرية والديمقراطية والاصــلاح الاجتمــاعى فضــلا عن القضــية العربية الكبرى ٠٠ قضــية فلسطين ٠٠ أصبح مندور من هذه الفترة يعرف بأنه وفدى ولكنه فى الواقع لم يكن كذلك وكان دائما يشكو من أن تلصق به هذه الحزبية لأنه كان يؤكد دائما أنا اشتراكى ومع الأغلبية ولأن الأغلبية مع الوفد ٠٠ فأنا وفدى بهذه الصفة فقط ٠٠ وبتلك العبارات دافع مندور عن نفسه حين حاولوا استبعاده عن الكتابة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ واعتبروه من رجالات الأحزاب البائدة المحرمة ٠

السياسى الأديب

زاد التصاقى بمندور فى تلك الفترة لأننى كنت بدورى قد انغمست فى الكفاح السياسى بشــأن كل المثقفين وأقف مع الجبهة التى تنــادى بالاشتراكية « انت أديب يسارى » كما كان يسمينى ٠٠ وذات ليلة وكاز ذلك عام ١٩٤٥ اشتاق مندور الى جلسة أدبية فاذا به يهل علينا ونحن جلوس فى المقهى العتيد « قهوة عبد الله » وكانت جلسة استمرت حتى الصباح تقريبا ٠٠ أيامها كنت أكتب فى مجلة الفجر الجديد وكانت مجلة يسارية أتابع فيها سلسلة مقالات لأحاول تفسير أدبنا الحديث على ضوء جديد يكشف عما فيه من مضمون تقدمى وهذه المقالات استرعت نظر مندور فما كان منه الا أن دعانى للكتابة فى «صوت الأمة» ٠٠ ولما صودرت مجلة الفجر الجديد احتضن مندور كتابها وأنا منهم ٠٠ كانت جريدة صوت الأمة تصدر فى ورقتين من ثمان صفحات فبدأت أنشر فى صفحاتها الأخيرة المخصصة للكتابة الأدبية والثقافية ٠٠ بعض قصصى القصيرة ثم تلوتها بتلخيصات لعديد من الروايات العالمية منها « الخبز والنبيذ » للكاتب العالمى الايطالى « انيــازو سيلونى » و « عناقيد الغضب » لاشتاينبيك الأميركى « والدون يجرى هادئا » ٠٠ ثم ترجمة لعديد من قصص وليم ساروپان الأميركى وملك راج انائد الهندى ٠٠ وكان مندور شديد الاهتمام بما أقدمه فاعترف أيامها ولأول مرة بأننى أديب موهوب ونصحنى أن أتجه للأدب وأبعد عن السياسة وهذه النصيحة لم أخذ بها الا متأخرا بعد عام ١٩٤٨ ٠٠ ولكن على أثر ما تعرضت له من وجوه الاضطهاد التى شاركت فيها مندور نفسه ٠

فى غياهب السجن

فى عام ١٩٤٦ كان الصراع السياسى فى مصر قد بلغ أشده فانفجرت الهبات السياسية داخل الجامعة ·· وتكونت لأول مرة ما يسمى بالجبهة الوطنية للعمال والطلبة ·· وقامت الاضطرابات فى المصانع وأعقبتها المظاهرات فى الجامعة ·· وكلها كانت تطالب بما جاءت تطالب به بعد ذلك وتحاول تحقيقه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ··

انهاء الاحتلال الانجليزى والقضاء على الملكية والاقطاع وتحقيق العدالة الاجتماعية ·· وهكذا وقعت مذبحة كوبرى عباس الشهيرة وتولى صدقى باشا الوزارة وبضربة واحدة أغلق كافة الصحف المعارضة وأولها صوت الأمة وقضى على جميع الهيئات والروابط والجمعيات الثقافية ثم ألقى القبض على أكثر من مائتى كاتب ومفكر وصحفى ·· منهم بالطبع مندور ·· وسلامة موسى وزكى عبد القادر ·· وكنت من بين المقبوض عليهم ·· لم تبق هذه الحملة على أحد يحمل القلم ويقول كلمة صادقة ولا أقول حرة الا وأدخلته خلف القضبان ·· ولم ينجو منها حتى الرسامين السيرياليين ·· وأودع أغلبنا سجن يسمى «قرميدان» فى ساحة القلعة ·· ومن الظريف انه أصبح بعد ذلك المكان الذىبنى فيه تمثالوضريح ومتحف الزعيم الوطنى مصطفى كامل ·· كان مندور أكثرنا صلابة وتماسكا ولكنه لم يكن أكثرنا سخرية على عكس ما كان أستاذنا سلامه موسى رحمه الله · كانت حملة غريبة ومريبة للقضاء على الحركة الوطنية والحركة الثقافية التى تساندها وتدعمها فكريا ·· وكان المقصود بها لا مجرد تكميم الأفواه وانما الغاء الدستور والتفاهم مع الانجليز وتشتت الوحدة التى أخذت تتكون بين الطلبة والعمال ·· ولكننا جميعا سرعان ما خرجنا من السجون بعد أسابيع قليلة بفضل رجال العدالة وتمسك القضاء نفسه بما تتيحه القوانين من ضمانات للحرية ·

مندور محاميا

خرج مندور مرفوع الرأس ليتولى رئاسة تحرير جريدة الوفد المصرى التى حلت محل صوت الأمة الملغاة ·· وعدنا لنكتب فيها ولنوسع من دائرة العناية بالثقافة لدرجة اصدار مجلة تابعة للجريدة للقصة القصيرة والشعر ·· لكنها جميعا لم تستمر لأكثر من عام ثم أغلقت بأمر عسكرى

نتيجة لاعادة فرض الاحكام العرفية على البلاد بعد الهبة الجارفة التى قامت فى الجامعة وقتل فيها الكثيرين فيما عرف بمعركة « كوبرى عبـاس » بعدها دب الخلاف فى داخل حزب الوفد وانقسم جناحين تزعم مندور الجانب اليسارى هو والشاعر المحامى المرحوم عزيز فهمى وخرج على القيادة الوفدية التى أخذت تسعى الى التفاهم مع السراى وأحزاب الأقلية .. وبدأت محاربة مندور فى رزقه فحرموا عليه العودة الى الجامعة ومنعوه من الاشتغال بالصحافة .. وكان مندور كما قلت قد عاد من الخارج وهو يحمل شهادة فى القانون تؤهله لامتهان المحاماه . ولذلك سرعان ما فتح مكتبا واشتغل محاميا .. لكنه لم يوفق فى هذه المهنة الجديدة فعاد الى الكتابة الأدبية والنقد وأيامها أخرج العديد من الدراسات عن شعر شوقى والبارودى ومسرحيات عزيز باظة وغيرها .. كانت سنوات قاسية انحصر خلالها نشاط مندور على ما كان يستطيع نشره من بحوث ومقالات نقدية وأدبية .. وطال به الحال على هذا الوضع حتى قيـام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأخـذت منه فى البداية موقفـا انه من رجال عهـد الأحزاب ومن أشياع النظام البائد .

النقد المسرحى :

كانت لطمة قوية ولكنها تقعد الرجل عن الكتابة ... اذ أن مندور يتميز الى جانب الصلابة والعناد برحابة الأفق .. وفى هذه الفترة راحت تتفتح طاقاته النقدية المستمدة من ماضيه الثقافى وسعة اطلاعه وكثرة قراءاته .. وسمح له بالكتابة فى المجلات الأدبية ، وشيئا فشيئا أخذت مقالاته تتفتح عن اتجاهات جديدة فى تفسير الأدب وملاحقة الانتاج الأدبى الذى واكب ثورة ١٩٥٢ من بدايتها فلما قامت الحركة المسرحية الجديدة التى ازدهرت فى أواخر الخمسينات ظهر مندور على رأس الحركة النقدية المساندة للنهوض المسرحى .. وكان من نتيجتها انه قام بالتدريس فى معهد الفنون المسرحيـة .. وأصبح من الأعضـاء الدائمين فى اللجـان المسرحية واحتضنت وزارة الثقافة جهود منـدور فى الكثير من نشاطها الثقافى لكن النظرة اليه كواحد من رجالات الأحزاب السياسية القديمة المنحلة ظلت عالقة به حتى عام ١٩٦٠ حين انضم الى هيئة تحرير جريدة الجمهورية ليصبح واحدا من كتابها الأدباء .. لأنه كان قد هجر الكتابة السياسية نهائيا .

النقد « فن خالص » :

وطبيعي أن التحمت بمندور فى هذه الفترة كما لم ألتحم به من قبل اذ كنت بدأت الكتابة للمسرح وكان هو أول المشجعين لى والمدافعين عنى ··· كنا نلتقى دائما وقد تعودنا فى أغلب الأمسيات أن نتعشى معا فى مطاعم الكباب المشوى · وذات ليلة وبعد أكلة دسمة صعدنا بسيارته الى ربوة الهرم وجلسنا على حافة مرتفع من نتوءاتها تطل على القاهرة وراح يبدى عجبه من القـدر الذى جعلنى أكتب للمسرح ·· وكيف فكرت فى ذلك ؟ لم يكن ينكر على موهبتى فى الكتابة وقدرتى على الترجمة واجادتى للقصة··لكن ما الذى جعلنى استبق التيار بالكتابةوحدىلعدة سنوات·· ولم استغرب الأسئلة المتلاحقة · والكنى ذكرته بتمثيلياتى الاذاعية التى كان كثيرا ما يعجب بالاستماع اليها · غير أنه لم يقتنع الا بعد أن أخبرته أن الكتابة للمسرح جاءتنى بغتة بعد اقتناعى بأن الكتابة الاذاعية مجهود ضائع فى الهواء · وشجعنى عليها ايمانى بالكلمة المكتوبة الثابتـة وما اكتشفته فى نفسى من موهبة درامية كامنة ··· وذات مرة كان يناقشنى فى حلقة من حلقات البرنامج الثانى فى الاذاعـة عن مسرحيتى (الناس اللى فوق) وحاولت أن أرد على بعض ملاحظاته ·· فأسكتنى (اسمع·· أرجوك ·· أنت أخيب واحد فى الدفاع عن أعمالك لأنك لاتدرى قيمتها ·· اتركنى أفسر لك ما أمدتك به موهبتك) ·· ولم أغضب لهذا الردع لأنى كنت أثق دائما فى سلامـة تقديره وحسن نواياه ·· فالرجل كان دائما موضوعى النظرة ويرعى الانتاج الأدبى الذى يتصدى لنقده بحرص كبير وكان دائما ما يردد (أن النقد الحقيقى فن خالص ولذلك فلابد للناقد أن يكون صادقا لأن النقد خلق مكمل للانتاج الفنى ··)

وفـــاء منـدور

كان من المحال ان أحاول الوقوف فى وجه هذا العنف فلم أسعى للبحث عن عمل وقبعت فى البيت ·· كانت الفترة عصيبة وهناك صراع حاد بين قيادات الثورة ·· وكنت أنا وغيرى من ضحاياه ·· وانفض عنى الكثير من الصحب الأصدقاء بل ومن أقرب الأقارب خوفا من ان ينـالهم الاضطهاد ·· ما عدا رجلين اثنين الصديق الصـادق الكبير ·· نجيب محفوظ ·· ومحمد مندور ·· اتصل بى نجيب محفوظ تليفونيا بالمنزل من مكتبه فى الوزارة وكنت أزامله فى الوظيفة وراح ·· يشجعنى على

التماسك ويطلب الى برقته المعهودة ان اسمح له بزيارتى ليرى كيف يمكن مساعدتى وطمأننى على انها زوبعة فى فنجان وانها صادرة عن وشاية حقيرة ضدى · وبعد يوم واحد فتحت الباب لسائق سيارة مندور وكنا نطلق عليه لقب « السنى » وأعطانى خطاب مرسل من الدكتور مندور وطلب الى أن أفتحه فاذا بداخله شيك موقع من مندور·وقال السنى أن الدكتور يرجونى ان أقبله وأسحب به المبلغ الذى احتاجه من حسابه ·· فلما سألته عن الدكتور قال انه ينتظر فى الشارع تحت داخل السيارة ·· وهرولت مسرعا ووراثى السنى لأجد الدكتور مندور يعتذر عن استحالة الصعود الى مسكنى لأنى أقطن الدور الخامس ·· لكنه خرج من السيارة وأقبل على يقبلنى فى حب ولهفة وعيونه تغمرها الدموع وعبثا حاولت ان أفهمه اننى والحمد لله لا أحتاج لمال ·· ورحت أشكره وأنا أرجوه أن يأخذ الشيك ·· وبعد مشادة طويلة أخذه ، ومزقه وهو يرجونى أن أواجه المحنة فى صلابة لأنى أكبر كثيرا منهم جميعا ·

الرعاية الأدبية

أما أنا شخصيا فلم آخذ المسألة على هذه الصورة المأسوية التى طافت بخيال نجيب محفوظ وسيطرت على وهم مندور ·· فلم أكن وحدى الذى تعرضت أيامها لهذا الموقف · وانما الذى أثار سخط مندور وشغل فكر نجيب الخوف من ان أصاب بصدمة وان امتنع عن الكتابة للمسرح ·· اذ كان مندور يعتبر نفسه دائما حارسا للمسار الأدبى·بعد شهور التقيت بمسئول كبير اعتذر لى عما وقع وطلب الى ان أقبل العمل فى جريدة الجمهورية بمرتب يفوق مرتبى فى الوزارة أكثر من ضعفه ·· ولكن بشرط الا أوقع بامضائى على ما أكتب الا بعد فترة حددها بستة شهور واستمرت أكثر من عام ·· وذهبت الى مندور لاستشيره فنصحنى بالقبول ·· وانهم لا بد سيضطروا فى النهاية الى الافادة من اسمى الأدبى وشهرتى الكتابية ·

محاولة كسب مندور

الشىء الغريب بعدها مباشرة ان تطلب الى هيئة الاشراف على جريدة الجمهورية ان أحاول اقناع مندور بحكم ما عرف عن صلتى به وصداقتى

له بأن ينضم الى هيئة تحرير الجريدة ·· ولم يكن فى ذلك أدنى تناقض لأن ما حدث كان نتيجة لما أسفر عنه صراع القيادة الحاكمة على السلطة ·· وتغلب الجناح الذى يقوده عبد الناصر من أجل تحويل الثورة الى مسار جديد للأخذ بمبادىء الاشتراكية وأصبح مندور أستاذى وصديقى زميلى فى العمل وزميل وند للعديد من تلاميذه الآخرين ··· وتقبل مندور وضعه الجديد بصدر رحب بزعم انهم حددوا له مساحة صغيرة ليكتب فيها لا تتناسب مع مكانته وأستاذيته ·· وكان مندور أيامها يعانى من قلة الدخل والاعتماد على العمل بالقطعة أو بالمكافأة سواء فى معهد التمثيل أو فى الاذاعة أو فيما يكتب فى المجلات من مجلات نقد ·· وباع سيارته واندفع الى محاولة الحصول على دخل يكفل له متابعة نشاطه ورعاية أسرته ·

صريع العنت والارهاق

وقد أخذ عليه الكثيرون أيامها ان كان يقبل كافة ما يعرض عليه من أعمال ويكتب فى كل مجال ·· ولكن الحقيقة انهم كانوا لا يعرفون من دخائله ما كنت أعرفه · فالرجل وفى مثل هذا العمر المتقدم كان يعيش من قلمه ورغم ما قرر له من مرتب ثابت فى جريدة الجمهورية الا انه كان مرتبا ضئيلا لا يكفيه وهو قد خرج من الجامعة منذ سنوات بعيدة دون أدنى معاش ·· ولعل هذا كان السبب فيما أصابه من ارهاق مبكر أدى الى وفاته وهو لا يتجاوز الثامنة والخمسين ·· تاركا الى جانب ما صدر له من كتب العديد من البحوث والدراسات والمقالات التى لا يدركها الحصر وتحتاج الى من يجمع شتاتها كرصيد من أقوم وأدق وأعمق ما صدر فى حياتنا من كتابات على مدى أكثر من ربع قرن ·· لقد عاش مندور الى نهاية عمره ورغم ما أثاره حوله من عداوات من جانب أعدائه السياسيين وغير السياسيين من أثبت من حملوا القلم فى عصرنا دفاعا عن الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والفنية الجادة القائمة على الالتزام برسالة الأدب والفن والفكر كأعظم المقومات لبناء الانسان العربى ·

***

سلامة موسى

قرأت لسلامة موسى لأول مرة عام ١٩٤٠ وأنا طالب في كلية الآداب اذ وقعت صدفة على عدد من « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها ويرأس تحريرها ٠٠ ولكنى والحق يقال لم أتأثر بها لدرجة تدفعنى الى متابعة الحرص على قراءتها وذلك لعدة أسباب ٠٠ أهمها كان الأسلوب نفسه الذى يكتب به سلامة موسى ٠٠ لأنه أسلوب لم يكن يجتذبني وأنا فى مثل هذا السن ٠٠ فقد كان يكتب بطريقة مبسطة ومباشرة ولا يعنى كثيرا بما يمكن ان يجتذبنى من محسنات لفظية وانطلاقات عاطفية ٠٠ أسلوب تقريرى أميل الى المخاطبة المنطقية وليس فيــه الا القليــل من سبحات الخيال ٠٠ وقد سماه هو فيما بعد بالأسلوب « التلغرافى » ٠٠ ومع ذلك فقد بدا اهتمامى بسلامة موسى وشغفى بكتاباته حين اكتشفت بعضا من كتبه المطبوعة ٠٠ وأذكر منها كتابه « العقل الباطن » ثم مختارات سلامة موسى ٠٠ من بعدها رحت أتابع الرجل فى اهتمام وحرص ٠٠ خاصة بعد أن تزايدت قراءتى عن المذاهب الاشتراكية وأصحابها متأثرا بما كان يحيط الجو السياسى المتفتح فى سنوات بعد الحرب من تيرات فكرية ٠

وازدادت معرفتى بسلامة موسى بعد ذلك ٠٠ ولكن ليس عن طريق الكتب وانما عن طريق الندوات ٠٠ واللقاءات ٠٠ فقد تعودت ان أحضر له العديد من المحاضرات والمناظرات لتى كان يلقيها أو يشترك فيهــا

بجمعية « الشبان المسيحيين » وهى جمعية ثقافية كان لها نشاطها الثقافى والترويجى وكانت ملتقى لكثير من الشباب المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، ولعل أبرز ما كان يستلفتنى فيه ٠٠ تفاؤله الذى لا حدود له بأن كل شىء يسير الى تحسن ٠٠ وتواضعه الغريب فى التعامل مع الناس وحدبه على الشباب ٠٠ ذلك انه كان يعيش دواما بعقلية شاب متاجج الفكر ٠٠ وهذه الصفة لمستها أكثر ما لمستها عنده فى آخر القاء لى معه قبل وفاته بعام واحد فى عام ١٩٥٧ ٠

من هو ؟

ولكن من هو سلامة موسى ؟؟

سؤال لا يجب وان يستغربه أغلب المثقفين الذين تأثروا بالرجل وكفاحه وتابعوا نشاطه وجهده على مدار الفترات التى عاشها من بداية القرن حتى وفاته ٠٠ فالرجل لم يكن صاحب صيت وشهرة صارمة،ولكنه كان صاحب تأثير نفاذ بحياته وفكره وآراءه الهادئة والمتطرفة جميعا انك اذا قلت طه حسين والعقاد لما استعصى عليك ان تجد من محدثك مهما كانت ثقافته وحتى ولو كان من أجيالنا الجديدة التى لا تكاد تعرف عن من سبقنا شيئا ٠٠ مستجد منه أو لديه ولو فكرة عن مثل هذين العملاقين ٠٠ ولكنه لا بد اذا حدثته عن سلامة موسى ان يلاحقك بهذا السؤال ٠٠ من هو سلامة موسى ؟؟ فاذا انت حاولت الاجابة فلن تجد من واقع الأحداث المتتابعة التى عاشها الرجل ما يجعل منه هذه الشخصية البارزة التى تحاول ان تعرفه بها ٠٠ لأن الرجل عاش فى معظم فترات حياته مناوئا لكافة الأوضاع التى عاشها والشخصيات الزائعة التى عاشر أصحابها وكأنه كان يحارب نفسه بنفسه أضف الى ذلك انه كان اذا قال رأيا يظل متمسكا به حتى النهاية مهما كان تطرفه ويتحمل بكل اصرار وصبر مايلاقيه فى سبيله من اعنات وابعاد واستنكار٠وأنا لست مع الذين يقولون ان جانبا من معاناة سلامة موسى كان مصدره انه ينتمى الى الأقلية القبطية ٠٠ وانما الصحيح ان آراءه واتجاهاته كانت تجنح فى معظمها للتطرف الجارف والخروج على المألوف ٠٠ أما من ناحية نزعته الطائفية فأشهد من لقاءاتى به وقراءتى له وعنه ٠٠ بل ان مواقفه كلها من بدايتها لتشهد معى ان الرجل لم يكن يداخله أى تعصب دينى بل العكس هو الصحيح تماما ٠ ومجلته « المستقبل » التى أصدرها فى العشرينات الأولى من القرن تنطق بدعواه الدائمة نحو نبذ التعصب وأبعاد الدين عن الخلافات

السياسية والمذهبيات الاجتماعية ومن باب أولى عن التطلعات الوطنية والقومية ..

التطرف فى الرأى

آراء سلامة موسى التى كان يطلقها ولا يخفيها هى السبب .. وكلها كانت فى المجالات العامة تحمل دعاوى خارجة فى كثير من جوانبها عما يمكن ان نسميه السائد المتعارف عليه .. من ذلك مثلا اغراقه فى الدعوة الى « الفرعونية » ثم مناداته بكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ونظراته المتحررة فى معالجة الجنس .. وأخيرا وليس أخيرا تطرفه فى النظرة الاشتراكية ومعاداته لكل أنواع السلطة السياسية خاصة السلطة المتوارثة .. وفى هذا لم يكن سلامة موسى يعتبر نفسه سابقا لزمانه أو مناديا بما لا يتفق مع القيم والمثل والتقاليد التى يلتزم بها مجتمعه .. فقد كان يؤمن ان لا بد من مثل هذه الطفرات فاذا لم يقبلها المجتمع الى نهايتها .. فسيهتز على الأقل بوجودها والدعوة اليها .

الحلول المبتكرة

لكن قد يكفى فى هذا المجال ان نسجل لسلامة موسى العديد من الدعوات المقبولة المعقولة التى كان له شرف المبادرة فى المناداة بها .. من ذلك مثلا .. مناداته بحتمية نشر الصناعة وتحويل المجتمع من الحياة الزراعية الى مجتمع شبه صناعى .. ثم صلته الدائمة المستمرة لتحديد النسل وتحريم التدخين .. والاهتمام بالتربية المنزلية والتركيز على الرياضة وسلامة الأجسام ورعاية الطفولية الى غيره من الدعوات التى أصبحت من أهم وأبرز ما ننادى به اليوم .. والمثير حقا فى سلامة موسى انه كان يلحق آراءه بحلول ابتكارية من ذلك مثلا .. مناداته بأن اصلاح حال الفلاح المصرى لن يأتى عن طريق تحديد الملكية الزراعية وحدها .. وانما سيتحقق اذا ما استطعنا ان نبنى « مرحاضا » فى كل بيوت القرية .. ومراحيض صحية فى الحقول ذاتها لأن توفير الغذاء بدون توفير الصحة لا يجدى ولا ينفع .

الانطوائيـة

كان الرجل ينادى بمثل هذه الآراء فى ضجيج صارخ ٠٠ ولكنه لا يحدث دويا ٠٠ ومرجع ذلك الى طبيعة سلامة موسى نفسه ٠٠ فقد كان رغم صراخه الداخلى المتاجج ٠٠ وكما وصفه نفسه « انطوائى » ولا يملك موهبة الظهور ٠٠ رجل ساكن هادىء قانع ٠٠ يتحمل كل ما يصيبه بصبر وتفاؤل ولكنه من داخليته يغلى حماسا لكل ما يؤمن به ٠٠ كان متوسط الحجم أقرب الى ان يكون قصيرا ٠٠ وجه مستدير وعيونه تلمع فى بريق نفاذ يدل على الذكاء المتوقد ٠٠ بالغ الطيبة ينبض تواضعا ورقة وبساطة من بساطة طفل صغير يبتسم لكل الناس وهم يحملونه على أكتافهم ٠٠ قليل الكلف بلذائذ الحياة ومتعها لا يعنى كثيرا بمظهره ٠٠ ذات مساء وفى الشرفة المطلة على الحديقة الخارجية لنادى الشبان المسيحيين ٠٠ جلست اليه مع جمع من الشباب وكان يتحدث عن حياته الخاصة ٠٠ ورغم اننى كنت أعرفه واستمعت اليه فى أكثر من ندوة وأكثر من محاضرة ٠٠ فقد حسبته فى أول الأمر من موظفى النادى ٠٠ لأنه كان يوزع على الجالسين ورقة صغيرة ٠٠ اتضح انها ورقة ليكتب فيها كل منهم رده على ما سيوجهه اليهم من أسئلة كشباب ليعطوها له فى آخر الجلسة ٠٠ كان يقوم باجراء دراسة أو حصر ميدانى لمشاكل الشباب ٠٠ وذلكم كان سلامه موسى فى اهتماماته التربوية وحرصه على رعاية الشباب ٠

فترات الكبت

فى عام ١٩٤٦ وجدتنى فجأة أجلس على أريكة فى قاعة محكمة الاستئناف العليا فى باب الخلق وبجوارى المرحوم عصام حفنى ناصف والأستاذ زكى عبد القادر وفى مواجهتنا على الأريكة المقابلة ٠٠ كان يجلس سلامه موسى ٠٠ وكانت المناسبة حملة جائرة قام بها صدقى باشا رئيس الوزراء حين ذاك ٠٠ أغلق بمقتضاها أكثر من ثلاثين هيئة ونادى ثقافى ٠٠ وعطل كافة الجرائد والمجلات غير الحكومية وأمر بالقبض على مائتى كاتب وصحفى بتهمة محاولاتهم قلب نظام الحكم كنا فى انتظار ان تحقق النيابة معنا ٠٠ وكنا جميعا على ثقة بأننا سيفرج عنا مباشرة لأن الحملة كان المقصود بها التبرير القانونى لاغلاق الصحف والأندية وارهاب الصحفيين والكتاب ٠٠ لكن سلامه موسى كان غاضبا وساخطا ٠٠ لأن هذه لم تكن المرة الأولى التى يقبض فيها عليه بهذا الشكل ٠٠ فمن قبلها

بأربع سنوات أراد صدقى باشا أيضا ان يغلق له « المجلة الجديدة » ولم يجد فى قانون الصحافة ما يساعده على ذلك .. فقبض عليه بنفس التهمة .. محاولة قلب نظام الحكم .. وأغلق مجلته الى الأبد بعد أن ظلت تصدر أكثر من عشر سنوات .

وطلب كل منا فنجانا من القهوة واختار سلامه موسى ان يشرب كوبا من الليمون الى ان يأتى دورنا فى تحقيقات النيابة .. وانطلق الرجل يحدثنا عن بعض ذكرياته .. وهو شديد الحرص على توجيه كلامه كلية الى شخصى الضعيف .. فهو يعرف اننى أديب أترجم بعض الروايات العالمية وأنشرها فى صحف الوفد .. ولا أكتب فى السياسة لقد قرأ لى تلخيصى لرواية شتاينبك الأمريكى « عناقيد الغضب » وكذلك أعجب بتقديمى لرواية انيازيو سيلونى الايطالى « الخبز والنبيذ » فلقد كان الرجل قارئا نهما لا تفوته مادة صحفية جديدة .. ولا كتاب له قيمته .. وجه الغرابة اننى صغير السن .. فكيف يخرج بى فى مثل هذا الوضع ؟؟ وفجأة خرج من قاعة الجلسة من يعلن ان النيابة قد أمرت بالافراج عنا جميعا ويضمان شخصياتنا . بعدها قابلت سلامه موسى أكثر من مرة .. فقد كان من الكتاب المعدودين فى دار أخبار اليوم وظل يعمل بها حتى وفاته عام ١٩٥٨ .. والقارىء الذى يريد أن يتعرف على سلامة موسى .. يستطيع بكل سهولة وبلا حاجة الى لقائه .. أن يجد المادة التفصيلية الغزيرة لحياته وفكره وكفاحه فى كتبه العديدة التى خص معظمها بالحديث عن نفسه ومن أبرزها كتابة « تربية سلامه موسى » .. ولا يجب ان يدهش القارىء لأن سلامه موسى تعود ان يلصق اسمه بعناوين كتبه أو معظمها . فالواقع انه كان فى غاية التواضع ولا يفعل ذلك عن اعتداد بنفسه أو ذاتية كامنة تسيطر عليه .. وانما لأنه كان صاحب فلسفة خاصة يعيش بأسلوب معين وعلى نمط محدد يعتبره المثل الصحيح لمسلك المواطن الحر فى مواجهة العصر الذى نعيشه بقضاياه وزواياه ومشاكله ومتاعبه وهو يلخصها جميعها فى ثلاث كلمات «النظافة والفضيلة والطهر» ومن الغريب انه رغم دعواته العصرية الجارفة فقد كان يلتزم فى بيته ومع أولاده وبناته وفى تربيته لهم كل ما تتطلبه ظروف البيئة الشرقية من تقاليد وموجبات .

صناعتى الحرية

ولعلنا نستطيع بنظرة عابرة أن نضع سلامة موسى فى اطار عصره اذا أحطنا ببعض معالم حياته .. فهو ابن موظف حكومى متوسط الحال كان

يعمل فى الشرقية ويملك شبه عزبة صغيرة من الأرض الزراعية · لم يستكمل سلامه موسى دراسته العالية وانما اكتفى بتربية نفسه تربية ذاتية من القراءة الى نهاية عمره وخلال العشر سنوات الأولى من بداية القرن ·· اكتشف فى نفسه الموهبة الصحفية والقدرة على الكتابة ·· فأصدر مجلة « المستقبل » لمحاربة الطائفية ومساندة حركة مصطفى كامل والحزب الوطنى بزعامة محمد فريد ·· سافر الى باريس أكثر من مرة ·· ثم أقام فى لندن أربع سنوات تأثر خلالها بالحركة الاشتراكية الفابية وكان معجبا ببرنارد شو ·· فلما عاد بعد ذلك الى مصر ·· اشتغل لفترة بالتدريس ·· ثم تتلمذ على اثنين من المفكرين والكتاب البارزين فى تلك الفترة وهما يعقوب صروف المفكر الحر ·· وفرح انطون الصحفى والأديب والكاتب المسرحى ·· وفى تلك الأثناء نادى بدعوته نحو تجديد شباب الأدب العربى بادخال المسرح والقصة والرواية ووقف فى وجه طه حسين ثم العقاد وكان دائما يتهمهما بعدم القدرة على التجديد · وافتقارهما الى الحرية الفكرية · ويقول ان « صناعتى الحرية » وليست مجرد الكتابة ·· بعدها تدهورت أحواله المالية فالتحق بالصحافة وأصبحت هى مصدر رزقه الوحيد بعد ان باع أرضه على نهاية عام ١٩٢٠ وعاد الى مصر ليشترك فى تحرير « الهلال » الى أن قدر له أن يستقبل ·

كسب الاعداء

باصدار المجلة الجديدة ··· وجميع كتبه هى فى اغلبها مجموعات المقالات والابحاث والدراسات التى كان ينشرها فى المجلات وبحكم طبيعته الانطوائية وظروفه المالية القاهرة كان كثيرا ما ينزوى بعيدا عن مسار الأحداث ··· فاذا قدر له أن يقول رأيا فى مجال أو بأى مناسبة فلم يكن يتردد عن الجهر به حتى ولو كان رأيا خارجا على جميع الاراء ··· ولذلك كان يقول اننى موفق دائما فى كسب الاعداء ··· ذلك انه فى علاقاته على قلتها وندرتها كان لا يفصل بين الشخص وما يحمله من فكر ·· فاذا كان معاد لفكرة فانه لا يطيق الركون اليه أو كسب صداقته بل ينفر منه ويصل به الغرور الى حد الاعراض عنه وقد ساعده على ذلك انه كان يعيش فى بساطة ولا يهتم بالمظهر ولا يسعى الى الشهرة رغم تأثيره البالغ على عديد من الاجيال الشابة التى خرج منها العديد من الأفذاذ ومنهم نجيب محفوظ الذى كان من أكثر أدبائنا تأثرا به ··

كراهيـــة المظـــاهر

وفى عام ١٩٥٧ أتيح لى ن التقى بسلامة موسى فى مناسبة مباغتة وهى اقامة حفل تكريم بنادى الجزيرة فى الزمالك ٠٠ وكان الداعى الى الحفل المرحوم صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة والمناسبة الاحتفال بتجديد جريدة الجمهورية ٠ ٠٠٠ وكان سلامه موسى مدعوا فى الحفل ٠٠ ويبدو انه كانت هناك مفاوضات تجرى معه ليترك أخبار اليوم ويكتب فى الجمهورية ٠ وأسرعت الى الجلوس بجانبه فقبلنى واحتضننى باعـــزاز بالغ لانى كما قال ٠٠٠ سرت فى الطريق الذى كان ينادى به دواما وهو الاتجاه بالأدب وتجديد ألوانه بالكتابة للمسرح ٠٠٠ كان الرجل يجلس فى شىء من الريبة غير مرتاح الوجوده فى نادى يضم صفوة الارستقراطيين الادعياء ٠ واستغربت ان يصدر عنه هذا الاحساس وهو فى مثل هـذا السن ٠٠٠٠ لانه لا يمكن الا ان يكون احساس شاب متمرد فى الثلاثين من عمره على أكثر تقدير ٠٠٠ وأخبرنى انه كان يفضل لو أن مثل هذه الحفل اقيم فى مطعم « كباب وكفته » بدلا من هـذه الفخامة التى يقدم الينا فيها الطعـام بغير موجب ٠٠٠ وهمس فى اذنى ٠٠ « أنا عـاوز أعرف هما عازمينى ليه » ٠٠ فلم استطع ان اجيبه ٠٠ ولكننى بعد فترة اكتشفت انه يستنكر ان يعمل مع « رجال الجيش » ٠

شـــاب فى السبعين

وبعد الطعام مباشرة ٠٠٠ أخذنى من يدى وانزوى بى بعيدا كان يحس بغربه وهو غير مرتاح ٠٠ ورفض ان يشرب القهوة وطلب فنجانا من الشاى ٠٠ وراح يحدثنى عن ميوله وأفكاره واتجاهاته وأحاسيســه بالنسبة لكل شىء ٠٠٠ الأدب والفن ٠٠٠ والصحافة ٠٠٠ والصـــناعة والزراعة ٠٠٠ والعدوان الثلاثى والتأميم لقناة السويس ٠٠٠ والصراع الدولى ٠٠٠ ولما انتهى الحفــل صمم على أن يصـــحبنى معه فى تاكسى ليوصلنى الى ميدان التحرير حيث سينزل ليستقل ســـيارة الباص الى منزله ٠٠٠ وفى أثناء الطريق اشتبك فى حديث طريف مع سائق التاكسى عن أحواله ومعيشته وأداءه وفهمه ٠٠٠ وكان يضحك ويسخر مع السائق لتعليقاته البارعة٠٠وحين نزلنا من التاكسى ربت على كتفى السائق معجبا واعطاه أكثر من حساب العداد ٠٠٠ وطال انتظارنا لوصول الباص ٠٠٠

واستمرت وقفتنا لاكثر من نصف ساعة ٠٠ كان يقطعها وهو يهز رأسه في اعجاب ٠٠٠ « يا سلام على شعبنا العظيم ٠٠ » معلقا على كلام سائق تاكسى وآرائه ونظرته ٠٠ ونظر الى فى حماس وهو يودعنى بعد وصول « الباص » اسمع يا ابنى ٠٠٠ شعبنا حى وعظيم شعبنا لن يموت ولن يقهر ابدا ٠٠٠ أنا لست ضد الثورة واحبذ منجزاتها ٠٠٠ ولكن صناعتى هى الحرية ٠٠ هى مطلبنا الوحيد ومطلبنا على الدوام ٠٠٠ من أجل هذا الشعب القوى المجيد ٠٠٠ وأحس بأنه يوشك ن يخطب فصمت ٠٠٠

وكان هذا هو سلامه موسى ٠٠٠ شيخ فى السبعين يتحدث باحاسيس شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعدها بعام واحد ٠٠ مات الرجل ولم يمشى فى جنازته غير تسعة اشخاص ٠

***

جورج أبيض

مواجهـــــة

ساقتنى قدماى ذات صباح الى زيارة المخرج الراحل فتوح نشاطى فى المسرح القومى بحديقة الازبكية ٠٠٠ كان قد احتل لنفسه غرفة فى الدور الثانى بالمبنى العتيد بعيدا عن صالة العرض والكواليس وخصصها لكى تكون مكتبا له ٠٠٠ نحن على نهاية عام ١٩٥٨ وفتوح نشاطي يشغل هذه الغرفة من سنوات بعيدة فى ارتباط دائم متصل حتى احالهـا الى ما يشبه المكتب الوظيفى فى احـدى الوزارات أو المصـالح والدواوين الحكومية ٠٠ كنت على موعد معه لقراءة نص مسرحية اكتبها ليخرجها ٠٠٠ هى مسرحيتى « صنف الحريم » ولم يكن لى سابق علم بوجود مثـل هذه الغرفة السرية فلما سألته عنهـا أخبرنى انه يحتفظ لنفسه بهـا ليحتمى فيها من التقلبات التى تطرأ على الحياة المسرحية وليشعر دائمـا انه مرتبط بعمل يومى فى المسرح ٠٠ لكنى مأكدت أجلس لاحتسى معه القهوة كالعادة المتبعة فى مكاتب العمل حتى فوجئت بالفراش يخطرنا بوصول الأستاذ جورج أبيض ٠ والحق انها كانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لى لم استطع ان اخفى معها ما اثارته الواقعة فى نفسى من اثارة واهتزاز ٠٠ جورج أبيض ٠٠ بشحمه ولحمه وشخصه ؟ بعدها مباشرة دخل علينـا العملاق وهو يبتسم محييا ٠٠ كانوا ايامها قد عينوه للاشراف على احدى شعب المسرح القومى ٠٠٠ ولكنه لم يكن يتردد على المسرح بانتظام ٠٠ الشيء المذهل انه حين رانى لم يكتفى بتحيتى سلاما باليد ٠٠٠ وانمـا

فرد زراعيه كما لو كان فى احدى مشاهد تراجيدياته الرائعة وأخذنى بالحضن ٠٠ ثم اردف ٠٠

ـ أنا جى مخصوص يا ابنى علشان اقابلك ٠٠٠ قالولى تحت انك عند فتوح قلت لازم اشوفه ٠٠٠

الى هذا الحد كانت حفاوة الرجل بوجودى ٠٠٠ ومن يكون هذا الرجل ٠٠٠ جورج أبيض ٠٠٠ اضخم واثبت شخصية عرفها تاريخ مسرحنا الجاد منذ بداية القرن ٠٠٠

لويس الحادى عشر

زايلنى القلق بعد لحظات حين طلب الينا الجلوس ٠٠ ورفض ان يتناول القهوة ٠٠٠ وراح يعاتب فتوح نشاطى لانه كان قد طلب منه ان يرانى ٠٠٠ يرانى أنا ٠٠ ومن أكون بالنسبة له ٠٠٠ لم يكن احساس بالضالة أو الصغر ٠٠٠ ولكنه كان من جانبى اعتزازا مذهلا ان يحاول جورج أبيض بجلالة قدره مقابلتى والتعرف بى غير معقول ٠٠٠ وابتسم فتوح نشاطى وهو يعتذر له ٠٠٠ لانه كان ينوى القيام بذلك بعد ان يتكرر لقائه ٠٠٠ ووضع جورج أبيض كفيه وهى مشبوكة الاصابع على أسفل بطنه ثم تنحنح فاستلفتنى فى صوته شبه بحه مثيرة ٠٠٠ فلما أخذ الحديث مداه بيننا بدأت أذنى تتنبه الى صوته ورخامته وعذوبة انطلاقه ودقة مقاطعة ٠٠٠ لم أكن شاهدت جورج أبيض الا فى الصغر حين كان يطوف بغرفته فى الأقاليم وصحبت عمى لمشاهدته فى المنصورة وهو يعرض تحفه الرائعة التى اشتهر بها على الدوام ٠٠٠ « لويس الحادى عشر » ثم بعد ذلك اختفى الرجل من افق حياتى لسنوات طويلة ٠٠ ولم تكن تذكرنى به الا بعض قراءتى عنه وعن نشاط مسرحه فى عديد من الرسائل والمقالات التى تنشر ٠٠٠ وأحيانا فى بعض ما يروى من ذكريات ٠٠٠

اكتشاف سيد درويش

كانت أبرز الصور التى تشغل واعيتى به ٠٠٠ حكاية مستفيضة حدثنى عنها المطرب الفنان حامد مرسى ٠٠٠ أشهر من عرفهم تاريخ الاوبريت الغنائى فى مسرحنا الحديث ٠٠٠ وبطل فرقة الكسار وأكثر

من يعى التراث الغنائى القديم ... كان فى ذات ليلة يروى لى ذكرياته عن سيد درويش اذ كنت أعد عنه برنامجا للتليفزيون أواخر عام ١٩٦٣ ... واستعنت بحامد مرسى فى محاولة تتبع بعض دقائق حياة سيد درويش ومناسبات ألحانه ... وروى لى واقعة مجسمه عن جورج أبيض زادتنى معرفة به وبقيمته وجهوده حدث ذلك على وجه التحديد عام ١٩١٨ وكان حامد مرسى لا يزال صبيا يجيد الغناء وتستعين به الفرق على تقديم فقرات طرب بين فصول مسرحياته كسبا للجمهور . مثلما كان يحدث مع عبد الوهاب فى مبدأ ظهوره ... وكانت فرقة جورج أبيض المسرحية ايامها تعانى من الركود نتيجة لانتشار وسيطرة جوقات ومسارح الهزليات وعلى رأسها فرقة الريحانى فارتحل جورج بفرقته الى الاسكندرية واصطحب معه الشاب أو بالاحرى الصبى المطرب حامد مرسى ليغنى بين الفصول كما جرت العادة ...

زورونى كل سنة مرة

ذات ليلة كما روى الفنان حامد مرسى ... كان يغنى احدى ادوار عبده الحامولى بين فقرات الفصل الثانى والثالث لمسرحية عطيل التى يمثلها جورج أبيض ... ففوجىء بمقاطعة حادة من مجموعة بين المتفرجين راحت تصفق فى صخب ... فلما انتهت الفقرة فى سلام أسرع اليه احدهم يطالبه باصطحابه لمقابلة الشيخ سيد .... يقول الفنان حامد مرسى ... لم أكن أعرف من هو الشيخ سيد هذا ولكنى لم اتردد فى تلبية رغبتهم وذهبت مع الرسول الموفد الذى اصطحبنى اليه وكان واقفا على باب مسرح الهمبرا بمحطة الرمل محاطا بمجموعة من الاسكندرانية... كان ضخم الجسم مشعث الشعر أقرب الى السمره والبدانة وأشبه ما يكون بالفتوات وبادرنى فى الحال ..

ـ اسمع .. ازاى عرفت تغنى لحن الأسطى بالشكل ده . ؟

وكان يقصد بالاسطى عبده الحامولى ... رأس المطربين وسيد الملحنين على أواخر القرن التاسع عشر ... ويتم حامد مرسى روايته ... امسك سيد درويش بيدى وطلب عربة حنطور واجلسنى بجواره واتجهنا جميعا الى مقهى على ترعة المحمودية جنوب الاسكندرية واحضروا للشيخ سيد العود بعد ان اجلسنى أمامه . وطلب الى ان اتابعه ليحفظنى اللحن الجديد الذى لا يمكن ان يغنيه صوت غير صوتى ... وكان هذا اللحن هو الاغنية الشهيرة لسيد درويش والتى تغنيها فيروز أغنية « زورونى

كل سنة مرة » .. ولم يتركنى الا بعد ان كنت قد حفظت اللحن وغنيته له عدة ساعات ..

وفى الليلة التالية حضر الشيخ سيد الى المسرح وطلب الى ان اغنى اللحن بين الفصول ... واخبرنى انه سيجلس فى الصالة ليستمع ويرقب وقعه من وراء الكواليس ... فلما انتهى التمثيل سألنى عن صاحب اللحن فقدمت له الشيخ سيد درويش ولم يكن جورج أبيض يعود الى القاهرة حتى أرسل فى طلب سيد درويش من الاسكندرية وكان لديه نص مسرحية غنائية يعدها للموسم المقبل وهى مسرحية « شهرزاد » فعهد الى سيد درويش بوضع ألحانها لتكون الخطوة الأولى والباكورة الناضجة لما أبدعه سيد درويش من ألحان وأوبريتات غنائية بعد ذلك .. وكانت هى الأصل فى نهضة المسرح الغنائى ...

مصر القديمة ... ومصر الجديدة

أعود بكم بعد ذلك الى غرفة مكتب فتوح نشاطى فى المسرح القومى العام ١٩٥٨ وأنا جالس معه فى حضرة العملاق جورج أبيض ... كان طبيعيا ان أسأله وأنا فى غـاية الاعتداد والسرور عن سبب رغبته فى لقائى ... فاذا به يروى لنا نفس ما رويته لكم من قبل عن لسان الفنان حامد مرسى كان بوده ان يكتشفنى كما اكتشف سيد درويش ... فلما اعترضت عليه فى ذلك واننى أو غيرى لا يمكن ان نقارن بسيد درويش ... فمن أكون حتى يساوينى به واين أنا وغيرى من هذا العملاق الخالد ... أجاب وهو يهز رأسه فى هدوء وتمعن ...

– يا ابنى انت عملت نفس ما عمله سـيد درويش ... أنـا شفت لك وقريت لك كمان .. الناس اللى تحت والناس اللى فوق ... انت عملت حاجة غريبة كنا محتاجين لها من زمان .. المؤلف اللى يكتب مسرحية خالصة وتتمثل على المسرح طوالى من غير اعـداد أو تغيير أو تبديل ... لا من مخرج ولا من ممثل دى مش شويه ... فرح انطون هو الوحيد اللى حاول يعملها فى مصر القديمة ومصر الجديدة .. لكنه للأسف ما اقدرشى ...

ولاحقته فى زهو .. ما أنا كنت مسمى الناس اللى تحت فى الأول مصر الجديدة بدون ان ادرى شيئا عن فرح انطون ومسرحيته ..

وضرب جورج آبيض كفا على كف وهو يردد ...

ـ عارف ... أنا نفسى قلت عليك انك ولا فرح أنطون .. واسأل فتوح .. وهز الأستاذ فتوح رأسه ...

ـ حقيقة ... جورج بك قالها لى أكثر من مرة ...

الصحافــــة والمســـرح

وطالت الجلسة بيننا لاكثر من ساعتين ... أخذت نفسى خلالها بكثير من الصمت وأنا فى ذهول مما أثبغه على هذا المارد العملاق .. وراح جورج أبيض العظيم يحدثنـــا عن حياته فى المسرح والمشــاكل والمصاعب التى واجهها ونظرته الى المسرح الجديد ورأية فيه وما ينتظره من تقدم وحين رانى اطالب الأستاذ فتوح نشاطى ببعض الأوراق واخرج قلما من جيبى قال ...

ـ عاوز تعمل ايه ؟

فأخبرته باننى سأحاول تسجيل ما يقوله لانه تاريخ غير انه نهائى لأن ما سيقوله شيء معروف لا يحتاج الى كتابة ... ورغم ذلك فقد سجلت من حديثه هذه الصفحات التى لم تكتمل الا بعد أن وعدنى بلقاء آخر يجيب فيه على ما ساقوم بوضعه من اسئلة .. وعلق ضاحكا ـ أنا عارف انك بتشتغل صحفى ... لكن أنا باكلمك كمسرحى ... سيبك من الصحافة ومن الكلام اللى بيكتبوه فيها ...

واضاف فتوح نشاطى ... خلونا فى المسرح ...

وكانت جلسة ممتعة اطلقت لســان جــورج أبيض بالكثير الذى سجلته وشاركنى فتوح نشـــاطى رحمه الله فى ايضـــاح الكثير من جوانبه ...

بمــاذا حدثنى جــورج أبيض

بعد ان اخرج جورج أبيض منديله ليجفف به العرق وتململ من ضيق المكان قال مع ذلك انه انسب مكان لنكون فى شنبه عزلة .. ثم شرد بباصريه الى سقف الغرفة فاذا بها تقع على بعض زخارفها الغربية

... وتأثر وهو يتأمل الزخارف مترحماً على طلعت حرب زعيم اقتصادنا الوطنى الرجل الذى أنشأ مسرح الأزبكية عام ١٩١٩ وراح يقول ...

كان زمان أهون تضحية هيه التضحية بالفلوس ... وكان اللى يحب فن من الفنون مستعد انه يقدم فى سبيله أى شئ حتى عمره خد مثلا المسرح اللى احنا قاعدين فيه النهارده .. يقصد مسرح الازبكية اتبنى نتيجة هواية ... حب كبير لفن التمثيل ... والا ايه اللى يخلى واحد زى طلعت حرب كان يبنى مسرح الازبكية ... تعرفوا بأى هدف .. مش تعصب أولاد عكاشة ... زكى وعبد الله ... هما قالوا عليه كده اياميها ولا حبا فى المسرح ...

ابدأ ... مسرح الازبكية اتبنى لخدمة اللغة العربية ... تصوروا ... دا كان الهدف الأساسى لطلعت حرب ... تقدم عليه المسرحيات اللى باللغة العربية بس ..

مسرح أوائل القرن

وهناك حلت لى المقاطعة ... « نفس اتجاهك الدائم يا جورج بك » ... فاستطرد ... هو دا كان الأصل ... من حسن الحظ أنا رجعت من بعثة فرنسا سنة ١٩٠٤ والحركة الوطنية بتاعت مصطفى كامل عماله تحمى وتشتد .. وكان مصطفى كامل نفسه بيكتب مسرحيات ويمثلها ... تصوروا .. كان المسرح له قيمة كبيره وكل المتعلمين ملفوفين حوالين المسرح ... كان شئ أساسى فى حياة الناس .. وأخد اهتمام كل المتعلمين ... وما حدش كان له فضل عن غيره ... يعنى أنا مثلا كنت باغطى ناحية فى اتجاه واحد مع خليل مطران وعبد الرحمن رشدى .. وعزيز عيد كان له ناحية ... وسلامة حجازى واخد ركن كبير .... الكلام ده قبل الحرب العظمى ... الحرب الاولانية ... وكانت الناس واخداها جد ... ويوم بعد يوم الدنيا بتتفتح قدامهم والاهتمام بالمسرح فى ازدياد ... والمسرح ده ياما كان اله فى الأيام دى ضحايا ... عارفين ... فى سنة من السنين .. سنة ١٩٠٩ أنا فاكر تمام ... كانت المسرحيات بالميات ... وكلها ماشيه مع بعض ... مسرحيات تراجيدية ومسرحيات كوميدية ومسرحيات غنائية . وفرق تفتح وفرق تقفل وناس تفلس وناس تيجى غيرها ... ونظر الى فتوح نشاطى .. لازم تكون فاكر الأيام دى يا فتوح ... انت برضه ما كنتش

صغير فأجابه ··· اياميها أنا كنت لسه تلميذ فى ابتدائى لكن احنـــا عاوزينك تكلمنا عن مسرحك انت يا جورج بك ····· ونظرا لى نظرة ذات معنى ···

المسرح لا يفقـد جديته أبدا

وطلب جورج أبيض فنجانا من القهوة وكوبا مثلجا من الماء وعاد يجفف عرقه ··· ثم استتلى فى حديثه ·· أنا مش جاى علشان اتكلم على مسرحى دى فترة راحت وانتهت ··· وسارعت اقاطعه ··· يا جورج بك ·· سعادتك تاريخ وانت الأصل والأساس ولولا وجودك وثبـاتك لفقد المسرح جديته فلاحقنى ··· أبدا ··· المسرح لا يمكن ان يفقـد جديته ··· خد عندك الريحانى ·· ابتدا هلس فى هلس ··· وانتهى وكله جـد ··· الريحانى على الآخر كان أقرب بالكوميديا بتاعته من التراجيدين ··· ودى هيه بداية الخيط اللى انقطع بموت الريحانى ··· وانتى بقى يا ابنى اللى مسكته بايدك ··· واجتاحتنى رعشة ووجدتنى اهب واقفا وأنا هلع وغير مصدق لما يقول ··· أنا ··· أنا يا جورج بك ··· وابتسم الرجـــل فى هدوء لحركتى المباغتـــه واردف فتوح نشاطى ··· ما هو علشـــان كـــده ··· جورج بك اهتم انه ضرورى يقابلك ·· ؟

ليس أهم من النص

وجاء كوب الماء المثلج والقهوة ··· وكان يرتشفها بصوت مسموع وأنا جالس على مقعد أمامه ·· وكأنى نمله ازداد ضاله كلما تطلعت له وهو جالس كالفيل ··· وعاد ليجفف عرقه قائلا « المهم يا ابنى تكون عندك مشـــابره وتكون عندك حاجات كتير ·· أكثر من كده علشـــان تقولها ·· وده كله متوقف على الاستمرار ··· أصل دور المؤلف غـــير الممثل ··· وعصرنا احنا اللى فات كان عصر التمثيل ··· ما حـــدش عارف أيامكم اللى جايه حتبقى ايه ··· انما من هنا ورايح مش حيكون فى المسرح · وقال فتوح نشاطى مقاطعا ·· ايه ؟ ما تخافش يا جورج بك ·· دا احنا بقى عندنا مؤلفين جداد كتير ··· وأنا معاك ان المسرح أساسه الكلمة ·· وعلشان كده انشاء الله حا أخرج رواية جديدة للأستاذ

نعمان ٠٠٠ كتبها خلاص وبنقزى نصها ٠٠٠ وأطلعه على ما كنا قد طبعناه من نص المسرحية ٠٠٠ وهنا أوصاه جورج أبيض « خليك معاه يا فتوح أنا متفائل ان المسرح عندنا بدأ يشد حيله وعلى صورة جديدة خالص ٠٠٠ ما كانش عندنا النوعيات دى زمان ٠٠٠

صاحب اضخم التجارب

كان قد صمت ٠٠٠ فسارعت لأرده الى سابق حديثنا « سيادتك يا جورج بك ما كلمتناش عن مسرحك ؟ ٠٠ وشهق فى ملال ٠٠ » كلها حاجات قديمة المهم فى الجديد ٠٠٠ ومع ذلك ٠٠٠ انا أصلى ذاكرتى على قدى ٠٠٠ يعنى ٠٠٠ « وقاطعة وقد ادركت انه يهم بالوقوف ٠٠ » طب ممكن يا جورج بك تدينى وعد اقابلك تانى ٠٠٠ وحا احضر شوية أسئلة ٠» فضحك ساخرا « الصحافة دى غريزة ٠ ؟ وحاولت ان أوضح له اننى لا أقصد ان أخذ منه حديثا لانشره ولكننى انشد الاستفادة منه كصاحب أكبر تجربه فى مسرحنا المعاصر ووعدنى الرجل بان يلاقينى بعد يومين هنا فى المسرح القومى ٠٠ اذ انه يحضر يوما ويغيب يوما وامسك بيدى وأنا اسلم عليه وراح يربت على كتفى » شد حيلك واتوصى بفتوح بكلمتين حلوين ذى اللى كتبتهم قبل كده وتركنا وانصرف بعد ان ودعناه حتى الباب الخارجى لحديقة الازبكية ٠٠٠

الوثائق المسجلة

استفسر فى فتوح نشاطى بعدها ونحن نعود الى الغرفة عن الأسئلة التى كنت انوى توجيهها اليه فاخبرته بحقيقة ما كان يراودنى وشرحت له فكرتى الطموحة ٠٠٠ لم تكن مجرد خاطر عابر انبتته مناسبة هذا اللقاء المباغت مع جورج أبيض ٠٠٠ وانما كانت فكرة خامرتنى من سنوات ٠٠٠ أثر جلسات ولقاءات متعددة مع أكثر من عملاق فنى عتيد ٠٠٠ حسين رياض وفؤاد شفيق وفاطمة رشدى وبديع خيرى وغيرهم ٠٠٠ لماذا لا نحاول ان نسعى للحصول منهم على تسجيلات بذكرياتهم وتاريخهم ونضالهم من أجل المسرح وتكون هذه التسجيلات بمثابة وثائق بأصواتهم انفسهم نؤرخ بها لحياتنا المسرحية فى كل مراحلها ٠٠ من المؤسف ان أحدا لم يفعل ذلك أو ربما حاوله بعضهم ٠٠٠

لكن الفكرة ذاتها تشغلني من قبلها بسنين وكنت أعجز عن أن أقوم بتنفيذها وحدى ... وكذلك لم أستطع تنفيذها بعد لقائى الثانى مع جورج أبيض ... ربما لانني عدو لدود للاليات التسجيلية من أى نوع كان ....

النهضـــات والانتكاســات

انصرم أسبوع لم يحضر جورج أبيض خــلاله الى الازبكية ... ولكننى فى ذات صباح وأنا أصعد درجات السلم الى حجرة الاســتاذ فتوح نشاطى ... اذا بى وجها لوجه أمام جورج أبيض ... استوقفنى ممسكا بذراعى وهو يعتذر لانه لم يحقق لى رغبتى فى لقائه .. « أصل أنا يا ابنى باتحرك بصعوبة .. انت لسه برضك مصمم على اسئلتك اياها ؟ .. فأخبرته باننى طوع أمره .. وأخذنى من يدى لنجلس فى الشرفة الخارجية لمسرح الازبكية ... وبعـــد ان جلســـنا بدأ هـــو الحديث ...

ــ بدى افهم ... انت عاوز تسألنى عن ايه ؟ ..

ومن واقع معرفتى بتاريخه وكفاحه ... جاءتنى فكرة ترسبت طويلا فى تأملى لطبيعة الحياة المسرحية عندنا .. فأسرعت بطرحها عليه .

ــ ما السبب فى ان المسرح عندنا لا يتطور باضطراد ... بمعنى انه يتعرض فى بعض المراحل لنكسات ساحقه ... وفى مراحل أخرى ينتفض ازدهارا ؟ ما سر هذا التاريخ الذى تجنى فيه مراحل الهبــوط على فترات الازدهار ؟ كان الرجل ينصت الى محاولتى لتفســير فكرتى مستشفا ما وراءها .. وكان يهز رأسه بين لحظة وآخر ليشجعنى على متابعة الحديث ... وفى النهاية وبعد ان شرد بذهنه لحظات قـــال فى هدوء ...

ــ الحقيقة كلامك لا يمكن ان يفسره الا ناقد أو مؤرخ ..

فالحفت ملاحقـــا ...

ــ تجربتك يا جورج بك اهم مما يمكن ان يكتبــه أى ناقـــد أو مؤرخ ... فانت أصلب واثبت من تمسكوا بالمسرح الجاد ... ولا اعنى بذلك التراجيديا وحدها ... أو استعمال اللغة العربية الفصحى ...

ونظر الى الرجل وكأنه غير مصدق ...

ـ فى الديكية الاولانى ... وكان يقصد العشر سنوات الأولى من القرن العشرين ... انتعش المسرح الجاد نتيجة الجدية التى صاحبت الحركة الوطنية لمصطفى كامل ومحمد فريد ... وفى العشرينات انتكس المسرح الجاد وسادت الكوميديا والغناء خاصة في سنوات الحرب العالمية الأولى ... واضطررت لأن انضم بفرقتى لسلامة حجازى .. ثم مقاومة الريحانى بمساندة محمد تيمور رحمه الله ... ولكن قيام ثورة ١٩١٩ اعاد للمسرح الجاد ازدهاره » .

نوعية الجمهور وحقيقة المسرح

وبعد ان صمت لحظات ... عاد الى الكلام وهو يتطلع الى السماء .. كان يستلهم ذكرياته ... وفجأة انطلق يقول ..

ـ الحقيقة ان الحياة العامة نفسها أو ما تسميه انت (يقصدنى) الاوضاع السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية تأثر كثيرا على نشـــاط المسرح .. ولكن هنـــاك عـــامل رئيسى وهام .. هو نوعية الجمهور المسرحى .. فالمسرح خاضع للجمهور مثلما هو خاضع لهذه الاوضـــاع التى ذكرتها ... وهذا يزيد من صعوبة الدور الذى يجب ان يقـــوم به رجالات المسرح ... فعليهم مراعاة الجمهور ... وفى الوقت نفســه يجب الا يخضعوا له ... وأنا شخصيا حاولت كثيرا ان افعل ذلك ولكن طبيعتى وطاقتى الفنية وزمانى كانت تفرض على الا اتراجع عن ان يكون لمسرحى رسالة ولا انساق وراء نزوات الجمهور ... وبسبب ذلك تقطعت صلتى بالمسرح خلال سنوات عديدة ...

وطالبته ببعض الايضاح فتابع حديثه « كل وقت له ناسه .. لكن بالنسبة للمسرح بالذات ... ذى ما درسناه ومارسناه ... وذى ما يجب انه يكون ... أكبر كتير من انه دار للتسلية من حيث انه بيجمع كل الفنون وبيجمع كل الاذواق ... المسرح فن كبير ولا بد ان يكون لـــه رساله » ...

وهنا تنبه جورج أبيض الى اننى كنت اكتب كل ما يقول فسألنى
ـ احنا مش اتفقنا انك مش حتكتب حاجة ؟

فأكدت له ان ما اكتبه ساحتفظ به لنفسى ولن انشره فى الجرائد وجاء أحد السعاه من داخل مبنى المسرح ليطلب جورج بك لمكالمه تليفونية فاستاذن مهرولا ... « دا لازم الدكتور » ...

ومن بعدها لم أرى جورج أبيض ... ولكنى لم يفتنى حين وفـاته ان اؤبنه بكلمة قلت فيها ... « ان وفاة جورج أبيض تعنى انهيار أكبر صرح فى بناء مسرحنا المعاصر » ....



نجيب الريحانى

شارع الأضـواء والمسـارح

كان لا بد لكي احصل على شهادة البكالوريا وهي ما يعـادل الثانوية العامة عندنا هذه الأيام ان التحق باحـدى المدارس بالقاهرة ٠٠ وبالفعل تنقلت بين أكثر من مدرسة حكومية حتي رسى بى المطاف أخيرا فى مدرسة تابعه للاوقاف الملكيه ٠٠٠ هى مدرسـة فاروق الأولى فى روض الفرج ٠٠ ولكن كنت أقطن فى حى السيدة زينب مع بعض أقاربى ٠٠٠ والمسافة بين روض الفرج والسيدة زينب ٠٠ أى جنوب القاهرة وأقصى شمالهـا ٠٠ يقطعها ترام واحد تتكلف مصروفا غير عادى ٠٠٠ لهذا كنت احصل يوميا على ما يعادل عشرة قروش ٠ مبلغ لا يستهان به بالقياس الى قيمة القرش مثل هذه الايام ٠ كنت فى الرابعة الثانوية اهوى السينما ولا انقطع عن مشاهدتها ٠٠٠وعلى مدار النصـف الاول من العام الدراسى كنت قد اتيت على جميع سينمات وسط المدينة بما يكفله لى مصروفى اليومى الكبير من قدرة على ادخار اكثر من خمس قروش يوميا ٠٠٠٠ لكنني سرعان ما زهدت فى مشـاهدت السينما خاصة حين قادتنى قدماى لاكثر من اسـبوع الى مسـارح وملاهى شارع عماد الدين وكانت لها فى واعيتى ذكريات حافلة من زياراتى المتقطعة فى صحبة والدى وعمى للعاصمة والنزول فى فندق يتوسط شارع الأضواء والمسارح ثم عن الذكريات التى كان يرويها لى أبى عن شبابه الذى قضاه فى عماد الدين بصحبة الفنان الكبير على الكسار الذى كان صديقا لاصقا به

٠٠٠٠ كانت أسعار السينما رخيصة وزهيدة ٠٠٠ ولم أنقطع عن السينما كلية ٠٠٠ ولكننى بدأت اهوى دخول المسرح وفى كل خميس تقريبا يتوافر لى اكثر من خمسين قرشا لأسارع بها الى عماد الدين ٠٠٠٠٠٠

بعد كشكش بيه

كان ذلك في عام ١٩٣٦ وقد عاد الريحانى ليسترد مكانته فاصبح مسرحة هو المسرح الوحيد تقريبا الذى لا تنقطع له عروض ٠٠٠ بينما كانت الفرقة القومية التى أنشأتها الحكومة حينذاك تتابع تقديم مسرحيات لها صفة الجدية ولكنها تخلو من التجديد وتقديم العروض التى يمكن مشاهدتها أكثر من مرة ٠ وتوزع اهتمامى بين مشاهدة « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ومجنون ليلى لشوقى فكنت اعيش مع زكى طليمات واحمد علام وأمينة رزق أسبوعا ثم أسارع فى الأسبوع الآخر لمشاهدة الريحانى ٠٠ صحيح اننى كنت أنبهر بما تقدمه الفرقة القومية من أعمال الحكيم وشوقى وعزيز أباظة ومحمود تيمور ولكنى أمام اغراء الريحانى وما تطور اليه مسرحه من كوميديا اجتماعية لم أكن أتوانى عن ترجيح كفته أسبوعيا ٠٠ خصوصا وقد جئت الى القاهرة وأنا مزود بذخيرة مشجعة عن ناظر مدرسة بلدنا الذى كان يهوى الريحانى وحكى لنا الكثير عن رواياته ٠٠٠ وكانت تلك هى مرحلة ما بعد كشكش بيه ٠٠ مرحلة المسرحيات الاجتماعية التى يلعب فيها الريحانى دور الانسان المقهور التى قست عليه الظروف نتيجة لوضعه الاجتماعى ٠٠ المسكين التعس الغلبان والصادق المخلص الأمين الذى يجاهد الحياة لكى يعيش شريفا فلا يستطيع ويضطر الى النفاق والمداهنة حتى يحصل على القوت ٠٠ وتلك الشخصية ترددت فى جميع مسرحيات الريحانى فى تلك الفترة وبلورها فى ثلاثين يوم فى السجن ٠٠٠ وقد بهرتنى فأبعدتنى عن شوقى وتوفيق الحكيم ٠

الحرب الثانية

هكذا عشت أتردد على مسرح الريحانى حتى قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ٠ ولم أكن أيامها قد بلغت العشرين من عمرى ولا ازال طالبا فى الثانوى ٠٠٠ ودفعنى حبى للريحانى واعجابى به ذات ليلة ان اقف على

باب خروج الممثلين ··· الباب الخلفي لمسرح الريتز لاشاهده وهـو يخرج فلما رأيته ظللت ابحلق فى وجهه وانا اتابعه شاخصا فى عينيه الى ان أخرج لى لسانه ليبعدنى عنه ·· وبالفعل خجلت من نفسى فلم أستطع الا أن أجرى من امامـه ··· ولكن هذا لم يمنعنى بعدها باسـبوع من العودة لمشـاهدة الريحانى وهو خارج بعد التمثيل ·· لكنه لم يخرج وعلمت بعدهـا انه ظل ساهرا حتى الصباح ليعيد اخراج المسرحية مع « الجوقة » لان عرضها لم يعجبه ···

لقاء جرىء

كنت قد أصبحت مجنـون الريحانى ·· فلم يمر أسبوع ثالث حتى وجدتنى اندفع الى شارع عماد الدين وكان فى الصباح بعد ان صرفونا من الدراسة بسبب الاضرابات وفيما أنا أسير ناحية مسرح الريتز ·· لمحت الريحانى بذاته جالسا على مقهى يقابل احدى العمارات المجاورة للمسرح ·· كان يمسح حذاءه ويدخن الشيشة (النرجيلة) وترددت فى محاولة الكلام معه ولكنى وقفت على الرصيف أتابع حركاته ·· كان شديد الحيوية يلاحق الجرسون ثم يحادث ماسح الأحذية ويستغرق فى الضحك على الاجابات التى يتلقاها من كلاهما ··· وشجعتنى بساطته هذه على ان اتقدم منه وقبل ان افتح فمى بكلمة دعانى الى الجلوس واخبرنى انه لاحظ مراقبتى له فاجبته ··

ـ انا تلميذ فى ثانوى ومعجب بك وبمسرحياتك ···

ـ تبقى تستحق واحد « لكوم » ·

ونادى على الجرسون وطلب اليه ان يحضر لى قطعة من الملبن « التركى ثم قال ··· :

ـ باين عليك تلميذ نجيب ··· بس مش نجيب الريحانى طبعا···
وقهقه ضاحكا والجرسون يضـع امامى الطبق الصغير وهو يجادل ماسـح الأحذية

ـ الجزمة دى حمرة ··· خد قرشين صاغ ··· السودة عندى بقرش

ودفع له المبلغ ثم التفت ناحيتى ···

ـ قلت لى حضرتك انك تلميذ··طب وايه اللى عاجبك فى مسرحياتى؟

ـ فيها حاجات حقيقه من اللى بيحصل فى حياتنا ...

ـ حاجات تضحك ... مش كده ... ماهم كمان بيقولوا عليه فيلسوف .. وأنا لا فيلسوف ولا حاجه ....

ـ انت مصلح اجتماعى ....

ـ ما احبهاش الكلمة دى .... انا مضحك اجتماعى .... لكى دا انت باين عليك متبحر قوى مع ان سنك يعنى ...

ـ انا فى رابعه ثانوى ....

ـ يعنى ما خدتش البكالوريا ....

وسألنى بغته والجرسون يحرك له الفحم المحترق فى النرجيله ...

ـ لكن قول لى ... بتجيب فلوس منين تدخل بها المسرح ... ؟

ـ من مصروفى ... أصلى بقيت أكره السينما ....

ـ لكن احنا ما عندناش ترسو ...

ـ ما انا بادخل كل شهر مرة ...

ـ اجيب لك واحد لكوم تانى ......

ـ متشكر ......

ووقفت لأهم بالإنصراف ... فلاحقنى ...

ـ اقعد رايح فين ؟ ...

ـ مروح ... أصل بيتنا بعيد فى السيدة زينب والنهارده كان اضراب لحسن يتخضوا عليه لو اتأخرت ...

ـ أمال بتسهر فى المسرح ازاى بالليل ؟ ...

ـ يوم الخميس بس ...

ـ عندنا رواية جديدة الجمعه الجاية ....

ـ عارفها ... « الدنيا لما تضحك » ..

وكان يضرب كفا بكف وانا اغادره مستاذنا ...

ـ حاجة عجيبه ... الحق اهلك لحسن يتخضوا عليك ...

وراح يترنم ينادى الجرسون باغنية شعبية معروفه ٠

ـ يا عم حمزة احنا التلامذة ٠٠ عايشين على العيش الحاف ٠٠ والنوم من غير لحاف ٠٠٠٠

وكان يهتز وهو يترنم بالأغنية غير عابيء بأحد حوله ٠٠٠ رويت هذه الواقعة بعد ذلك بسنوات طويله للأستاذ بديع خيرى وكنت اتردد عليه أسبوعيا اذ كان يرأس جمعية أصدقاء سيد درويش وكنت من أعضائها وتعقد فى منزله ٠٠٠ فابتسم قائلا ٠٠٠

ـ ما هو دا كان طبع سى نجيب بالضبط ٠٠٠ كبير مع الكبار وصغير مع الصغيرين ٠٠٠

بعد الحرب

كان ذلك عام ١٩٤٦ ٠٠٠ وكان شارع الأضواء والمسارح فى أعقاب الحرب العالمية الثانية اى بعدها بتسع سنوات يجاهد لاستعادة مكانته السابقة ولكن مسارحه وملاهيه كانت تتلاحق فى الافلاس ٠٠ فالكسار يتعثر بمسرحه وفرقته ٠٠٠ وهناك فرقة فوزى منيب وهى الأخرى على وشك الأغلاق ثم بعض صالات الرقص والكباريهات والمتبقية من امجاد ليالى الحرب ٠٠٠ ولم يكن هناك مسرحا ثابتا بينهما جميعا غير مسرح الريحانى ٠٠ فقد أعاد الرحيانى تجميع فرقته من جديد على نهاية الحرب ليبدأ المرحلة الأخيرة من نشاطه قبل أن يدركه ٠ الموت عام ١٩٤٩ ٠٠٠ ولذلك انتعش مسرحه فى تلك الفترة على صور كاسحة حتى كاد يطغى على كافة وجوه النشاط المسرحى الأخرى ومنها الفرقة القومية الحكومية ذاتها ٠٠

حدثنى بديع خيرى عن هذه الفترة ان الريحانى رغم نجاحه فى السينما بالأفلام القليلة التى مثلها وكنا نؤلف معا أيضا ماخوذه عن مسرحياتنا القديمة ٠٠٠ كان دائم الحنين الى المسرح ٠٠٠ ولهذا استجاب بمجرد انتهاء سنوات الحرب وبالتحديد عام ١٩٤٥ لرغبة اعضاء فرقتة القدامى ٠٠٠ شرفنطح والقصرى ومارى منيب وميمى شكيب واستيفان روستى وحسن فايق وغيرهم ٠٠٠ فما أن انتهت الحرب حتى عدنا جميعا الى مسرح الريتز الذى كنا قد اشتريناه من قبل ويصف بديع خيرى تلك الفترة بانها من أغنى وأنضج الفترات فى حياتهما ٠٠٠ فقد أدى انقطاعهما عن المسرح الى معاودة النظر فى كثير من الأمور ٠٠ وعلى راسها نوعية المسرحيات التى كانت تقدم ٠٠

حياة الريحاني المسرحيه

وهنا تلزمنا وقفة استعادة لحيـــاة الريحانى المسرحية ‏٠٠‏ ولد الريحانى فى القاهرة قبل بداية القرن العشرين باكثر من عشرين سنة ‏٠٠‏ ولكن جده الأول كان عراقيا ولم يتأثر الريحانى بمولده اطلاقا ‏٠٠‏ بل كان لا يذكر أبدا انه ينتمى لغير البيئة المصرية وأوساطها الشعبية بالذات ‏٠٠٠‏ ويحب دائما أن يلحق نفسه «بأولاد البلد» وقد تشرب بالروح الشعبية من البداية لانه خرج من حوارى القاهرة بحكم نشأته فى أسرة فقيرة تعثرت بها الحياة من البدايه ‏٠٠٠‏ وكان الريحاني من صغره خفيف الظل متهكم ساخرا «وابن نكتة» كما يصفه بديع خيرى ‏٠٠٠‏ وفيه ملكة قوية على تقليد الناس والسخرية من تصرفاتهم بصور لاذعة وتلقائيه مباشرة لا تعرف التحرز ولم ينل الريحانى قسطا وافيا من التعليم ولذلك ترك المدرسة من مبدأ شبابه والتحق بالعمل كاتبا فى احدى البنوك ‏٠٠٠‏ وكل ماعرف عنــه من هوايات واهتمامات فى تلك الفترة ‏٠٠‏ انه كان يتمنى ان يكون شـــاعرا وانه كان يهوى التمثيل ‏٠٠٠‏ وساعده الحظ من البداية أن يكون له زميل يشابهه فى البنك العقاري المصرى الذى اشتغل فيه ‏٠٠٠‏ وكان هذا الزميل هو المرحوم عزيز عيــد ‏٠٠٠‏ رائد الاخراج المسرحى عنــدنا ‏٠٠٠‏ فارتبط به الريحانى وشاركه جهاده الباكر على مدار العشر سنوات الأولى من القرن فى تكوين العديد من الفرق المسرحية الصغيرة الفاشلة الى أن قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ‏٠‏

الاحـــــتراف

بعدها انتظم الريحـــانى فى عداد الممثلين المحترفين وكان يعمل فى صالات الرقص الاستعراضية الغنائية التى ملأت رحاب شـــارع عماد الدين لتسلية الجنود الانجليز طوال سنوات الحرب فكان يقوم بتقديم الاسكتشات الفكاهية حتى أتيحت له الفرصة لتقديم اسكتشا فكاهيا عن شخصية ابتكرها بنفسه وعرف واشـــتهر بها شهرة عريضـــه ومفاجئه ‏٠٠٠‏ وكانت تلك الشخصية « كشكش بيه » عمدة القرية الريفى الذى جاء الى العاصمة لينعم بمباهجها وجيوبة متخمة بالنقود من بيع محصول القطن وكانت اسعار القطن ايامها فى ارتفاع بسبب الحرب ‏٠٠٠‏ ونتيجة لهذا النجاح سرعـان ما نجد الريحـــانى قد ترك ملاهى الرقص وأسس لنفسه مسرحا باسمه هو مسرح

الريحانى ٠٠٠ وبدأ ينافس الفرق المسرحية الاخرى القائمة حينذاك وكان يمثلها فى الجانب الغنائى فرقة الشيخ سلامة حجازى وفى الجانب التراجيدى فرقة جورج أبيض وفى الجانب الجاد ما يحـاول تقديمه محمد تيمور فى مؤلفات مسرحيتـــة ٠٠٠ فما ان انتهت الحرب حتى كان الريحانى قـد برز بفرقتة ورسخ مسرحة فى عماد الدين ليقارع الفرق المتتابعه بعد ذلك وعلى رأســـها فرقة رمســـيس التى اوجدها يوسف وهبى ٠٠٠ وظل الريحانى شامخا بفرقته لا ينافســـه فى مجاله الكوميدى الناجح أحدا غيره فرقة على الكسار وكان من البراعة بحيث استطاع ان يستقطب لمسرحة محمد تيمور من المؤلفين وسيد درويش من الملحنين ٠٠٠ وهكذا قامت ثورة ١٩١٩ ومسرح الريحـــانى فى الأوج من شهرته ونجاحه ٠٠٠ وفى تلك الفترة انضم اليه بديع خـــيرى ليؤلف معه المسرحيـــات ويشاركه فى منافسة الفرق العديدة الأخرى ٠

الفكاهـــــه الصارخـــــه

وصف لى بديع خيرى رحمه الله هذه الفترة فقال انها كانت من أزهى فترات النشاط المسرحى الذى تفوق فيها الريحانى بكوميدياته الفكاهيه ٠٠ لكنها للأسف لم تدم طويلا ٠٠ لأن العديد من أصحاب الفرق المنافســـة واصحاب المجلات الفنيه ٠٠٠ اثار العديد من الشكوك حول اخلاص الريحانى للحركة الوطنية سيما حين استمر يتابع تقديم عروضه الفكاهية فى ظل أوضاع سياسية قاسية مبتعدا عن السياسة ٠٠٠ فاتهموه بأنه من صنائع الاحتلال الانجليزى وانه يعادى الحركة الوطنية ٠٠٠ ومن أجل ذلك اضطر الريحانى بدلا من اغلاق فرقته ان يرتحل بها الى جولة فى شمال افريقيا ثم فى البرازيل لأكثر من ثلاث مواسم٠كتب الأستاذ يحيى حقى عن ذلك فمال الى ترجيح الاتهام وقال ان الريحانى كان أيامها يصر بفكاهته الناجحة على اهدار الروح الجريئة التى تحول اشاعتها الفرق الأخرى٠٠٠كيوسف وهبى وفاطمة رشدى وغيرها ٠٠٠ فلما عاد الريحانى بعد سنوات لافتتاح مسرحه ٠٠ لازمه نفس نجاحه السابق لأن الفرق الأخرى كانت قد تعثرت والحركة الوطنيـــة ذاتها قد لاحقها الخفوت فى ظل التنافس الحزبى وبتأثير الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٢ ٠

الكوميـــــديا الاجتماعيـــــه

خبت جذوة المسرح الجاد بالفعل ... وتشتت الفرق حتى أقدمت الدولة عام ١٩٣٥ لأول مرة على انشاء الفرق القومية لجمع شتات المشردين من كبار الممثلين للفرق المنهـار ... وتأسست الفرقة على أنقاض الازدهار المسرحى الذى صاحب السنوات الأولى الباكرة التى تلت ثورة ١٩١٩ ... وانتعشت حـركة التأليف على يد توفيق الحكيم وشوقى وعزيز أباظة وعلى أحمد باكثير وغيرهم ... لكنهم كانوا يقدمون مسرحيات جافه ومترجمات جامدة لم تستطع أن تصمد أمام ما جاء الريحانى ليجدد به شباب مسرحه مرة أخرى ... مقتبسات ومترجمات من مسرحيات فرق البوليفار الفرنسى الكوميدية الناجحة .. يعيد صـياغتها ويركز فيها بديع خيرى على سـياق الأحداث وترابطها مع النص الأصلى المأخوذة منه بما يتفق مع الجو الاجتماعى ثم يشتركان معا فى صـياغة المشاهد المنسـقة بحيث تطابق الشـخصيات مجموعة الممثلين العاملين معهما فى الفرقة ... كل فى دوره الذى يناسب ما يجيد أداءه نمطيا .. أعنى بحركاته وملامحه الفكاهية مثل شرفنطح فى دور العسكرى ومارى منيب فى دور الحماه والقصرى فى دور المعلم البلدى وهكذا .. وكان اعادة النص يأخذ فترة طويلة أحيانا ما كانت تبلغ العام ... ينصرف خلالها بديع خيرى لاعداد واقتباس نص جديد فى حين يظل « سى نجيب يصنف ويحذف ويجدد فى الحوار والمشاهد مما تقع عليه أذنه أو عينه من تصرفات وكلمات من الأحداث اليومية الجارية حتى تكتمل الرواية فاذا أتم « سى نجيب » ما يقنعه نهائيا ... شرعنا فى البحث عن عنوان المسرحية . وكان ذلك بدورة يأتى بعد عناء وأحيانا مفاجاة بطريق الصدفة المحضه .

الريحـــانى فى الســينما

وكانت تلك هى الفترة التى قابلت فيها الريحانى وانا لا ازال طالبا ... لكنها لم تدم طويلا ... فسرعان ما قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وانتعشت صناعة السينما المصرية بينما انتهى نشاط المسرح بفعل الاظلام وتحديد ساعات السهر الليلية فانصرف الريحانى الى السينما .. واشـــترك فى تأليف وانتاج وتمثيل افلامـــة المعروفه « أحمر شـفايف » « أبو حلموس » وسى عمر وسـلامه فى خير وغيرها ... جنبا الى جنب مع النجـوم المشهورين فى تلك الفتـرة التى عـرفت بمرحلة سـينما أغنياء الحرب ..

الوثبـــه الجـــديده

ينتعش المسرح فى حياتنا دائما مع كل ما يطرأ على مجتمعنا من تغيير سياسى وقد كانت المرحلة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية من اكثر المراحل ازدحاما بالاحداث السياسية خاصة فى ـ جانبها الحزبى ٠٠٠٠ وهى تعتبر المرحلة التمهيدية التى باضت وافرخت فى أحضانها بواكير ثورة يولية ١٩٥٢ ٠٠٠ جاء الريحانى ليعيد تكوين فرقته ويشرع فى مواصلة نشاطه ٠٠٠ كان المسرح فى حالة ركود٠٠فالفرقة القومية التى أنشبأتها الدولة كانت تعانى احتضار وبقية الفرق الاخرى تتعثر ويلاحقها الافلاس ٠٠٠٠ بينما الريحانى مسرحه الذى يملكه فى عماد الدين وفرقته التى تلح على معاودة التمثيل ٠٠٠٠ والميدان أمامه خال من المنافسة ٠٠٠٠ أكثر من ذلك ٠٠٠ والريحانى بعد تجربته فى السينما خلال سنوات الحرب لم يكن قانعا رغم نجاحه فيها أن يتخلى عن عرشه فى المسرح وهو كما أوضحنا صاحب فرقة يمتد تاريخها الى ١٩٢٠ ولهذا تركزت الأضواء من جديد على مسرحه ٠٠٠ وكان عليه كما يقول بديع خيرى ان يقدم للجمهور نوعية جديدة من المسرحيات اتسمت فى هذه الفترة بما كان يسود الحياة من يقظة سياسية وانتعاش ثقافى ووعى اجتماعى غامر ٠٠٠٠

مهاجمـــة السـينما

فى عام ١٩٥٨ على ما اذكر كان المسرح القومى يقدم مسرحيتى (سيما أونطه) التى أثارت جدلا ومعارك كثيرة من جانب السينمائيين وذات ليلة فوجئت بحضور الأستاذ بديع خيرى ليشاهد المسرحية ٠٠ كان يتساند على عصاه ويمشى بصعوبة بالغة فصحبته الى احدى البناوير مرحبا ومحييا ٠٠ وبعد نهاية الفصل الأول لحق بى أحد العمال وأنا أغادر المسرح طالبا الى أن اتكرم بلقاء الأستـاذ بديع خيرى ٠٠٠ وقد سـجلت تلك الواقعه فى كتاب « المسرح حياتى » دخلت على الرجل فى البنوار فقام متعثرا على عصاه ٠٠٠ ورجانى أن آخذه من البنوار الى أحد المقاعد الأمامية ٠٠٠ لانه لا يسمع من الحوار شيئا والبنوار بعيد عن خشبة المسرح ٠٠٠٠ وبالفعل صحبتة الى مقعد احضرناه له ليجلس عليه واضـــطررت الى انتظاره حتى نهاية العرض وهو ما كنت اتحاشاه فى معظم الليالى خوفا من تحرش السينيمائيين خارج المسرح ٠٠٠ تساند الرجل على كتفى وهو يتجه الى سيارته مرددا « هذا عمل جرىء

نجحت فيه أنت كما لم انجح انا والريحانى » ودعانى الى شرب الشاى معه فى منزله يوم الأحد ٠٠٠ وكان يومه المفضل لاستقبال ضيوفه ٠٠٠

فى تلك الجلسة انصب الحديث كله حول الفتره الاخيرة من حياة الريحانى ومسرحه ٠ خرج الريحانى من العمل فى السينما خلال سنوات الحرب ورغم نجاح أفلامه ساخطا على السينمائيين نافرا من الوسط السينمائى مفضلا المسرح ٠ فلما أعاد افتتاح مسرحه بعدها ٠٠٠٠ كان أول ما اتجه اليه مهاجمة السينما فى المسرح وشجعه بعدها على هذا الاتجاه الانتشار موجة من السخط المعتاد دائما على ما تقدمه السينما كصناعة من أفلام ٠٠ ولكن المسرحية فشلت ٠

مرحلة النضج

كان ذلك بعد عام ١٩٤٥ واستمر الريحانى على مدى الاربع سنوات التى عاشها يقدم تباعا عددا من المسرحيات الجديدة التى تعتبر من أنضج أعماله وأكثر جدية وتجاوبا مع النبض الذى تفيض به حياتنا العامة سياسيا واجتماعيا وفكريا ٠٠٠ قدم مسرحية « قسمى » وتعرض فيها باسلوب ساخر لاذع لحياة الانسان العادى الذى تضمه ظروفه الاقتصادية٠٠٠نفس شخصية المسكين الغلبان عاثر الحظ التى كان يقدمها من قبل ٠٠٠ ولكن بوعى وتفتح أضاف فيه الى مصادفات الحظ التعس العوامل الاقتصادية التى تؤثر على شخصية ومعنوياته واخلاقياته وقيمة ٠ وان يكن فى خيط يكاد يتلمس فيه بعض معالم الشخصية فى جانبها الطبقى الذى لم يتصدى له من قبل ٠

المسرح السياسى وحكم قراقوش

وكانت مسرحيته الثانية فى هذا المضمار مسرحية سياسية فاقعة أخذها من موضوع مكرر معاد ٠ سبق أن قدمه مارون النقاش فى القرن التاسع عشر بل وسبق أن قدمته أكثر من جوقه على أوائل القرن ٠٠ وهو موضوع المواطن الذى تمنى مع الخليفة يوما وهو لا يعرف شخصيته أن يأخذ مكان الخليفة وسيعرف كيف يصلح البلد ٠٠ فما كان من الخليفة الا أن اجتذبه الى القصر وولاه الخلافة وراح يراقب ما سيفعل ٠٠ فاذا به

يفشل فى اصلاح الحال ٠٠ اطار الموضوع نفسه مأخوذ من ألف ليلة وليلة وحكاية أبو الحسن المغفل ولكنه موجود على نفس الصورة فى الآداب الغربية ذاتها وقد أخرج فى أكثر من فلم سينمائى وأكثر من مسرحية هزلية ٠٠ كان هـذا هو موضـوع مسرحية حكم قراقوش ٠٠ وقد أحـدث تقديم الريحانى له ضجة وقيل أن الملك فاروق شاهد العرض بنفسه ولم يوافق عليه وطلبت السراى الملكية تعديله ٠٠ أما بديع خيرى الشـريك التؤم للريحانى فى كل مؤلفاته فقد روى لى وهو يلخص نشاطها فى هذه الفترة ٠ أن المسألة اقتصرت على حضور رئيس الديوان أيامذاك وهو أحمد حسنين٠ وكان من غواة مشاهدة الريحانى ٠٠ وانه لفت نظرهما الى أن الموضوع فيه تزيد بعض الشىء ويلزم تخفيفه ٠٠ ولكنه لم يحاول منعه أو ايقاف العرض ٠٠٠ بل لقد أذيعت المسرحية أيامها فى الراديو ٠٠ وأنا شخصيا شاهدتها أكثر من مرة على المسرح وسمعتها مذاعة على الهواء ٠٠٠ ومن شدة انبهارى بهـا ٠٠ اندفعت الى محـاولة ثانية لأحظى برؤية الريحـانى ومكالمته ٠٠ وكنت قد تخرجت من الجامعة واصـبحت موظف ولم اعد تلميذا وامضى بعض ليالى ساهرا فى مقاهى عماد الدين ٠٠٠

الأديان الثـلاثة
فى حسن ومرقص وكوهين

كنت جالسا ذات مرة فى مقهى روكسى مساءا بشارع الألفى المطل على عماد الدين فى صحبة زميل يعمل معى فى نفس الوظيفة ٠٠٠ وكان بجوارنا الممثل الكوميدى الراحـل عبد النبى محمد يلعب الطاولة وهو من الممثلين المعدودين فى جوقة الريحانى ٠ وكان زميلى الموظف من اقاربه وكان مثلى به ٠٠٠ فلما سألته عن أخبار الجوقة قال انها متوقفة لأن سى نجيب بيشـسـطب مع بديع خيرى فى رواية جديدة ٠٠ وانهم يجرون عليها بروفات صباحيـة فى مسرح الريتز باشراف نجيب الريحانى فلما أبديت رغبتى فى مشاهدة البروفات أو حضورها قال ان هذا مستحيل فطلبت اليه أن يقدمنى للريحانى بصفتى صحفى يريد أن يجرى معه حديث٠ تردد عبد النبى محمد فى أول الأمر ٠٠٠ ثم تكفل باسـتقبالى الى بعرفية المسرح حيث يجلس الريحانى خلال استراحات البروفة ويقدمنى اليه ٠٠ وحدث ذلك فعلا ٠٠ وكان الريحانى يومها فى حالة نفسية طيبة بسبب قرب انتهاء البروفات وتحديد ليلة الافتتاح ٠٠ وأخبرنى عبد النبى محمد

ان سى نجيب حيقابلني وهذا من الحظ لانه رايق ··· ذلك ان الريحانى كانت تلازمه لحظات انقباض مخيف··يصاب معها بالوجوم والقرف وكراهية الدنيا بكل ما فيها فلا يطيق مكالمة احد ···

لقـــاء مـــع سبـــق الأصـــرار والترصـــد

جاءت اللحظة المناسبة حين أهل الريحانى فقدموا له مقعدا وطلب شيشة عجمى وجلس وهو يقهقه ··· وكان فى صحبته حسن فايق كان يعاتبه لانه لم يحفظ دوره فى الفصـل الثالث مع انه دور أهم من دور الريحانى نفسه كما راح يشرح له··وحسن فايق يعتذر ووعد أن يحفظ الدور صم ابتداء من الغد ·· واسرع عبد النبى محمد يقدمنى له وهو لا يزال يقهقه ساخرا من حجج حســن فايق عن عدم حفظه للدور ··· التفت الى الريحانى بغته ···

– باين عليك لسه بتتمـرن وجـاى تتمـرن عليه ·· انت فى مجلة ايه ····

تلعثمت والم أجد جوابا ··· فلاحظ ارتباكى ···

– قول متنكسفش ··· ولا يكون فى العصفور الأزرق ياحسن ·· فرد عليه حسن فايق ····

– أيوه ··· انت فاكرها دى ياسى نجيب ··· ومين عارف يمكن يطلع فى الوطواط الأغبر ···

وانفجر الريحانى ضاحكا ···

– الله يخيبك يا حسن ··· فكرتنى بالذى مضى ··

الشىء العجيب اننى لم أشـعر بالاهانة ··· وانتقلت الى عدوى الضحك معهما وكأننى كنت جالسا فى صالة المسرح أمـام مشهد مما يقدمانه ·· وفجأة جاء أحدهم يجرى من وراء الكواليس معلنا وصول الأستاذ بديع خيرى ··· فطلب الريحانى تأجيل الشيشة ··· وقام مستأذنا ···

– أنا كنت موصـيه على كلمتين لك يا حسن ··· لكن ما دام ما تحفظش حا اخدهم لنفسى ·· اذا كان كتبهم ···

وأشار عبد النبى محمد منبها الريحانى الى وجودى ···

– تعال اتفرج على البروفة ··· وكفاية عليك ··· بلا صحافة بلا غيره بس اوعى تكتب كلمة واحدة عنها ··· اتفرج وانت ساكت ···

ونزلت الى الصالة فى صحبة عبد النبى محمد الذى أخبرنى ان الريحانى لم يسبق أن سمح لأحد غريب أن يشاهد بروفاته ۰۰۰ وظللنا جلوس فى الصالة لفترة حتى خرج أحدهم وقال ان سى نجيب ألغى البروفة وأجلها لمدة سبوع ۰۰

وضرب عبد النبى محمد كفا بكف ۰۰۰ وقام ليعرف السبب ۰۰۰؛ ثم عاد ليخبرنى ان سى نجيب جاته سفرية مفاجئة الى الاسكندرية تلك هى المعالم التقريبية التى أذكرها عما حدث ۰۰۰ ولكننى علمت بعدها أن السبب كان مرجعه أن الريحانى حين قابل بديع خيرى ۰۰ لم يوافقه على ما كتب وقرر السفر للاسكندرية ليكتب بنفسه خاتمة « حسن ومرقص وكوهين » وكان هذا هو اسم المسرحية الجديدة التى تجرى عليها البروفات ۰۰۰وهى من انضج مسرحيات الريحانى وان كانت اقلها فكاهـــة لانها تتصدى لمعالجة قضية حساســة فى حياتنا هى قضية تعايش المسلمـــين والأقباط واليهود ۰۰۰ وهو موضوع من العسير تناوله باسلوب الفكاهه التى عرف بها الريحانى ۰۰ سألت المرحوم بديع بعدها بعشر ســنوات تقريبا عن هذه المسرحية ۰۰فقال ان سى نجيب كان شديد الاهتمام بها الى حد انه أيامها توقف عن « لعب الورق » وركز كل جهده على اعداد هذه المسرحيه ۰۰ كانت شيئا شخصيا بالنســـبه له ولهذا كان من الصعب اعادة تمثيلها بعد وفاته ضمن ما خلفه من تراث ۰۰۰۰

عبقـــرية ممثـــل

والواقع ان هذه الاستحالة ۰۰۰۰ فى تمثيل مسرحيات الريحانى من غير الريحانى ۰۰۰ هى التى تشكل الأساس الهام فى طبيعة مسرحه فرغم اشتراكه فى كتابتها ومساهمته فى اخراجها فان أدواره فيها محال أن يمثلها غيره ۰۰۰ ذلك ان الريحانى كان من بداية ظهوره صاحب موهبة لاتضارع كممثل كوميدى كبير متفرد وقادر على كسب الجمهور وقد استطاع أن يحافظ على كيان مسرحه حتى نهاية حياته بفضل هذه الموهبة وما كانت تمده به من وعى مكنه من التطور بمسرحيـاته عبر عديد المراحل التى عاشها هذا المسرح بين مختلف المسارح الاخرى بدءا من ســلامه حجازى وجورج أبيض وغيرهما ۰۰۰ وخلال مقارعاته لمسرح رمسيس (يوسف وهبى) ثم فاطمة رشدى ومنافسته الحاميه مع الكسار ۰۰۰ ثم وقوفه وانفراده بالنشــاط المسرحى فى مواجهـــة الفرقة القومية ۰۰۰ تاريخ الريحـانى اذن هو هذا الوعى الذى كان يدفع بالكثيرين الى اعتبـاره فيلسوف وليس مجرد ممثل لا قرين له فى روعة وصدق الأداء الكوميدى۰۰

***

محمود تيمور

عالم القـراءة

فى منتصف الثلاثينات كانت قد فتحت امامى تماما ابواب المغـارة السحرية التى يسمونها « عالم القراءة » ·· وبدأت اشغف بجمع الكتب ومحاولة تكوين مكتبـة تضم كل ما تقع عليه يدى من كتب أذكر منها على سبيل المثال العديد من الروايات البوليسية المترجمة عن شـارلوك هولمز وارسين لوبين وغيرهما من ابطال مثل هذه المسلسلات ·· وايامها كانت الكتب رخيصة ولا يزيد ثمن النسخة منها عن قرشين اثنين فقط لا غير ·· وبدأت تصدر مجموعة جديدة باسم « كتاب الجيب » تحـوى ترجمـة لمعظم الروايات العالمية الأدبية المشـهورة ·· منها أنا كارنينا « والحرب والسـلام » لتولستوى و « البؤساء » لفيكتور هوجو ··· ثم الكثير من اعمال اميل زولا وروايات جوستاف فلوبير وتوماس هـاردى وهمنجواى وغيرهم ·· وغيرهم ·· ومثل هذه الكتب كنت اقتنيها ببساطة وانتظام لانها كانت رخيصة وتوزع مع الجرائد والمجلات اليومية ··· ولهذا تكونت عندى حصيلة كبيرة منها احيانا ما كنت اضيق بها فاسعى الى استبدالها بغيرها بعد الانتهاء من قراءتها ·· خصوصا البوليسيات التى كان وجودها مع بقية الكتب الاخرى ·· روايات المنفلوطى ودووايـن شوقى ومسرحياته وترجمات مطران لشكسبير وكتابات طه حسين وهيكل والمازنى والعقاد يجعلنى لا احرص على الاحتفاظ بها طويلا · وحـــدث أيامها ان تعرفت على زميل مثلى يقتات على قراءة الكتب ولديه منها الكثير

واذكر انه بعد وفاة والده ترك المدرسة واخذ مكانه فى المحل الذى كان يملكه ٠٠ وهو محل لبيع الالبان والجبن والزبادى ٠٠ وكان أول ما فعله أن أفرد فى المحل الذى ورثه وأصبح يديره مكانا فسيحا لما عنـــده من كتب ولانه كان يقرأ بنهم وأكثر منى ميلا لقراءة الكتب المسلية ٠٠٠ فقد كنت ابادله دائما الروايات البوليسية بالمؤلفات الأدبية ٠

القصـــة القصـــيرة

وصادف يوما وانا اقلب بعض ما اقتناه صاحبى من كتب جديدة ان وجدت اكثر من مجموعة قصصية من تاليف « محمود تيمور » كنت اسمع عن تيمور واتتبع أخباره فى الصحف ولكننى لم اكن قد قرأت لـــه شيئا ٠٠ بل لم اكن قرأت بعد هذا اللون الأدبى الجديد الذى يسمونه القصة القصيرة ٠٠ واعجبنى عنوان مجموعة لديه لعلها حتى الان ابرز مجموعات تيمور القصصية « أبو على عامل ارتست » معنونة باللغـــة العامية ٠٠ واستغربت حين علمت من صديقى ان محمود تيمور نفسه هو الذى أهداها له ٠٠ وبهذا الاهداء التقليدى الموقع بامضائه « الى الأديب الشاب ٠٠ مع تحياتى وتمنياتى له بالسداد والتوفيق ٠٠ محمود تيمور ٠٠ نفس عبارات الاهداء التى كتبها على بعض ما منحنى من كتبه بعـــد ذلك ٠٠

الأديب الارستقراطى

وهذا الاهداء ومعه توقيع تيمور أيضا وجدته بعد ذلك على الكثير من مؤلفاته فى اغلب مكتبات اصدقائى ومعارفى فيما تلى من سنوات ذلك ان تيمور كان يطبع كتبه على نفقته ويبعث بها الى كل من يطلبها منـــه خصوصا من الأدباء الشبان ٠٠ لم يحترف الكتابة ولكنه كان يعيش على حب الأدب وانتاجه وتأليف الكتب وطبعها واهدائها على هذه الصورة ٠٠ اتاحت له ذلك ثروته العائلية ومنبته الاقطاعى ٠٠ ولكن الرجل كان عاشقاً للأدب وقد وهب له حياته الطويلة اذ أنه مات بعـــد ان تخطى الثمانين يؤلف القصص القصـــيرة ويكتب المسرحيـــات ٠٠ والروايات ويؤرخ لحياة الادباء وينقد كتاباتهم ويطرح مرحلة بعد اخرى العديد من المفهومات فى حنو بالغ وحفاوة وتقدير لكل أديب منتــــج فى مختلف المجالات ٠٠

تيمور والأدباء الشبان

جاءت معرفتي بتيمور على ختام الدراسة الثانوية اذ أصبحت زميلا من الأدباء الشبان كان يعرفه ويتردد على زيارته فى سراياه الفخمة بحى الزمالك ٠٠ وفى أمسية قارصة من امسيات الشتاء وجدتنى اجلس معه فى الصالون ننتظر نزول « الباشا » جلسنا نحتسى « القرفة » وهى مشروبه المفضل طوال العمر حتى اهل علينا يرتدى روبا سهيا من مشروبه المفضل طوال العمر حتى أهل علينا يرتدى روبا شتويا من شيخوخته وبطريقة مخالفة لطريقة العقاد فى التلفح بالكوفية ٠٠ فهو لم يكن يطرحها على كتفه يلفها لتغطى نصف وجهه تقريبا ويضع أصابعه على اطرافها ليسد بها انفه كلما لاحقه العطس ٠ سألته عن ذلك بعدها بسنوات عديدة فأخبرنى انه لا يكره ولا يهاب شيئا قدر ما يكره ويهاب البرد لان صدره ضعيف ولا يحتمل التعرض له ٠٠

وتيمور كان يمتاز بالبساطة والتواضع وهو نحيف ودقيق الجسم وفى غاية الرقة ٠ أقبل علينا فى الصالون والواحد منا لم يكد يتجاوز الصبا وراح يعتذر بانه لم يستطع ان يقابلنا بالبدلة نظرا لملازمته الفراش ولكنه مسرور لحضورنا ٠٠ وقدمنى صديقى له على اننى من الادباء الشبان الجدد ٠٠ ولكنه لم يحاول ان يسأل عن اسمى ٠٠ كان شديد الالفة وسريع العشرة مع الجميع ٠ وجلس ينصت فى هدوء واهتمام لرأيى فى قصصه التى قرأتها ٠٠ وكان شديد التنبه لملاحظاتى خاصة ما تعلق منها باستعماله للحوار العامى على لسان ابطاله مع أنه من غلاة الداعين الى الفصحى ٠٠ ثم بهذا الاتجاه الجارف فى كل قصصه والذى يفيض كلفا واعجابا بالطوائف الشعبية رغم وضعه الاجتماعى الارستقراطى ٠ وابتسم الرجل وهو يهز رأسه ويشرح مفسرا ٠٠ فهو يكتب قصصا واقعية ٠٠ والواقعية لا تتحمل الا فى البيئة الشعبية ولا يمكن أن تتحقق الا بالحوار العادى الذى لابد ان تنطق به شخوصه القصصية فهو لا يقصد الكتابة العامية لذاتها وانما لدواعى الصدق الفنى ٠٠ وفيما عدا هذا فهو لا يطيق العامية ولا يميل الا لاستعمال الفصحى والحق ان هذه كانت من الدعوات الدائمة التى وهب لها تيمور الكثير من جهده طوال حياته وبعد ان أصبح من ابرز اعضاء المجمع اللغوى ٠٠ بعدها انتقل الى صديقى المصاحب لى وكان قد جاءه بناءا على موعد ليعرف رأيه فى بعض القصص التى كتبها وقدمها له ٠٠ فقد كان من أهم غوايات تيمور اكتشاف المواهب الأدبية ٠٠ وصارحه تيمور بأنه لا يزال يحتاج الى كتابة الكثير غيرها

حتى يمكن تبين موهبته وهى موهبة كامنة وتحتاج الى مران طويل بعدها انتهى اللقاء ووعدنا تيمور بارسال نسخة من كتاب جديد له لم يستلمه بعد من المطبعة ٠

الاتجاه الشعبى

ذكرت تيمور بتلك الواقعة بعدها بأعوام طويلة وبمناسبة ما احتدم بينى وبينه من جدل على صفحات أخبار اليوم حول استعمالى لكلمة « كنبه » بدلا من الاريكة ولكنه لم يذكر هذا اللقاء ٠٠ وانما عاتبنى لاننى لم اتردد عليه بعد ذلك وذات مرة لاقيته فى ندوة ادبية فى البرنامج الثانى وكنت قد اهديته مجموعتى الاولى من القصص القصيرة « حواديت عم فرج » وفيها مقدمة عن القصة القصيرة فى ادبنا المعاصر ذكرته فيها كرائد من روادها الواقعين وأطريت اتجاهه الشعبى الواضح الذى يكشف عن اعجابه بدفء وحرارة الحياة فى بيئتنا الشعبية وان كنت قد ارجعت ذلك أو قدرته على أنه يمثل النظرة الأرستقراطية التى لا تحمل ما هو أبعد من مجرد الشفقة ولا تنطوى على التعاطف ٠٠ والحق ان الرجل لم يغضب ولم يعاتبنى على رأيى هذا واعترف بصراحة بأنه لا يمكن ان ينظر الى هذه الطوائف بغير هذه النظرة وهى نظرة فنية اكثر منها نظرة اجتماعية وذلك يرجع الى أنه يعيش بعيدا عنهم ولا يمكن ان يعبر عن الكثير من حقائق حياتهم وطبائعهم لانه لا يحسها ولانه فاقد الصلة بها ٠

تيمور والمسرح

كان تيمور كما قلت يمتاز بالبساطة والتواضع والرقة ٠ ولكنه كان يحس ويشعر دائما بأنه ضحية الغبن والنكران ٠٠ ولعل سبب ذلك انه كان منطويا على نفسه يعيش بعيدا عن النشاط الادبى ويكتفى بما يمده به من مؤلفات ينقطع كلية لانتاجها فى عزلة تأخذه دائما بعيدا عن الناس ٠٠ مع ان تيمور كان من اكثر ادبائنا الكبار اهتماما وشغفا بما تتلاحق به الساحة الأدبية من انتاج مرحلة بعد اخرى ٠٠ على بداية الستينات قابلته فى احدى استوديوهات الاذاعة وكان قد انتهى من تسجيل حديث عن الادب ٠ فلما رآنى وكنت اجلس فى الاستراحة لمناقشة مسرحية كانت تعرض لى ايامها فى المسرح القومى ٠٠ واظنها

مسرحية « سيما اونطه » ٠٠ اقبل يحييني في لهفة ويهز يدى في شوق ٠٠ انت فين ٠٠ قالها وكأنه كان يرانى كل يوم ويعاتبنى على انقطاعى عنه مع اننى لم أكن قد قابلته لعدة سنوات ٠٠ ذلك انه كان يعيش مع كل كتاب أو مسرحية أو مقال يظهر في الساحة الأدبية ٠٠ ودعوته الى كوب من الشاى ولكنه طلب ان يشرب قرفه « أو ينسون » في حالة عدم وجود القرفة ٠٠ وراح يحدثنى عن مسرحياتي ومتابعته لها ٠٠ ثم استطرد للحديث عما قدمه هو للمسرح من قبل وعرضته له الفرقة القوميـــة في منتصف الثلاثينات أو الاربعينات ٠٠ فلما ابديت له معرفتى بمسرحياته وقراءتى لها رغم عدم مشاهدتها على المسرح قال أنه كان يود لو يتابع الكتابة للمسرح لولا عدم وجود الفرق الجادة ٠٠ وراح يروى ذكـرياته البعيدة عن شقيقه الراحل محمد تيمور وكتاباته للمسرح وكفاحه مـن أجل خلق حركة مسرحية حتى قبل توفيق الحكيم ٠٠

محمود ومحمد تيمور

كان تيمور دائم الحديث عن شقيقه الراحل محمد تيمور ٠٠ وكان يتكلم عنه في حزن واسى ويسميه دائما « المرحوم » ٠٠ وكأنه مات من شهور رغم وفاته وهو في عز شبابه قبل أوائل العشرينات ٠ وكان شديد الفخر والاعتداد بكفاحه من أجل المسرح وجهوده التى حرمه منها المـوت المبكر ٠ وقد اخذه العجب وانا احدثه عن كتاب محمد تيمور في محاكمة مؤلفى عصره ودفاعه عن المسرح المؤلف واستنكاره للهزليات والمقتنيات وكنت ايامها قد قرأت تلخيصا لهذا الكتاب في احدى الدراسات واعتبرته من اهم الوثائق في تاريخ مسرحنا المعاصر ٠٠ الشيء الغريب بعد ذلك بأكثر من خمس سنوات اننى كنت أدرس فن كتابة المسرحية في المعهد العالى للفنون المسرحية وجاءنى أحد الطلبة يحمل خطابا خاصا من محمود تيمور يوصينى فيه بأن اقبل الاشراف على الرسالة التى ينوى الطالب تقديمها للحصول على شهادته النهائية ٠٠ وكان موضوعها « محمد تيمور كاتبا وناقدا مسرحيا » ٠٠ ويطمئنى فيه على مقدرة الطالب وانه امـــده بكافة المعلومات والكتابات الخاصة « بالمرحوم » والتى تحتاجها الرسالة ٠٠ وهذا يثبت ان السنين كانت تمر على تيمور وكأنها ايام ٠٠ وسـبب ذلك كما اسلفت انقطاعه عن الناس والعزلة التى اختارها لنفسه وكأنه كان يخشى لو اندمج في الحياة ان يبتعد عن الكتابة ٠٠ ويتوقف عـن الانتاج الادبى الذى وهبه كل دقيقة من حياته ٠٠

وحين بدأ الارسال التليفزيوني في أوائل الستينات ٠٠ دعيت لحضور تسجيل برنامج عن محمود تيمور وكان هو الذى اختارنى لاكون من ضيوفه فى الحلقة ٠٠ والواقع اننى لم ادهش رغم انى لم اكن القاه الا لماما وفى مناسبات قليلة متباعدة ٠٠ وحضرت تسجيل البرنامج وبدلا من ان اتحدث انا عنه كما كان المفروض ٠٠ راح هو يسلط الاضواء على مسرحياتي واختار منها مسرحية « وابور الطحين » وطالب بعرض فصل كامل منها ضمن فقرات البرنامج كأحدى الاعمال المفضلة عنده ٠٠ وبعد ان انتهى التسجيل صحبنى فى جولة على النيل ٠٠ واخذ يشرح سبب تفضيله لهذه المسرحية التى لم تلق حقها من تقدير النقاد كما كان يعتقد ٠٠ وهنا كشف لى عن سر من اسرار حياته الخاصة لم اكن اعرفه ٠٠ فقد تعود تيمور أن يمضى شهورا طويلة فى عزبته بالريف بعيدا عن قصر الزمالك ينقطع خلالها للكتابة والتأمل والابداع والاستمتاع بالطبيعة وينعم بما فى الريف من هدوء وأصوات ٠٠ ومن أهمها عنده ٠٠ صوت وابور الطحين الذى لا تخلو من وجوده اى قرية أو نجع ريفى ٠٠ وقد قرأ مسرحيتى ثم شاهدها واستطرد موضحا ٠٠ « وأقول لك الحق ما كنت اتصور انك تستطيع ان تنقلنى الى جو الريف بمثل هذه السلاسة والصدق الذى أحطت به أحداث مسرحيتك واللغة الرقيقة التى استعملتها فى كتابتها مع أنها لغة علمية رفيعه قح ولكنها لا تخلو من الشعر والموسيقى ٠٠ فلما أوضحت له اننى كتبت المسرحية فى الاصل كالاوبريت الغنائى وليس كنص مسرحى ٠٠ قال » ان هذا هو السبب فرسم الجو يطفى على مكوناتها الدرامية ويلفها باطار شفاف ينقل القارىء قبل المشاهد الى ما تفوح به البيئة الريفية من اجواء ٠٠ وشكرته على هذا التقدير فقال أنه يرفض قبول الشكر لان ما يبديه من رأى انما يمثل حقيقة وجوهر مفهومه للأدب والفن ٠٠ وخلاصة ٠٠ ان الادب والفن انما هو استعادة للحياة عن طريق المشاعر والاحاسيس الجمالية التى تجدد النفس الانسانية وتبعث فى اوصالها العزاء والسلوى وبالتالى حب الحياة واعزازها ٠٠ ولم يحس بضياعه للوقت ونحن نسير على كورنيش النيل وتيمور يشرح دافقا نظرته الى الفن ٠٠ « صحيح ان الأدب تجاوب ذاتى ٠٠ ولكنه تجاوب لابد ان يغذيه الاديب بما يجعل هذا التجاوب الذاتى من جانبه تجاوبا له طابعه العام ومدلوله الجماعى ٠٠ والا تحول الى ما يشبه الدندنه « ويقصد بذلك من يغنى لنفسه ٠٠

واستطال الارتباط بعد ذلك بينى وبين محمود تيمور فى لجـــان المجلس الاعلى لرعاية الآداب والفنون • كنت القاه لاكثر من مـــرة فى الاسبوع الواحد بحكم عضويتى فى لجنة المسرح التى كان هو نفســه مقررها • وفي احدى الجلسات سألته لماذا اختار ان يكون مقرر لجنـــة المسرح مع ان القصة والرواية هى الطابع الغالب على انتاجه فى حين ان المسرح هو الطابع الغالب على انتاج توفيق الحكيم وليس القصة والرواية •• فاجابنى وهو يبتسم •• ان هذا التشكيل ليس من اختياره ولكنه لم يعارض فيه بل فضله من البداية •• من ناحية لانه كان يتمنى ان يستكمل رسالة شقيقه المرحوم محمد تيمور فى الانقطاع للمسرح •• لكن الزمام انتقل من يده الى يد توفيق الحكيم وقدر له ان يمسك بدفة القصة منذ شبابه الباكر •• ومن الناحية الاخرى لانه يحس فى شيخوخته ان عليه دينا للمسرح يجب أن يؤديه •• وبصراحة فانه يرى ان أدبنا المعاصر يتجه بكليته الى اســـتكمال ما عاناه حتى الآن من نقص درامى •• ولذلك أصبحت تعـــلو فيه النبرة الدرامية شعرا ونثرا وفى صميم القصـــة والرواية ذاتها واستشهد على ذلك بكافة الروايات والقصص المعـاصرة التى بدأ يختفى منها عنصر السرد القصصى ويغلب عليها الطابع الدارمى ممثلا فى الحوار •

وهذه النظرة الثاقبة من محمود تيمور تكشف عن سمة بارزه من سماته وهى أنه كان يعيش بكل كيانه ويهب كل جهده لخدمة الأدب وتطوره بغض النظر عن صدى انتاجه •• فالرجل وهب حياته وثروتـه وكل نشاطه للحياة الأدبيـــة ولا عجب فتيمور لم يحترف الكتابة يوما ولم ينل من مؤلفاته اى كسب مادى •• ولهذا سجلت فى رثائه انه كان يمثل هو وشقيقه محمد تيمور ووالده العلامة احمد باشا تيمور الصورة المثالية التى لم ولن تتكرر لاصفى وانقى ما كان يميز الارستقراطيات القديمة فى تعلقها بالأدب ورعايتها للفنون كابقى الموروثات الحضارية على مر العصور •

***

محمود حسن اسماعيل

سليل الدراعمة

تميزت الفترة التى اعقبت وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧ وقيـــام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بصراع سياسى عنيف داخل مصر ٠٠ خاصة بعد وقوع الازمة الاقتصادية الطاحنة فى أوائل الثلاثينات وكان الصراع يتمثل أساسا فى ارتكان الأحزاب السياسية على الطلبة وكان صراع مظاهرات وهتافات طلابية دخلت السراى الملكية الى ساحته بدعم من سيطرة الاحتلال الانجليزى مرتكنة على العديد من المحترفين السياسيين فى تكوين احزاب سياسية متتابعة تسعى جميعها الى دحر حزب الوفـد وهو حزب الاغلبية الذى قامت على اكتافه ثورة ١٩١٩ ٠ وتبلورت الاقلية التى تشاركها الرأى وتحميها السلطة الانجليزية المهيمنة على شئون الأمن الداخلى والدفاع الخارجى ٠ تبلورت فيما عرف بالقوة الطلابية عام ١٩٣٦ والتى ادت الى سقوط الآخرين الكثيرين شهداء من طلبة الجامعة والمعاهد وكانت هناك جامعة واحدة هى جامعة القاهرة الحالية وكان اســمها جامعة فؤاد الأول ٠٠

فى هذا العام بالذات كان شاعرنا محمود حسن اسماعيل قد تخرج من مدرسة دار العلوم (حاليا كلية دار العلوم) وكانت تقع فى حى المنيرة حيث تقوم معظم دور الاحزاب السياسية وجرائدها ٠٠ وقد برز محمـود حسن اسماعيل أول ما برز كشاعر سياسى كما كان يسميهم طه حسين

٠٠ فكان صوته أقوى صوت معبر عن هذه الثورة وشهدائها من الطلاب.
٠٠ بعدها مباشر احتضنه حزب الأحـرار الدستوريين وكان حـزب من احزاب الاقلية يمثل كبار ملاك الاراضي ويعمل لحساب السراى ويرأسه محمد محمود باشا الذى اعجب بشاعريته فاجتذبه الى صفوف الحـزب وفرض حمايته عليه ورعايته له على الاسلوب الارستقراطى الذى اتبعه امراء أوربا فى القرنيين السابع عشر والثامن عشر فى احتضانهم النوابغ الأدباء والموسيقيين والمفكرين ٠٠

موهبة الالقاء

كانت الميزة الكبرى لمحمود حسن اسـماعيل الى جانب موهبته الشعرية هى قدرته الفائقة على القاء الشعر ٠٠ استمعت اليه وأنا طالب فى الثانوية يلقى احدى قصائده فى حفل كبير داخل خيمة أقيمت فى فناء مدرسة دار العلوم وكانت هذه القصيدة بمثابة الاحتفال بذكرى الشهداء وفى مرحلة غلبت عليها الخطابة اذ لم تكن هناك ميكروفونات ولا مسجلات ٠٠ ليلتها خرج الناس جميعا أمام براعته فى الالقاء وجمال الابيات التى القاها من شعره يؤكدون ميلاد شاعر جديد سيخلف شوقى ان لم يفقه ٠٠ وبعدها الحقوه باحدى الوظائف وظل موضع اعجـاب هؤلاء السياسين الذين ضموه الى صفوفهم حتى اصبح بمثابة شاعرهم الخاص ٠٠ فلما خفت حدة الصراع الحزبى انزوى فى الوظيفة أو بالاحرى كما فسرها لى بنفسه بعد ذلك ٠٠ هرب من الاضواء السياسية لانه لم يكن له طاقة عليها وعاد الى حيث الارض والطين والقرية الصعيدية التى نشأ فيها ليخرج لنا اروع دواوينه من الشعر ٠٠ « أغانى الكوخ » ثـم « هكذا أغنى » ومن هنا كانت البداية الحقيقية لمحمود حسن اسماعيل ٠٠

شخصية مستقلة

كان محمود حسن اسماعيل يفخر دائما بأنه فلاح وصـعيدى أى رجل محافظ وعنيد ٠ وكان فى تلك الفترة يهيم بحب الارض ويعشـق أهل قريته ويتدله فى اعزازه لهم ٠٠ ولهذا كانت تصرفاته دائما تتسم بالحذر والدقة فى معاملته لاهل المدينة التى فرضت عليه ظروف حياته ان يعيش بينهم ٠٠ ولهذا ايضا لم يكن يصطفى من الاصدقاء الا من يطمئن

الى انهم مثله أميل الى التحلل من التزمت المتنى وأقرب الى التصرف التلقائى الطبيعى الذى يتسم به أهل الريف · وقد كان كثير المعارف ولكنه قليل الاصدقاء وهذه الطباع الشخصية التى كان يغلف بها نفسه لم يكن مصدرها فقط نشأته والبيئة التى عاش فيها ·· وانما كان مصدرهما ايضا شاعريته ذاتها ·· لانه منذ البداية كان شديد الاعتداد بموهبته ويدرك ادراكا تاما بحكم مكوناته النفسية والثقافية بل وبحكم التجربة القاسية والممارسة الحية انه صاحب شخصية أو يجب ان يكون صاحب شخصية ادبية مستقلة ·· ولعل بروزه المفاجىء من مبدأ شبابه كشاعر كبير وأصيل كان هو الذى غرس داخليته هذه الاستقلالية ··

ربطتنا صداقة متصلة فى سنى حياته الأخيرة وبحكم جيرتنا فى السكن فكان يشوقنى دائما أن أنبش فى داخليته على مدار جلساتنا التى كانت تمتد احيانا حتى الصباح ونحن جلوس على حافة النهر الخالد · كان يسبح طويلا وهو يحدثنى عن نظرته الى الحياة ورأيه فى السياسة وفهمه لمسار العالم المعاصر بالقياس الى ماضينا الحضارى ·· والحق اننى كثيرا ما كنت أذهل أمام أغلب آرائه ونظراته ·· فالرجل على عكس ما كان يبدو منه فى لقاءاته مع الناس ·· كان متقدما فى تفكيره متحررا فى نظرته واسع الافق فى تطلعاته السياسية والاجتماعية فلما اظهر له بعض التعجب مما كنت احاوره فيه وخاصة ديوانه « الملك » الذى جمع فيه قصائده أو على الاصح نصائحه لفاروق ·· كان يردنى دائما الى شعره ·· « لا يهم ما قد ادخلته من تجديدات وقوالب شعرية جديدة ولكن موضوع اشعارى دائما كان مناطه الحرية ·· انا رجل ثائر انتصر دائما للضعفاء والمقهورين والحق اننا رجعنا الى ديوانه الأول « أغانى الكوخ » أو حتى ديوانه السادس « لابد » انا ما تغنيت الا بنصفه الضعفاء ·· خذ عندك ملقاته عن الفلاح فى اغانى الكوخ ·· وفى صدر شبابى ··

شهدت يزرو دخان الأسى	والوجد فى كانونه ساعر
تبكى سواقى الحقل اشجانه	وما بكاه مرة شاعر
شالت بزرع النيل اكتافه	وما رعاه البلد الغادر

الحافظة القوية

كان محمود حسن اسماعيل من اكثر الشعراء حفظا لاشعارهم ولهذا لم يكن أسهل عنده من استحضار قصائده كاملة ليعيد تلاوتها فى جلسة واحدة ·· ولذلك لم يستعصى عليه ان يلاحقنى « وليس فى

صدر شبابي فقط ·· بل وفي أوج كهولتي » وراح يتلو على الكثير من قصائده في أحدث دواوينه وفيها يتغنى بالمطحونين ·· ولم يتردد في أن يسمي القصيدة بقصيدة الفقراء ويقول في مطلع أبياتها ··

من هؤلاء ··

هم الذين تبرجت اعراض كل منهم بعقابهم

من هؤلاء ··

هم الذين تكلمت

للظلم شاهقة بذل رقابهم ··

والحق انه كان شديد الحساسية من هذه الناحية لانه ولد فقيرا ·· ومات بعيدا عن اهله وناسه خوفا من الحاجة ··

في أسر الوظيفة

نشأة محمود حسن اسماعيل لعبت دورا كبيرا في تكوينه لانه عاش دائما يحن الى منبته الريفي ·· ولذلك كان الطابع الريفي الصعيدي يغلب على طريقته في الكلام ولهجته في النطق مع انه امضى طوال عمره في المدينة داخل المكاتب والدواوين الحكومية كان أول احتكاكي به وهو في الاذاعة يرأس قسم الاحاديث ثم الادارة الدينية وقد عرف بالتصلب والتشدد في تعاملة مع الاخرين ·· ولكنه سرعان ما اندمج في الجو الوظيفي وانطوى في أسر الروتين اليومي ·· وتلك كانت من أسوأ فترات حياته ·· فالرجل الم يكن له من مصدر يعيش منه غير مرتبه ولهذا سد عليه الاهتمام بالوظيفة الكثير من مسالك انطلاقاته الأدبية وكاد يطمس شاعريته وهو نفسه كان دائم الشكوى من ذلك ·· صحيح انه لم يفقد اعتداده بنفسه وهذا الاعتداد الذى كان يسميه « الشموخ الروحي » ولكن مشاغل العمل والاحتكاك بالرؤساء والحرص على الدخل الثابت ·· فضلا عما كان يلاحقه به اهل قريته من رجاوات وشفاعات ومطالب ·· كانت كلها من الامور التي تدفعه الى الضجر واليأس وفي أحيان كثيرة تهزه من داخل كيانه فلا يعود يعتد بشاعريته ·· وقد ظل سنوات عديدة ينوء تحت هذا العبء فكان يكتب أشعاره ويحفظها بينه وبين نفسه ويرفض ان يطلع عليها احدا الا اخلص خلصائه ·· وفي احيان كثيرة كان يرفض حتى لا يتهم باستغلال وظيفته ان تقدم

له الاذاعة شيئا من شعره ٠٠ وهذه النظرة الضيقة جاءته من اثر ما كان يداخله من شعور بالضآلة لانه موظف ٠ على ان هذا لم يكن يمنع ابدا اذا طلبت اليه مجلة أو جريدة أن يقدم لها شيئا من شعره ان يسارع بتقديمه ٠٠ ولهذا فكثيرا ما كان ينشر بعض قصائده التى يكتبها فى المناسبات الوطنية والقومية العديدة فى جريدة الاهرام بتشجيع من رئيس تحريرها انطون الجميل ٠٠ وكان بدوره شاعرا ويتمسك بالتقاليد الصحفية القديمة التى تحتفى بالأدب والشعر وتفرد له أوسع الصفحات كذلك كان ينشر بعض قصائده فى مجلتى الثقافة والرسالة ٠٠

حياة العزلة

كل ذلك شجعه على الاحتفاظ بالتوازن الذى كادت تفقده اياه حياة الوظيفة المحضة التى كان يعيشها فى تلك الفترة ٠٠ تعودت ان القاه صباحا ونحن فى طريقنا الى العمل ٠ كان هو فى الاذاعة ٠٠ وكنت انا اعمل مترجما فى بنك مجاور لمبناها بشارع الشريفين ٠٠ واتردد على الاذاعة بما كنت اكتبه من تمثيليات وبرامج مختلفة ٠٠ كنا نركب الأوتوبيس سويا اذ كان يسكن فى الجيزة مثلى بل انه كان يقطن فى المنزل المجاور لمنزلى ٠٠ ولكننى لم اعرف ذلك الا بعدها بأعوام ٠٠ ولم يحاول هو ان يخبرنى حتى اكتشفت بنفسى انه جارى وهذا يدل على طبيعة ونوعية حياة العزلة التى اختارها وهى حياة تساعده على الانزواء والابتعاد عن الناس طالما هو خارج العمل ٠٠ مع ان شخصيته رغم ما كان يخيم عليه فى تلك الأيام من محاولة واضحة للتماسك والانكماش على نفسه ٠٠ كان شخصية متفتحة وطلقة ومن الصعب اخفائها خلف وجه جامد ٠٠ قال لى ذات مرة انه لا يدرى لماذا يفتح لى قلبه فلا يخفى عنى الكثير مما كان يؤرقه ويضنيه ٠٠ وكانت المناسبة اننى كنت أوالى معاتبته على عدم الاهتمام بنشر اشعاره أو جمعها فى دواوين ٠٠ وتلك المشكلة كانت تؤرقه على الدوام لانه كان يعتقد ان من حقه على الناشرين ان يسعوا بأنفسهم اليه لأنه لا يستطيع بل يأبى ان يعرض على احد ان ينشر له شعره ٠ ولهذا لم تكن تطاوعه نفسه ان يتوجه بأى من أشعاره التى غنت وأصبحت من الأغنيات الشهيرة لأى ملحن أو مطرب ٠٠ بل يكتفى اذا طلبها منه ان يبعث اليه بها من بعيد ولا يهتم بمصيرها ٠٠

هيئتـه الشاعرية

ولعل من اطرف الصور التى أذكرها عنه فى تلك الايام ٠٠ انه كان يسير دائما وهو يحمل العديد من الدوسيهات والاوراق والملفات عـلى طريقة الموظفين الحكوميين ٠٠ فاذا لم يكن فانه يضع تحت أبطه الجرائد اليومية ليتقى بها حرارة الشمس مع ان رأسه كان مغطى بشعر طويل مشعث لا يحاول ان يصففه ابدا ٠٠ اذ كان يكره الحـلاقة كراهيـة التحريم ٠٠ ولهذا فغالبا ما كنت تراه وقد اغفل حلاقة ذقنه لفترات طويلة ٠٠ وكان محمود حسن اسماعيل فارع الطول يمشى بحذر ولا يكاد يتوقف أو يحاول متابعة شىء مما يجرى حوله ويلتزم دائما بالرصيف ٠٠ يمرق فى سرعة وكأنه يريد ان يهرب من شىء ليلحق بشىء آخـر يكفل له الراحة ٠٠ وتحس وانت تسير معـه بأنه يلهث فاذا توقف لشراء شىء أو محادثة احد ٠٠ راح ينفخ بشفتيه من شـدة الضـيق والملل ٠٠

بداية كل جديد

لكن شخصيته لم تكن كذلك على الدوام ٠٠ فبعد نشر اكثر من ثلاثة دواوين وبعد ان ارتدت اليه الشهرة التى صاحبت بداية ظهوره أيام الشباب ٠٠ بدا يلبس شخصية جديدة ٠٠ وهى شخصية اطلقته من عقال الكثير من الوان التزمت الذى كان يأخذ به نفسه فى مواجهـة الناس ٠٠ ومن خلال هذه الشخصية الجديدة اخذت اتلمس الطريـق الى ادراك قيمة موهبته واصالة فكره وابعاد رؤياه ذلك اننى على كثرة قرأتى لشعره وسماعى للعديد منه على لسانه ٠٠ كنت استغرب مـن واقع شخصيته التى عرفتها وحللتها من قبل ٠٠ ان يصدر عنه مثـل هذا الشعر الغريب الذى لا سابقة له عن من جاء واقبله من الشعراء ٠٠ ولعلى لا اكون مبالغا اذا قلت أن محمود حسن اسماعيل يعتبر بعـد شـوقى طفرة بارزة فى شـعرنا الحـديث وهـو التمهيـد الأكيد بل الأصيل لكافة فروع الشعر الحديث التى امتدت عندنا من بعده ٠٠ سواء اكان ذلك فى مبنى قصائده واسلوبه التصويرى واخيلتـه الرائعـة ورصانته القوية المذهلة وتجديداته المتطورة ٠٠ لانـه كان مـن اكثر الشعراء تحديدا فى الشكل ومن اقدرهم على تركيب الصورة الشعرية واحكام الموسيقى فى كافة قصائده وقد تجلت فى شعره معظم التيارات

التي عاصرته وربما جاءت بعده فشعره لم يخلو من السيريالية والانطباعية والرمزية ٠٠ وهو يجمع بين الشعر التقليدى والشعر الحرفى قـــوة واقتدار ٠٠ وهو نفسه دائما ما كان يعتز بذلك فاذا انت طالبته بمثال لم يصعب عليه ان يلاحقك بقصيدة لانه كما قلت كان من اكثر الشعراء حفاظا لاشعاره ٠٠ وكان يعتقد دائما انه يقف على مفترق الطرق بـين القديم والجديد وانه أول من طرق بالشعر مسالك الواقعية وأول مـن مهد للشعر الحر ويرى أنه فى شاعريته انما يشكل الركيزة الاساسية لشعر المستقبل بكل الوانه شكلا ومضمونا ٠٠ لكن ماذا عن الشـــعر الدرامى ٠٠ هذا ما كان يحجره بكل عنف ٠٠ ومرجع ذلك طبيعة ثقافته الاصلية الخالية من أى مفهوم للدراما ٠٠ ثم عزلته الدائمة عن الحيـاة الثقافية عامة ٠٠

عاشـق النيـل

ورغم القصور فقد كنت دائما شديد الاعجاب بشعره ٠٠ ولكننى لم اكن احتفى بما فيه من تجديدات فى الاشكال والقوالب ٠٠ وانما كان يجتذبنى فيه موضوعات اشعاره ٠٠ قضينا سنوات عديدة معا فى صحبة يومية وصحبة ليلية أيضا ٠٠ فقد تعود أن ينام ظهرا لساعات طويلة ثـم ينهض الى سمار الليل فى قهوة عبد الله بالجيزة ٠٠ احيانا ما يمر على لنبدأ السهر هناك ٠٠ وأحيانا ما يلح لأصحبه الى جلسة منفردة على النيل ٠٠ كان يهيم مثلى بحب النيل ويقطع الليل شاخصا فى مياهه ٠٠ خاصة فى الليالى القمرية ٠٠ وهنا تلزمنا وقفة ساتخطى فيها لقاءاتى معه بين عديد الادباء فى قهوة عبد الله ٠٠ أو انفرادنا معا فيما كان يسميه « امسيات المجد على شاطىء الخلود » ساتخطى كل ذلك لاحاول التعمق فى الوصول الى غور فكرة بما فيه نظرته الكونية ومفهومه السياسى ووعيه السياسى ووعيه الاجتماعى وقيمه الانسانية بعد ان حدثتكم طويلا عن شخصيتها فى مراحلها الراكدة والنابضة ٠٠

مكوناته الثقافية

كان محمود حسن اسماعيل شـــديد التدين راسخ الايمان كمـا يتوقع بالنسبة لكل ريفى مصرى بل لكل مصرى على الاطلاق ٠٠ وكان كثير الفخر باسلامه وعروبته ٠٠ ولم يكن يفصل بين الاسلام والعروبة

فما دمت مسلما فانت عربي . هكذا كان يقول دائما ولكنه لم يكن متعصبا لا في تدينه ولا في عروبته رغم نشأته ودراسته الدينية والبيئية التى تعلم فيها .. وكان يحفظ الكثير من الآيات القرآنية ويرددها على الدوام في ميل واضح الى طلاوتها وحلاوتها في معناها ومبناها .. يتذوقها بفن وحس لغوى مرهف .. وكان دائما يركز فى اسلامه وعروبته على التغنى بحياة الرسول وخلفاؤه الراشدين ويعتبر ان هذا هو العهـــد الذهبى والوجه الحقيقى للاسلام والعروبة . وفيما عدا ذلك فلم يكن يرجـــع للمفاخر العربية الا من خلال امجاد التراث فى مراحل الحضارة العربية أبان ازدهارها .. ولذلك فانه كان اميل فى نظرته السياسية الى انكار نظريات الخلافة والملوكية ومن يسميهم « طاواغيت الحكم » .. وكان جوهر الدين عنده يتمثل فى العلاقة المباشرة بين العبد وخالقه وهى علاقة لا يجب ان يداخلها وسيط من الاولياء .. ويؤكد دائما ان جوهر الاسلام هو حرية الفرد .. ومن هنا كان ارتباطه الدائم بالدعـــوات المصرية المتحررة . كالديمقراطية وحرية الفكر .. ولم يكن يعارض تحرير المرأة ولكنه كان يرفض الانحياز للجماعات الدينية التى تتجه نحو السياسة وهى ظاهرة مميزة لعصره .. ولعل الارستقراطية الوحيـــدة التى كان يؤمن بهـــا هى أرســـتقراطية الفـــكر « .. وكان يتمثلهـــا دائمـــا فى نفسه ويعبر عنها بأنها الشموخ الروحى » .

الشـــموخ الروحى

ومن مظاهر هذا الشموخ انه كان ذات مرة فى ضائقة مالية يواجه مصاريف اضافية ينوء بها مرتبه لمعالجة ابنته .. وكنا جلوس فى قهوة عبد الله بميدان الجيزة وهو فى كمد وضيق على غير عادته معنا فى مثـــل هذه الجلسات وحدث ان الراديو كان يذيع اثناءها قصيدته « النهـــر الخالد » التى يغنيها عبد الوهاب .

ومعنا صـــديق محـــام له مكتبـــه المعروف فى الجيـــزة وهو من أخلص أصفيائه ويبدو انه كان على علم بما يؤرقه من متاعب مالية .. وحين سماع القصيدة سأله المحامى مباشرة عما تقاضاه ثمنا لها .. فاذا هو اجر بسيط لا يتناسب مع قيمة القصيدة وزيوعها بما وزع من الاغنية مسجلا على اسطوانات تعدت المائة الف .. وحاول ان يقنعه مستعينا بعلاقتنا الفنية به أنا والصديق الراحل المرحوم زكريا الحجاوى أن يقبل مطالبته للشركة التى سجلت الاغنية والتى يملكها عبد الوهاب .. بأن

تدفع له حق أداء علني عن الأغنية ٠٠ ولكنه رفض باصرار واعتبر ذلك نوعا من التسول الذى لا يمكن ان تقبله شاعريته والظاهر ان صديقنا المحامى استطاع ان يسوى المسألة مع الشركة ويحصل له على مبلغ اضافى ٠٠ لانه حدثنى عن ذلك وهو غير مصدق ان له حق على احد فيما يكتبه من الشعر ٠

عالمه هو شعره

عاش محمود حسن اسماعيل طوال عمره محدود الدخل من اسر الوظيفة ولم يكن شعره يدر عليه شيئا تقريبا ٠٠ فلقد نشر معظم دواوينه متأخرا وهو على اعتاب الشيخوخة ٠٠ وباعها بثمن بخس ٠٠ دراهم معدودات كما كان يقول ٠٠ ولانه لم يتعود ان يجمع قصائده فقد كان نشره لدواوينه من الاحداث المثيرة ٠٠ كان يستحث اصدقاءه ومعارفه بأن يمدوه بما يمكن أن يكونوا قد وقعوا عليه منها منشورا فى المجلات والصحف ٠٠ ولكنه اعتمد فى اغلب الاحوال على ذاكرته الحافظة لانه كما اسلفت كان من امهر الشعراء الذين يمكنهم حفظ واستيعاب اشعارهم ٠٠ رغم ما عرف عنه دائما من نسيان كلى لكثير من صغائر الحياة المادية بل والاسماء والاشخاص والاماكن ٠٠ ذلك انه كان يعيش فى شعره ومع كل بيت من ابيات قصائده اذا ابدعه فانه لا يخرج من ذاكرته ابدا ٠

***

بيرم التونسى

تعود بيرم رحمه الله ان يكتب فى أى مكان يهبط عليه فيه الوحى وكما كان يقول هو ساخرا من نفسه « لما تواتينى زنقة الالهام فقل على الدنيا السلام » ذلك انه كان يسارع الى تسجيل خواطره حتى وهو جالس فى الترام لانه كان يتمسك بحكمة دائمة بالنسبة لما تجود عليه به قريحته الفياضة « أصل اللى يجى لو راح ما بيتكررش تانى » وهو يقصد بذلك ما تكشف له عنه أحاسيسه من أفكار نسميها نحن تارة بالوحى وتارة بالالهام ٠ كان اذا لم يسجلها فى حينها واراد أن يكتبها بعد ذلك فلا بد أن يكتب شيئا آخر غيرها ٠٠ وقد درج بيرم على ذلك من الصغر منذ كان صاحب محل عطارة فى أوائل نشأته بالاسكندرية وهو صبى ٠٠ أبان الحرب العالمية الأولى وبالتحديد عام ١٩١٦ ٠

كاتب عمومى

حدثنى عن ذلك بنفسه فى جلسة طويلة اذ كنا نعمل معا فى القسم الأدبى بجريدة الجمهورية ونقوم بالاعداد لاصدارها بعد تجارب استغرقت أكثر من سبعة شهور قال وهو يجلس الى احدى المكاتب الخالية وفى يده ورقة وقلم وأنا استغرب انه سيجلس ليكتب مباشرة ٠ « أنا أصلى

خدت على كده من زمان ٠٠ من أيام العطارة ٠٠ كنت أقعد أكتب فى الدكانة والناس تفتكر انى بأعمل حسابات المحل ٠٠ وأنا فى الحقيقة بأرص لهم قصايد زجل وشعر زى اللى أنا حاأرصها دلوقت لبتوع الجرنال »
وهذه العادة ٠٠ عادة الكتابة المباشرة فى أى مكان كانت تفرضها عليه طبيعة وظروف حياته فى امتهان الكتابة كحرفة ومهنة ومصدر الرزق الوحيد ٠ لكنها لم تكن الأصل فى عملية الخلق عنده اذ كان يصف نفسه وهو يزاولها بانه « كاتب عمومى » لكنه حين يشرع فى كتابة الأعمال الفنية الكبيرة التى يعتز بها يحتشد لها بكل المهيئات الممكنة التى تتيح له التفرغ والانقطاع والعزلة عن الناس ٠٠ كان من عادته رحمة الله ان يختار ركنا منزويا من أى مقهى وأمامه كراسة من كراريس تلامذة المدارس وفى يده قلم صغير من الرصاص ٠٠ وكان يحب أن يكتب دائما بالقلم الرصاص ٠٠ يجلس وعيناه تجولان فاحصة فيما حوله حتى ليخيل اليك انه يبحث عن شىء ما قد تاه منه ثم يرفع قامته ويتمتم كما لو كان يخاطب السماء ٠٠ فاذا أنزل رأسه على الورق لم يرفعها الا وفى يده كل ما كتب كاملا ٠٠

غيـــة الحمـــام

صحبنى يوما الى منزله وكان يقطن فى المدبح ٠٠ أحد أحياء القاهرة الشعبية العتيقة ٠٠ وكان القصد ان يطلعنى على « غية الحمام » التى يقتنيها ٠٠ كان يعشق الحمام بكل أنواعه ويقتنى العديد منه ويقوم على تربيته وأطعامه ومبادلته مع غيره من الهواة ٠٠ وهذه الهواية هى الأخرى كانت لاصقة به منذ شبابه وهو فى الاسكندرية وقد لازمته طوال سنوات النفى التى أمضاها فى فرنسا وكانت من أقوى الانطباعات التى ظلت عالقة بوجدانه وتستأثر بكل اهتمامه ٠٠ وكثيرا ما كان يتمنى أن يكون لدينا مثلما فى أوروبا ميادين يطير ويعشعش الحمام فيها ٠٠ ثم يستدرك « عارف الحكاية دى لو حصلت لكن دا مستحيل ٠٠ احنا بناكل كل الحمام والعصافير كمان ٠٠ أما بيرم نفسه فلم يكن يطيق ذبح الحمام حتى يأكله ٠

ملحمة الظاهر بيبرس

أقدمت يوما على الجلوس اليه فى مقعد مقابل وكنا فى نادى الاذاعة القديم بشارع الشريفين وشاعرنا الكبير ينهى احدى حلقات مسلسلة الرائع

عن « الظاهر بيبرس » انها احد روائع بيرم التونسى الدرامية ٠٠ وياليت أحد يعنى بنقل شرائطها المسجلة فى الاذاعة (هذا اذا لم تكن قد مسحت وأعدمت) وبالقليل تسجيل أصول حلقاتها المكتوبة بخط يده اذا لم يكن قد أدركها الضياع فى أرشيف الاذاعة ٠٠ ثم يعمل على طبعها فهى من أقوم وأعمق ما سجل عن تراثنا الشعبى على أرفع المستويات الفنية ٠٠ أمسكت بالمقعد ولكنى ما كدت أجلس وأحركه حتى فزع صارخا فى وجهى ٠٠ « ابعد عنى حرام عليك » ولم أغضب فقد كنت أعرف فيه هذا الطبع ٠٠ لكنه حين انتهى من الكتابة قام يترنح وكأنه فى غيبوبة ثم أخذنى من يدى لأجلس عى المقعد أمامه ٠٠ بعد الحاح فى الاعتذار ٠

ماكينات التفصيل الأدبى

وحقيقة الموضوع ان الحلقة التى كان يكتبها للاذاعة من الظاهر بيبرس كان ينقصها مشهد حتى تصبح مدة التسجيل بالمسمع الاضافى نصف ساعة كاملة ٠٠ لانها اذا سجلت كما كتبها أصلا لخرجت ناقصة أربع دقائق وبالتالى لا تستحق عنها أجرا يعادل نصف أجرها المقرر للنصف ساعة وكان بيرم شديد الحساسية لمثل هذه الأمور وكان يكتب المسمع الاضافى مرغما ٠٠ وبعد ان تابع اعتذاره راح يشرح لى حقيقة ما كان يكتب بسخرية لاذعة مريرة ٠٠ « أنت عارف أحنا بنعمل أيه ؟ احنا بنقدم قماش والمكن هو اللى بيفصله » وكان يقصد بذلك أجهزة التسجيل ومكانة الكاتب المعاصر بكلمته المكتوبة على الورق فى مواجهة أدوات التعبير الحديثة الناطقة والمشخصة على السواء ٠٠ كان يعانى من ذلك حتى فيما يكتبه من أغانى خصوصا للسينما ٠٠ فأحيانا ما يقدم الأغنية ثم يعترض عليه المخرج لانها قصيرة أو يطلب اليه المطرب والملحن تغيير بعض كلماتها ٠٠٠ فيأخذ بيرم نص الأغنية ويمزقه فى وجوههم ٠ ثم ينصرف ٠٠ فاذا لاحقوه كتب لهم غيرها مشترطا الا يحددوه بمقاس والا يطلبوا منه تغيير حرف واحد منها ٠٠ كان لا يقبل أبدا ان يعبث أحد بكلماته فيما عدا « الشيخ زكريا » ٠٠ «والست» وهو يقصد زكريا أحمد وأم كلثوم وعلى أساس ألا تستبدل أى كلمة فى أى شطرة الا بعد موافقته وهو الذى يختار بديلها وينتقيه بنفسه ٠٠

لمحة عن حياة وتاريخ بيرم

وهنا قبل ان تنساب بى الذكريات والانطباعات عن بيرم التونسى وعشرتى له ·· أفضل لو أقدم صورة خاطفة عنه وعن حياته حتى أعرفكم بحقيقة مكانته وقيمته ·· بيرم من أصل تونسي ولكنه من مواليد الاسكندرية ·· وقد نشأ فى عائلة فقيرة وتحمل عبء حياته من صباه ·· ورث عن والده مهنة العطارة ولم يكمل تعليمه فى المعهد الدينى ··· واكتشف فى نفسه موهبة الشعر ثم كتابة الزجل ··· ولانه يعيش على الدوام بكل أحساسه وفكره ووجدانه مع الجموع الشعبية العانية فى كافة مسالك الحياة ·· فان أزجاله ظلت تنبض حتى نهاية عمره بعناء الناس وصرخاتهم وشقاؤهم فى شجاعة نادرة وثبات وصلابة لا تعرف اللين وهو الابن الشرعى للجموع الشعبية التى حملت على أكتافها ثورة ١٩١٩ فى مصر ·· وكان من أبرز المعبرين عنها سواءا فى موقفه السياسى وفى انتاجه الفنى وزمالته وارتفاقه المتصل بصنوة العملاق الموسيقى سيد درويش الذى كتب له بيرم العديد من أهم مالحن من أعمال غنائية ومسرحية باقية ··

نفى بيرم من مصر عام ١٩٢٠ لتهجمه عى العائلة المالكة وطعنه فى السلطان فؤاد (الملك فؤاد بعد ذلك) فى زجل كان يتغنى به الناس فى الطرقات · وعاش شريدا فى فرنسا سنوات طويلة ثم حاول العودة الى مصر مرارا ولكنه فشل الى أن أتيحت له الفرصة عام ١٩٣٦ ابان الثورة الوطنية المطالبة بالحكم النيابى الحقيقى وعودة الحياة الدستورية ·· كان يستقل باخرة تعبر قناة السويس فلما رست أمام مدينة بور سعيد لم يستطع أن يقاوم فنزل الى البر وانسل هاربا الى القاهرة واختفى لعدة شهور عند بعض معارفه وأصدقائه القدامى ·· فلما عرف بووجده كان لا بد لكى يرفع عنه النفى المؤبد خارج مصر أن يقدم الثمن على صورة بضعة أزجال يعلن فيها التوبة ويطلب العفو من الملك فاروق ··

البثقة

حدثنى بيرم عن ذلك الموقف الذى لم يرحمه فيه خصومه وبعض أصدقائه حتى بعد مماته ·· الحقيقة أنا كنت أيامها فى حيرة وناوى أركب راسى تانى ·· لكن قعدت أفكر لسه حسافر أرجع للمر اللى شفته فى

أوروبا ·· وفي مقابل آيه ؟ ·· كام سطر زجل من ضمن آلاف السطور اللى بأكتبها علشان أرجع أعيش فى مصر تانى ·· كنا نجلس على طرف الرصيف في مقهى مجاور لسراى عابدين ·· وكان مزاجه معتدلا على غير العادة ··· فقال بمنطق عجيب وعميق وهو يبصق على الأرض مشيرا الى بصقته ثم الى الاوساخ التى تضج بها أرضية الميدان وشوارعه ·· قول لى ·· البثقة بتاعتى دى ·· عملت أيه فى الشارع ·· زودته وساخة ·· أبدا ·· أهم الكام سطر اللى كتبتهم اعتذار لمولانا ذى البثقة دى تمام فى وسط المدايح والقذارة اللى هما بيكتبوها ·· وأنا من ناحيتى لم أكن ألومه وانما كنت ولا زلت مقتنع بموقفه ·· والا فماذا كان يحدث لو اننا حرمنا من بيرم طوال السنوات التى عاشها فى مصر بعد ذلك حتى وفاته عام ١٩٦١ لقد عاد ليغمر حياتنا بأعماله الفنية الباقية فى كل مجال من مجالات نشاطه الفنى ·· السينما والمسرح الغنائى والاذاعة وما كتبه لأم كلثوم من اغنيات ·· ثم هذا التراث الوافر من الازجال والمقولات الشعبية التى كتبها ناقدا كافة همومنا الاجتماعية والثقافية فى اصالة وتجدد وحيوية لم يصل اليها أحد بعده حتى اليوم ··

اعتزازه بفنـه

ويعود الى لقاءاتى معه ·· لقد كان الشىء الغريب الذى يستلفتنى فى بيرم دائما أنه رغم الحياة العريضة الصاخبة التى عاشها خارج مصر ··· ورغم احتكاكه بالمجتمع الغربى احتكاكا لاصقا قويا وبالذات اندماجه بالحياة الجماهيرية الشعبية هناك بحكم امتهانة لكثير من المهن الصغيرة ولا أقلها اشتغاله حمالا ثم جزارا الخ ··· فانه ظل ثابتا على شيئين رئيسيين شدة تدينه الذى بلغ حد التصوف ثم التعلق الدائم بأنباء وطنه من طوائف الشعب العمال والفلاحين بالذات واحياء القاهرة الشعبية بناسها وتقاليدها ·· لقد عاد كما لم يعد غيره وهو أكثر ارتباطا بالبيئة التى انبتته وان كان دائم السخط صارخ الأسى على ما تعانيه من فقر وجهل وتخلف ·· ثم هذا الانعدام الكامل فى التمسك بأبسط مقومات الحرية ·· وكانت الحرية تتمثل دائما عنده فيما يلمسه من رضوخ الناس للقهر وهوانهم واستسلامهم لكل عوامل التسلط ··· ومن هنا رفض كل ما كان يعرض عليه من وظائف وأعمال حكومية وغير حكومية رغم انه كان يعيش من اليد الى الفم وأحيانا ما تنقطع عنه السبل من الكسب من انتاجه ·· ولهذا كان

يحرص على أن ينال حقه من كل ما يقدم من كتابات حتى اتهم بأنه يغالى في تقدير قيمة واجر انتاجه وقد اختلف كثيرا مع أم كلثوم فيما كانت تدفعه له في مقابل اغنياته التى يؤلفها لها لدرجة انه اتهمها بالبخل والاستئثار والانانية وامتنع عن الكتابة لها عدة سنوات متأثرا بأحساسه بالغبن ·· وظل على موقفه وهو يردد ·· « أنا باقول كلام ماحدش غيرى يقدر يقوله ·· وعلشان كده ·· أنا اللى أحدد قيمته وتمنه » ·

نبيع أفكارنا مقابل الجزم

كان بيرم عنيدا في اعتزازه بكتاباته حتى صوره بعضهم بانه كان يضمر الحقد لبقية الفنانين الذين يكسبون من أعمال أقل قيمة من أعماله الكثير من الأموال ·· ضعف أضعاف مكاسبه ·· وتلك فرية مبعثها فهم خاطىء وغير ناضج لطبيعة الحياة التى عاشها بيرم ·· فالرجل كان يقتات من قلمه · وهو لم يكن يطمع في المال بدليل انه كان مبدءا وعلى حد وصفه لنفسه « أنا راجل ايدى سايبه ·· انت تقدر تمسك الميه في أيدك ·· أهو أنا الفلوس في ايدى زى الميه تمام لكن لازم أخد حقى بالكامل ·· والذين عاشروا بيرم حتى نهاية عمره في زهده وتصوفه البالغ يعلمون كيف كان ينظر للمادة في احتقار مرير ·· لقيته يوما يجتاز رصيف الترام مع ولديه الصغيرين (انجبهما على كبر) وكان في طريقه ليشترى لهما كسوة العيد ·· ويحمل في يده حوالى مائة جنيه استلمها توا من خزنة الاذاعة مقابل تمثيلية زجلية فقال لى وهو يأسف ساخرا والنقود في يده « نبيع مشاعرنا وأفكارنا على الورق ونأخذ مقابلها ورق نشترى به ··· جزم وصرم » ثم أردف وهو يجتاز الشارع بولديه وكل منهما في يد « الحمد لله على الفقر والجدعنة » وهى عبارة تسمعها دائما على لسان كافة أبناء البلد في مختلف حوارى القاهرة ··

عامية بيرم وشاعرية الفصحى

منذ أكثر من خمسة عشر عاما ·· زارنى أحد أبناء بيرم بعد أن كتبت عنه دراسة بمناسبة ذكرى وفاته ·· وكان يعرف مدى صلتى وعلاقتى بوالده وشكرنى على انى نوهت بأهمية وضرورة جمع تراث بيرم المشتت

المبعثر فى مختلف الجرائد والمجلات والكتب والمعبرات .. وأخبرتنى ان لديه العديد من الأعمال التى جمعها من مخلفاته وبينها العديد من الذى لم ينشر ويحكم عضويتى فى لجان المجلس الأعلى للآداب والفنون استكتبته مذكرة بذلك واحلته على المسئولين بالمجلس فرفضوا قبول النشر بزعم ان المجلس لا يقوم بنشر مؤلفات مكتوبة باللغة العامية .. وانصرف الصبى يائسا .. بعدها وأنا أقلب احدى المجلات القديمة وجدت فيها بعض قصائد بيرم فحرصت على تضمينها فى كتاب أخرجته عن الشخصيات المصرية بعنوان « بطولات مصرية » ومنها طبعا شخصية بيرم .. وهاكم قطافا من قصيدتين لتحكموا بأنفسكم على مدى العامية فى زجل بيرم وارتباطها اللاصق كتعبير أدبى وأرقى وأصفى أساليبنا الفصحى ...

القصيدة الأولى بعنوان « الكلمة الهايفة » ويقول فيها ...

من هفوه أو كلمة هايفة ننحمق ونقوم
نسب وندب ونشعلل عراك بالشوم
وكل محموق وله فرقة تقوم بهجوم
من قبل ما تعرف الظالم من المظلوم
تبقى الشرارة حريقة والسحابة حسسوم
لا شركة تنجح ولا عيلة صفاها يدوم
ومنين نشوف العدل ولا السفينة تقوم
ما دمنا فوق قلبها قاعدين لبعض خصوم
تضحك علينا الحدادى فى السماء والبوم

• القصيدة الزجلية الثانية عنوانها « الزحام » ومنها هذه الأبيات ..

شوف الجاموس لما يشرب من شطوط النيل
الواحده جنب أختها واقفين فى صف جميل
شوف الغنم المراعى لما تمشى رعيل
لا الكبش يطغى ولا ينطح بقرنه فصيل
شوف الطيور لما بتروح فى كل أصيل
أسراب ومنتظمة راجعة للحمى بدليل
وانظر وشوف النبى آدم بنوع دى الجيل
كل الأمور عندهم بالزغد والتشويل
قالوا اللى ما يكونشى فى الأول دا يبقى عويل
ومن كده بالقليل فى كل زحمه قتيل
واللـه البهايم ولا ... أولاد قابيل وهبيل

لغة عامية لا شك ولكنها مصاغة فى رنة عربية أصيلة تكاد تدانى الفصحى فى حبكها وصياغتها وروعة معانيها ودقة ورقة صورها وما تحمله من مشاعر داخلية وموسيقى . تلك كانت موهبة بيرم وتلك كانت شاعريته وهى أقرب الى التراث الشعبى منها الى التراث المتوارث .. وحرام ان نتجاهلها ولا نجد بيننا من يحرص على بقائها قدما نحرص ونعتز بألف ليلة وليلة فى لغتها مثلما فى دلالتها وقيمتها .. ولهذا أقدم الدكتور محمود الشنيطى مشكورا ومقدرا وهو يرأس الهيئة المصرية العامة للكتاب على جمع تراث بيرم واصدار بعض أعماله فى خمس مجموعات .

تجارة فى تجارة

قبل وفاة بيرم بشهور أصيب بوعكة صحية الزمته الفراش .. ثم عاد ليستأنف نشاطه .. لقيته جالسا وحده منفردا بنفسه فى زاوية بمقهى فى ميدان الاوبرا .. ولم يكن من عادته ان يجلس هناك .. كان أمامه كوبا من الينسون وهو يسعل بانتظام من أثر الربو الشديد .. رحب بى وشكرنى على سؤالى عنه .. لم تكن أمامه ورقة ولم يكن فى يده قلم .. وكان قد عاد من فحص طبى على صدره .. وجلس صامتا ساهما .. فحاولت أن أخرجه من صمته ..

« مالك يا أستاذ بيرم » فأجابنى « الدكتور بيقول لى ما تتعبش نفسك .. وأنا قرفت من صنعة القلم .. طب وبعدين .. أعيش منين .. والاولاد حيعملوا أيه ؟ أنا لو مت حا ادخل الجنة .. لكن هما حيعيشوا فى نار .. الأيام الجاية هيه أيام النار .. أيام الشقا .. أيام الشرود والجمود .. خدها منى حكمة .. الخير خلاص انتهى من الدنيا العيشة كلها حتبقى تجارة فى تجارة .. بكره تشوف » .

بعدها مات بيرم وكلماته لا تزال تطن فى أذنى كلما تلفت حولى كيف أمكن له أن يصل بهذه النظرة النفاذة الى المستقبل .. بفضل فراسته .. أم بفضل عبقريته أم بفضل اغراقه العميق فى مسالك التصوف والزهد والشفافية .. لقد كان بيرم من أكثر الناس واقعية بقدر ما كان من أكثرهم مثالية .. وتلك هى حقيقته على حد فهمى له ومعرفتى به .

***

السحرتى

اذا كان لابى فضل فى تنمية ادراكى الفنى منذ الطفولة كغواية الأغانى والموسيقى وحب الشعر وارتياد المسرح من مطلع صباى • فان للسحرتى فضله الباكر فى هوايتى للآدب وحب للقراءة • بيت السحرتى على مبعده خطوات من البيت الذى ولدت ونشأت فيه بمدينة ميت غمر • وهى مركز بالدقهلية يقع فى منتصف المسافة بين أربع عواصم لأربع محافظات • وهذه العواصم هى المنصورة فى الشمال وبنها فى الجنوب وطنطا فى الغرب والزقازيق فى الشرق • لكن الذى شجعنى من البداية أو على الاصح كشف لى عن موهبتى الأدبية كان مدرسى اللغة العربية فى مدرسة ميت غمر الابتدائية المرحوم الاستاذ أبو الفضل ابراهيم وقد أصبح فيما بعد على رأس الدارسين المتخصصين فى تحقيق التراث العربى • كان قد كلفنا بكتابة موضوع انشاء ونحن على نهاية العام فى السنة الرابعة الابتدائية • وصحح الموضوعات وجاء يقرأ لنا النتيجة فى الفصل وما استحقه كل طالب من النمر •• فاذا بى احصل على تسعة من عشرة • دعانى بعدها الى زيارته فى منزله أنا والاثنين الأوائل الآخرين • وفى نهاية الحفل أهدانى « ألفية بن مالك » فى النحو لأن أسلوبى رغم جودته كانت تشوبه أخطاء لغوية واضحة فى الاعراب اهم ما اوصانى به ان اتقن اللغة بالقراءة الكثيرة وفى كتب التراث بالذات • وكان جدى رحمه الله قد خلف لنا مكتبة كبيرة فى بيتنا ••

اذا كان وجود المكتبات فى البيوت « تلك الايام هو البديل لما أصبح يشغلها الآن من اجهزة الراديو والتليفزيون وبقية انواع المسجلات ٠٠ ولن انسى لهذا الرجل كلماته المشجعة بأننى عميق الفكر وقادر على التعبير عن نفسى بالقلم وتنبؤه لى بأننى سأصبح فى يوم من الأيام من الادباء ٠٠

القراءة المتصلة

وهكذا عشت من مبدأ صباى على قراءة الكتب واقتناء المجلات والحرص على متابعة الجرائد ٠ حتى وانا فى عز سنوات الشقاوة ولعب الكرة وركوب الدراجات ٠٠ كنت الوحيد بين أقرانى الذى أستطيع أن اكف عن اللعب فى أى لحظة لاقرأ كتابا أو مجلة ٠ وقد لاحظ عمى رحمه الله ذلك فأهدانى بمناسبة أحد أعياد ميلادى بعض الكتب بدلا من ساعة اليد التى كان قد وعدنى بها ٠ لكن هذه الكتب لم تكن جديدة لانه كان يأخذها من زميله فى مكتب المحاماة بالمدينة ٠٠ مصطفى السحرتى ٠

وذات صباح ارسلنى والدى بملف لمكتب عمى المواجه لمبنى المركز ٠٠ وكانت هذه هى أول مرة أتردد فيها على المكتب ٠ كنت أكتفى بقراءة اللوحة المعلقة على بلكونة المكتب باسم عمى ومصطفى عبد اللطيف السحرتى « المحاميان بالنقض والاستئناف » ودخلت المكتب وسألت عن عمى فقالوا انه فى المحكمة يحضر جلسة ٠٠ وجاء الاستاذ السحرتى رحمه الله واستقبلنى قائلا « هو انت !؟ » وطلب لى كازوزة وصحبنى معه الى غرفة مكتبه وراح يسألنى عما قرأت من كتب ٠ كان يعرفها جميعا لانها كتبه وقد أخذها منه عمى ليهديها لى ٠٠

ومن هنا بدأت معرفتى بالسحرتى !!

عشق الطبيعة

مدينتنا ميت غمر تقع شرق النيل ويجرى شرقها كذلك الرياح التوفيقى فهى والحال كذلك تكاد تكون شبه جزيرة تحيطها الحقول والقرى المتناثرة عن بعد فتكسبها الى جانب موقعها كمدينة ما يمكن ان يكون منتجعا ريفيا ٠ فهى زاخرة بمغانيها الطبيعية التى يكفلها لها موقعها ٠

لذلك عشقها السحرتي وعاش حقبة طويلة من عمره لا يغادرها • وكان السحرتي بعد تخرجه من كلية الحقوق قد رحل الى فرنسا وعاش فى باريس على نفقته الخاصة • ولكنه لم يستطع ان يقيم هناك طويلا •• وسرعان ما عاد الى ميت غمر ليفتح فيها مكتبا للمحاماه مع زميله فى الدراسة وشريكه فى المهنة • وقد أثرت عليه رحلة باريس هذه تأثير كبير فزادته ارتباطا بالأدب وتعلقا بالثقافة رغم تمكنه من القانون كمحامى • ولهذا كانت مذكراته التى يكتبها للقضاه فى دفاعه تتسم بطابع أدبى خالص يثير اعجابهم ذلك انه كان أخجل من ان يترافع أمام منصة القضاء •• فالخجل هو السمة الغالبة على شخصية السحرتى • وقد ظل هذا الخجل يلازمه حتى نهاية حياته كان يتأذى من سماع أى عبارة خارجة ويبتعد بنفسه عن كل مجالات العبث والمجون •• ولا عجب بعد ذلك ان يعتزل الناس من بداية شبابه ويغرق فى هيام متلاحق متصل بالطبيعة • وقد وجد مبتغاه فيما يحيط المدينة من مباهج طبيعية •• يخرج الى الحقول فى شرق المدينة مع الصباح ليشهد شروق الشمس ويرتد الى شارع البحر (كورنيش النيل) فى المساء لينعم بمغيبها ويسهر فى نادى البلدية بعيدا عن صالاته وغرفه الصاخبة ليجلس عند أطراف الشاطىء ليتغزل فى جمال القمر وينعم بضوئه الفاتن • وهذا الاحساس الغامر بسحر الطبيعة دفعه الى كتابه الشعر •• فأخرج ديوانه الأول « أزهار الشوك » ومن تردده على القاهرة فى أوائل الثلاثينات انطوى فى أعطاف مدرسة « أبوللو » الشعرية التى أسسها أبو شادى • وكان من أبرز شعرائها ابراهيم ناجى وعلى محمود طه والصيرفى وقد ربطته بهم صداقة متينة فلما استقر عود الجماعة وأصدرت مجلتها « أبوللو » كان السحرتى هو الذى يشرف على تحريرها ويختار ما ينشر فيها من قصائد •

الناقد المدقق

ورغم هذه الصلات والارتباطات فانه ابى ان يغادر مسقط رأسه ميت غمر وظل قابعا فى مكتبه سنوات طويلة امتدت حتى نهاية الثلاثينات • وهذا ما يتفق مع طبيعته ويبعده عن التعلق بأهداب الشهرة الأدبية • وهى صفة لازمته حتى نهاية العمر • على ان أبرز صفات السحرتى انه كان يجمع الى جانب مواهبه الأدبية الحرص على الاشتغال بالسياسة • فقد عاش وفديا صميما حتى النهاية • وكان بطله المفضل دائما ومثله الأعلى بين السياسيين •• مصطفى النحاس باشا • فى تلك الفترة من حياته

غمرني السحرتي برعايته الأدبية . كنت أصحبه مع اقبال الغروب في جولته اليومية الى شاطىء النيل في ميت غمر . وينتهي بنا المطاف عند الكوبري الموصل بينها وبين مدينة زفتي فنجلس في منتصفه والماء يجري سابحا من تحتنا وهو لا يكف عن التغني بما يحيط المدينة من مفاتن طبيعية غنية غامرة بأشجارها وطيورها ومائها .. ومن تلك الجلسات تعلمت من السحرتي الشيء الكثير . كان يمدني بعديد الكتب ويدفع بي الى عديد القراءات . ورغم حرصه واعتزازه « بمكتبته » فلم يكن يضن علي بشيء مما فيها .. اعداد السياسة الاسبوعية حيث قرأت لأول مرة ترجمات لمسرحيات شكسبير .. ومجلتي الرسالة والثقافة التي كان يقتنيها ويكتب فيها . وكتب العقاد وطه حسين « وعودة الروح » لتوفيق الحكيم . ولم يكن يكتفي بذلك .. وانما كان يناقشني فيها عند قراءتي لهـا وكأنه يختبرني .. أذكر انني بعد قرأة عودة الروح لتوفيق الحكيم انه طرح علي سؤالا عويصا مؤداه ان شخصية محسن بطل الرواية هي نفسها شخصية المؤلف وانه يتصرف ويتكلم بلسان توفيق الحكيم . ولم أوافقه على هذا التفسير .. فطالما اعتبرنا « عودة الروح » رواية وليست ترجمة شخصية لحياة المؤلف فان محسن بطلها شخصية روائيـة مستقلة بذاتها داخل الرواية عن شخصية توفيق الحكيم : وعلى منتصف الستينات دفعت بي الأقدار الى امتهان الأدب وكتابة المسرح والالتصاق بتوفيق الحكيم وملازمته في الكثير من جلساته وندواته . وسألته عن جلية الأمر في شخصية محسن التي اختلفت مع الأستاذ السحرتي في تفسيرها منذ قرابه أربعين عاما من قبل فاذا بتوفيق الحكيم يوافقني على رأيي ويرجحه على تفسير السحرتي . فلما أخبرته بذلك وكان هذا على وجه الدقة عام ١٩٧٥ . اشترى السحرتي طبعة جديدة من « عودة الروح » وأعاد قرأتها ثم التقينا ليفرني على سلامة وصحة تفسيري وان يكن الحاحه محدود كما قال . وأنا أروى هذه الواقعة لأدلل على موهبة أخرى من مواهب السحرتي تفتحت فيما بعد حين جاء يعيش في القاهرة على بداية الأربعينات وهي موهبة الناقد المدقق الفاحص الممعن الواسع الأفق والنظرة .. وقد امتاز بذلك في كل دراساته النقدية لتي أصدرها في أكثر من كتاب .

همزة الوصل بين الأجيال

عاش السحرتي في مسقط رأسه ميت غمر طوال الثلاثينات منحازا بكليته الى كتابة الشعر والحماس لجمـاعة أبولو ورفض العقاد وشكري والمازني حملة لواء مدرسة الديوان ومن قبلهما شـوقي وحافـظ وكان

يسميهما « الاتباعيين » ولم يستثنى من أوائل شعراء العصر الا خليل مطران • وكان شديد الحماس لشعره وبعد أن تشكلت مدرسة أبوللو انحاز السحرتى لشعراء المهجر وحملة لواء الشعر الحر • فكان حصيلة ذلك كتابه الأول « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » أصدره عام ١٩٤٨ بعد دراسة متصلة لعشر سنوات كاملة •• فكان أشبه بموسوعة فى نقد الشعر اذ كان لا يكتفى فيها بجمع المقالات والدواوين وانما يلتقى بكل المبدعين من الشعراء الذين يكتب عنهم • جاء السحرتى الى القاهرة ليعيش ويستقر فيها ابان السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية ترك المحاماه وقبل الوظيفة كمستشار قانونى لوزارة الدفاع المدنى • وسكن مع شقيقه الأصغر لأنه لم يكن قد تزوج وعاش أعزبا الى نهاية العمر • ولهذا وهب نفسه كلية لهوايته الأدبية والفنية وأخذ لنفسه من البداية دور راعى الأجيال الأدبية التى كانت تتلاحق دافقه منذ الربع الأول من القرن •• ولاغرابه ان يندمج بكليته فى الحياة الثقافية الرحبة التى كانت تعمر بها القاهرة على مدار الأربعينات ويجعل من نفسه كما يمكن ان يقال همزة الوصل بين الأجيال •• وهذه المهمة ربطته دائما بالأجيال الصاعدة من الأدباء والشعراء الخالقين المبدعين •• ذلك انه كان يعتبر جيل الرواد طه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وغيرهم أصحاب مواهب فنية أقل بكثير من طاقتهم الدراسية أعنى كما كان يصفهم انهم كتاب « مقالات » أكثر منهم مبدعين منشئين ولم يشذ عن هذه القاعدة عنده غير توفيق الحكيم الذى كان يعتبره الفنان • الوحيد الخالق بينهم وقد وجد السحرتى فى النشاط الثقافى الذى كان يغمر القاهرة بما يزخر به من ندوات ولقاءات وتجمعات خير متنفس بل وأفضل مجال لتحقيق رسالته •• ولهذا لم تكن هناك ندوه أدبية تخلو من وجوده • كان يتابعها ويحضرها بانتظام ويسجل ما يطرح فيها من موضوعات ومناقشات •• كان يتردد على قهوة عبد الله بالجيزة ويحضر ندوة المقتطف صباح الجمعة واللقاءات الثقافيـة لجماعة الشبان المسيحيين التى كان ينظمها سلامة موسى أما عن ندوات الشعر فلا أظنه انقطع عن حضورها والمساهمة فيها بشعره ونقده •• ومع ذلك فقد كانت تلازمه دائما طبيعته اللاصقة بشخصيته • وهى شعور الخجل الى درجة انه كان يتلجلج حين يطرح أراءه أو يلقى شعره فى أى جمع يحضره •

السحرتى سياسيا

على ختام الأربعينات ترك السحرتى الوظيفة وأحال نفسه على المعاش ليتفرغ للحياة الأدبية • ومع ذلك فلم يقدر له ان يحظى بالشهرة الا بين

من عرفوه عن قرب . ذلك انه كان لا يحب الظهور ولا يميل الى فرض نفسه . كان أشبه بالضيف المتردد الذى يخشى زيارة الناس حتى لا يقلقهم أو يقتحم عليهم حياتهم رغم انتظارهم له .. ولذلك كان يختار دائما الجلوس فى المقاعد الجانبية أو الخلفية حين يحضر أى اجتماع أو لقاء .. حتى أيام كان محاميا كان يكتفى فى حضور جلسات القضايا أمام المحاكم بتقديم المذكرات ولا يترافع الا نادرا . فهو دائما خافت الصوت فى وداعه وهدوء .. وكان صاحب نظرة حانية متسامحة الا فى شيء واحد . هو عقيدته السياسية كوفدى صميم . كان يثور ويغضب لأى هجوم على الوفد وبالذات زعامه النحاس باشا فقد كان يرى فيه الرمز الحقيقى الذى تتركز فى مواقفه الوطنية الصلبة ويمثل فى نظرته قمة الديمقراطية الصميمة .. وقد انحاز السحرتى على نهاية الأربعينات للتيار اليسارى الذى كان يقوده الدكتور محمد مندور والمحامى عزيز فهمى داخل الوفد مؤكدا انهم يبلورون فى مواقفهم الآراء الحقيقية للنحاس باشا نفسه . وقد حدثنى عن اشتراكه فى جنازة النحاس وما تعرض له خلالها من محاولات للقبض عليه . ولا عجب بعد ذلك انه لم يؤيد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ واعتبرها فى البداية انقلابا عسكريا يناهض الديموقراطية ثم عدل موقفه من الثوره بعد ذلك وان يكن فى تحفظ حين أقرت الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية وتأميم الصناعة وبناء السد العالى وتأميم قناة السويس ومقاومة العدوان الثلاثى . لكنه لم يكن يسلم بما فرضته من دكتاتورية فردية طمست معالم المسيرة الديموقراطية الأصيلة فى تاريخ شعبنا وداست على معظم الحريات

رابطة الأدب الحديث

ومن أجل ذلك انصرف السحرتى عن السياسة بعد الخمسينات ووجد منطلقه الصحيح فى النشاط الأدبى وبالذات من خلال الندوات الثقافية . ولم يكن غريبا ان ينشيء ويرأس اثبت تجمع أدبى وشعرى عرفته حياتنا الأدبية وهى « رابطة الأدب الحديث » التى وهبها كل عمره وماله وفكره فلم يتخلف يوما عن ندوتها الاسبوعية من يوم انشأها أى من قرابه أكثر من ربع قرن . كان كل همه وحرصه اكتشاف الشعراء الجدد والأدباء الشبان .. هذا الى جانب ما كان يتابع دراسته من موضوعات راح يضمنها فى كتبه التى أصدرها على مدار تلك الحقبة وأهمها عام ١٩٦٢ كتابه عن « النقد الأدبى » وكتابه عن « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » و « دراسات نقدية » الذى ضمنها كتاب بهذا الاسم صدر عام ١٩٧٤ ..

وقد ظلت رابطة الأدب الحديث مستقلة بذاتها ومدوامه على نشاطها بفضل حرص السحرتي عليها ٠٠ ولما قامت الدعوة من خلال جمعية الآدباء ٠ وهي جمعية حكومية رسمية كان يرأسها يوسف السباعي لمحاوله ضم جميع الروابط والتجمعات الأدبية اليها وعرض على السحرتي ان يكون عضوا في مجلس ادارتها رفض حل « رابطة الأدب الحديث » وادماجها في جمعية الآدباء وظل يقود سفينتها حتى وفاته عام ١٩٨٣ ٠ وفي تلك الفترة أيضا تابع نشر دراساته في كتب ومنها كتابه « شعراء مجددون » الذي قدم فيه أعمق وأدق دراسة عن خليل مطران وأحمد زكي أبو شادى وابراهيم ناجي وأبو القاسم الشابي والتيجاني بشير ومحمود أبو الوفا وغيرهم ٠ ثم اشترك مع الشاعر العراقي « هلال ناجي » في اصدار كتاب بعنوان « الشعراء المعاصرون » تعرض فيه لمعظم شعراء العرب المحدثين في سوريا والعراق ولبنان وفلسطين وبقية البلاد العربية ٠ ذلك انه كان معروفا لدى الكتاب والشعراء العرب أكثر مما معروف لدى أدباء مصر ٠

الخاتمة

ونأتي الى خاتمة السحرتي ٠٠ وهي خاتمة قاسية فقد امتد به العمر الى قرابه الثمانين وليس له من دخل الا معاش ضئيل من وظيفته القصيرة الأجل ٠ وكان قد أتى على كل ما يملك من مال أو عقار صرفه بالكل على متطلبات نشاطه الأدبي وروابطه العائلية اذ كان يتكفل برعاية أولاد أخيه الأصغر الذى مات قبله بسنوات ٠ ولكم حاول كل من عرفه ان يستكتبه طلب من أجل الحصول على معاش استثنائي أو عن طريق اعادة طبع مؤلفاته بأسعار مرتفعة وبيعها للجهات الرسمية فكان يرفض وبكل اباء وشمم ٠ ذلك انه كان شديد الاعتداد بكرامته ٠٠ أرسل الى خطابا رقيقا يعزيني به في وفاه زوجتي رحمها الله ٠٠ وصف فيه الموت في سطور أبكتني ٠٠ فقد كان الموت عنده هو أبشع ما في الحياة ٠ وزرته لأشكره وأعوده وهو في فراش المرض ٠٠ ولم أستطع وأنا أغادره الا أن أبكى حسرة على رجل ضحى بكل شيء وخرج من الحياة بلا شيء ٠٠ فلما مات لم يمشي في جنازته الا القليل من أصدقائه وجيرانه وعارفي فضله ٠

رحمه الله السحرتي ٠٠ وحفظ لنا من ذكراه ٠ أنقى وأعظم وأبقى القيم ٠٠ الصدق والطهارة والتضحية والصفاء والتواضع والبساطة والزهد والاخلاص والاعتزاز بالكرامة وكل ما أصبحنا نفتقده من قيم ومثل في حياتنا الحاضرة التي تساوت في بشاعتها مع بشاعة الموت ٠

* * *

ذكرياتى مع زكريا الحجاوى

لا أدرى لماذا يرتبط الصديق الراحل زكريا الحجاوى فى ذاكرتى دائما بميدان الجيزة ربما لأننى تعرفت به لأول مرة فى هذا المكان ٠٠ وربما أيضا لأننا كنا معا نسكن فى أغوار الجيزة والطريق الى بيته داخل « حارة رابعة » يبدأ بالشارع المنحنى الذى كان يقع فى نهايته بيتنا ٠ ومع ذلك فكثير ما تستأثر بخيالى صورة زكريا بجسمه الضخم المستدير وكأنه الصورة المصغرة المتحركة لميدان الجيزة ، والسبب أن زكريا كميدان الجيزة تماما ملىء بالتجاعيد والنتوءات والتضاريس الجسمية المتعددة ٠٠ ثم أنه كميدان الجيزة أيضا كانت تنصب فيه وفى شخصيته العديد من التيارات الفكرية التى عشناها وعاصرناها فى تلك الفترة ٠٠ فترة الحرب العالمية الثانية وما تلاها ٠٠ تماما كما تنصب فى ميدان الجيزة مختلف الشوارع التى تؤدى الى الخروج من القاهرة أو الدخول اليها ٠٠ شارع الهرم وشارع الجامعة وشارع مراد وشارع الكوبرى ثم شارعى الجيزة الرئيسيين ٠٠ واغفروا لى مثل هذا التشبيه ٠٠ فالرجل فى حد ذاته كان معلما من معالم حياتنا الثقافية أشبه ما يكون بالميدان ٠

كان لقائى الأول بزكريا وتعرفى عليه فى وسط ميدان الجيزة حيث كان من عادته أن يقف وفى يده جريدة يلوح بها لكل من يحييه من المارة ٠٠ وأدهشنى كثرة عدد الناس الذين يعرفونه ويمرون به ٠٠ أيامها لم تكن

العمارات الشاهقة القائمة الان قد وجدت لتغطى على ناحية الغرب من المساحة حيث كان يحلو لى أن أقف لاشاهد مغرب الشمس وراء الاهرامات ٠٠ منظر مثير دائما ما كنت أرتاح الى تأمله وأنا فى طريقى الى قهوة عبد الله المواجهة للميدان ٠٠ ولوح لى زكريا بالجريدة التى كانت فى يده على غير معرفة سابقة به ٠٠ كنت أحيانا ما أراه جالسا فى القهوة ومن حوله عديد من الاتباع وكان هو بطبعه يهوى التفاف الناس حوله ٠٠ قال :

ـ تعال يا أخى ٠٠ انت مش عاوز تسلم عليه ليه ؟!

اجبته :

ـ لانك راجل زعيم ٠٠ وقهقه عاليا وقد أدرك حقيقة ما أقصده ٠٠ فقد كان شديد الذكاء بل الدهاء ٠ ثم تبادلنا السلام بالايدى وكأننا نعرف بعضنا من سنوات بعيدة ٠ والحق ان زكريا لم يكن غريبا على ٠ وانما كنت أراه دائما فى المقهى فأحييه ويحييني بهز الرأس ٠٠ ويكتفى كل منا بالابتسام لصاحبه ٠٠ ولم يكن مبعث ذلك أى نفور من جانبه أو من جانبى وانما سببه ما كان يحيط به نفسه من عديد الأصدقاء أو معنى أصح التلاميذ ٠٠ فالرجل وعلى حد ما عرفته من البداية كان صاحب مدرسة تضم العديد من الاتباع والاشياع والمريدين ٠ ولم اكن أعرف منهم أحدا ٠٠ وأنا بطبعى ورغم تلقائيتى كنت أيامها أفضل العزلة واكتفى بصديق أو صديقين ٠٠ ولذلك فلم أسع الى التعرف به خاصة وانه كان فى جلساته عالى الصوت شديد الصخب سريع الانفعال يشوح ويلوح بيديه ويستأثر بمعظم الكلام على طريقة الزعماء ٠٠ ومن هنا جاء وصفى له بالزعامة ٠

ولما صحبته الى المقهى بعد لقائنا فى الميدان صمم على دفع الحساب وهو حريص كل الحرص على أن يعرف منى السبب الذى من أجله أطلقت عليه لقب الزعيم ٠ أخبرته اننى لا أقصد الزعامة السياسية وانما طريقته وسلوكه وأنا أراه دائما سواء فى المقهى أو فى شوارع الجيزة لا يمشى الا ومن حوله دائما كوكبة من الناس ٠٠ ويبرر ذلك بقوله :

ـ معك حق ٠٠ أعمل أيه !! اتعودت على كده خلاص !!

وراح يروى لى الخطوط العامة لقصة حياته ٠٠ انه مثلى من أبناء الدقهلية ومن مواليد المنزلة وأهله من صيادى بحيرتها ٠٠ وكان طالبا فى مدرسة الصنايع يتزعم المظاهرات ويحمل على الاعناق يخطب ويهتف ٠٠ وانتهى الأمر بفصله نهائيا من المدارس ٠٠ وهو الآن موظف صغير لا يحمل سوى شهادة الابتدائية ٠٠ وشهادة لا اله الا الله ٠٠ وانطلقنا نضحك وهو يحدثنى عن ذكريات حياته ٠

كان هذا هو زكريا الحجاوى كما عرفنى بنفسه .. لكن زكريا الحجاوى كما عرفته فى تلك الأيام كان قد ابتعد عن السياسة وبدأ يهوى الأدب والفن ويحتك بالتيارات الفكرية التى لازمت فترة نهاية الحرب العالمية الثانية .. وكان لابد أن يجرفه التيار اليسارى وأن يتعرف بى لاننى يسارى مثله . .وان يتأثر بهذا التيار لا بوصفه مفكرا أو أديبا أو حتى سياسيا . ولكن كأبن من أبناء الفقراء .. وكان يقولها بزهو وافتخار ليميز نفسه عن المثقفين المعقدين الذين يتمسحون بالاشتراكية لاثبات وجودهم .. أما هو فيؤمن بها لان لا علاج للفقراء الا باشتراكية .. ولكن أى اشتراكية؟! تفسيرها عند زكريا أنها ليست اشتراكية الروس ولا الأوربيين . وانما الاشتراكية التى تجمع بين مبادىء الاسلام كما تحققت فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين .. والاشتراكية المادية السائدة .. ومن هنا كانت اللبنة الأولى للنظرية بل النظريات الحجاوية فى الأدب والفن والسياسية والفكر .. وهى التى كانت تجمع حوله العديد من الاتباع والاشـياع والتلاميذ كل ليلة فى قهوة عبد الله ومن بينهم الصديق الفنان محمد على ماهر .. ولغرابة ما كان يتحدث به الحجاوى من اراء اجتهادية كنت دائما أترك جلستى مع المرحوم أنور المعداوى وأهرع الى الحلبة الحجاوية والمعداوى رحمه الله يستغرب موقفى .. لاننى لا أتفق مع زكريا فى كل ما يقوله ومع ذلك اصطف حوله مع بقية أشياعه .. وكان يعتقد أننى أفعل ذلك لاسخر منه .. والواقع أن الأمر كان على عكس ذلك تماما فقد كان فى صحبتى دائما على أطراف الدائرة الحجاوية الصديق أحمد عباس صالح .. ولم يكن موضوع اهتمامنا ينصب على النظريات الاجتهادية المتشبعة التى يطرحها « أبو الزيك » كما كنا نسميه .. فقد كانت هذه هى سجيته .. وانما كان شغفنا قاصرا على الطريقة التى يعرض بها أراءه وأسلوبه .. فقد كان رحمه الله من أبرع المتحدثين وله باع طويل على الكلام التلقائى ومقدرة نادرة فى اضفاء الغموض على ما يقدمه من أراء يصك لها من العبارات والتركيبات اللفظية ما يدفع الى الضحك . ومن ذلك مثلا دعوته فى تلك الأيام الى ما كان يسميه « تمويد الأدب » وهو ما يعنى تحويله الى أدب مشبع بالمفهوم المادى عوضا عما كان يسميه الاشتراكيون أيامها « الواقعية الاشتراكية » ثم نظريته عن « معابر الوصل » ويقصد بها محاولة الربط بين مادية الاشتراكيين وما ينادى به الدين من التمتع « بطيبـات ما رزقناكم » ..

كان زكريا شديد البراعة فى اقتطاف مثل هذه المتناثرات وتدعيم نظريته المبتكرة بها ·· وأذكر من تلك الفترة فيما أذكر أنه جاء ذات ليلة بمسودة كتاب جديد كان يؤلفه عن « سيد درويش » وبالمناسبة فقد كان يعتز دائما بأنه شبيه لسيد درويش ·· وقد اختار للكتاب عنوانا طريفا « دكتوراه من الله » ويعني به أن فناننا الكبير كان صاحب موهبة موسيقية تعادل الدكتوراه ولكن حصل عليها من السماء ولم يحصل عليها فى الجامعة ·· ذلك أنه لم يكن يحترم الدراسة الجامعية المتمثلة فيمن كانوا يجلسون معنا فى قهوة عبد الله من دكاترة الأدب كما كان يسميهم ·

وانفض الاتبـــاع

وكما تنفض أى مظاهرة من كثرة الهتافات ·· انفض تلاميذ الحجاوى عنه عاما بعد عام فكان طبيعيا أن ينصرف للانتاج الفردى ·· وراح يكتب القصة القصيرة وكانت هى اللون السائد فى تلك الفترة ·· أيامها كنا قد شرعنا فى اصدار مجلة « الأديب المصرى » أنا والعديد من الكتاب الذين سدت أمامهم مجالات النشر ·· وأشرف عليها أستاذنا العزيز مفيد الشوباشى رحمـه الله ··· وانضـم الينـا زكريا فى حماس وكان هو الذى يرابط فى المطبعة خلال اصدار أعدادها الأولى ·· وأتحف المجلة بأكثر من قصة قصيرة من انتاجه ·· لكنها لم تعجب أنور المعداوى كناقد فقاطعه زكريا وأعرض عن الجلوس معه ·· وكان من أمتع تعليقاته عن هذا التجاهل لقصصه القصيرة من جانب أنور المعداوى ما قاله فى وصفه :

ـ أنا حا أجيب شوية بريانتين وألمع بهم شعرى وأعمل ناقد ·· ذلك أن المعداوى رحمه الله كان يكثر من وضع البريانتين على شعره اللامع الناعم · وقد ظللنا نتندر على هذه الصورة التى صورها زكريا وذكرنى بها عباس صالح أخيرا وأنا فى بيته بلندن من أسابيع فأمضينا ليلة بطولها ونحن لا نكف عن الضحك على تعليقات زكريا رحمه الله ·

الأديب زكريا الحجاوى

أخيرا انقطع لكتابة القصة القصيرة بعد أن أصبح وحيدا يعيش بدون أتباع ·· واختفى زكريا من الوجود لعدة أشهر وقيل أيامها أنه سافر الى المنزلة ليعيش هناك بعد أن زادت عليه أعباءه المالية والعائلية ·· ولكنه سرعان ما ظهر من جديد ·· وكان من الاسباب التى ساقها عن غيبته أنه ذهب الى هناك ليخفى أنور السادات فى بيت أسرته ·· فقد كان

السادات أيامها هاربا ·· وقد ذكر السادات ذلك وتحدث عن لجوئه لبيت زكريا فى المنزلة فى بعض أحاديثه ·· ذات يوم انتحى بى زكريا جانبا وهمس فى أذنى على طريقته الحجاوية بأن السادات يريد أن يرانى وانه يدعونى لأكلة سمك معه فى بيته · ·وهى أكلة سيحضرها طازجة من مدينته « المنزلة » مباشرة بناء على رغبة السادات التى كان قد تذوقها هناك · وكنت قد تعرفت بالسادات فى سجن « قرة ميدان » أيام حملة صدقى باشا الشهيرة عام ١٩٤٦ ·· والتقينا ثلاثتنا فى بيت زكريا ·· لكن السمك لم يحضر من « المنزلة » واضطر زكريا لارسال شقيقه لشراء السمك جاهزا من محل « أبو حجر » وهو سماك مشهور فى الجيزة ·· ودار حديثنا كله عن الأدب وكان السادات أيامها يهوى الأدب ويسعى أن يكون صحفيا وأديبا · ·ولم نتطرق الى السياسة الا فى موضوع واحد وهو الحديث الذى كان يردده السادات دائما من أيام السجن عن الروس · وهى أنهم همج وورثة التتار الذين أحرقوا بغداد · وانصرفنا بعد أن وعدت زكريا بكتمان لقائى مع السادات فى بيته ·· فقد كان لا يزال أيامها هاربا ·

وعدنا الى لقاءات قهوة عبد الله وكان زكريا يتابع القصة القصيرة وقد التحق بجريدة المصرى وبدأ ينشر قصصه فى صفحتها الأخيرة مع عبد الرحمن الخميسى وسعد مكاوى · ·وكان يختار لقصصه عناوين طريفة من تركيباته اللفظية البالغة الغرابة ويجلس على القهوة فى المساء كلما نشرت له قصة فى جريدة المصرى ·· يدخن الشيشة ــ ويتقبل التهانى من المعجبين ·· وأصبح يرتاح فى تلك الأيام بعد أن أخذ الناس يطلقون عليه لقب الأديب زكريا الحجاوى · ·وذات ليلة انتقد أحدهم قصة لزكريا وحاول مقارنتها بقصص سعد مكاوى والخميسى فغضب وعلق باقتضاب ·

ــ واحد بيرش علامات استفهام وعلامات تعجب على الصفحة زى بتوع الكنافة ·· والثانى مليها نقط زى مسامير السحارة ·

وكان بين الجالسين المرحوم الشيخ عبد الحميد قطامش وهو من أصدق أصدقاء زكريا ومن أمتع الشخصيات التى يمكن مجالستها فى الندوات الأدبية وعلى خلاف مفتعل ودائم مع صديقه « زكريا » على حد ما كان زكريا يوقع بعض قصصه ·· فرد عليه متحديا

ــ ويعنى أنت اللى قصصك عدلة قوى ·· ماهى كلها فحم وزلط وطين وفطران ·· وتلقى زكريا الصفعة فى هدوء كعادته وابتسم ساخرا

من الشيخ قطامش الذى لم يعجبه هذا الموقف فقام وأمسك بخناق زكريا صارخا ٠٠

ـ رد على ٠٠ رد على رد مقنع ٠٠

فما كان من زكريا الا أن قبله فى قورته فى موضع زبيبة الصلاة التى لم يكن لها وجود عند الشيخ قطامش ٠٠ وهدأت الجلسة وطلب زكريا تعمير الشيشة ثم قال فى استنكار هادىء :

ـ مافيش شيخ فى مصر كلها لابس جبة وعمة وقفطان ولا يبصليش غير الشيخ قطامش ٠

وأفحمه الشيخ رحمه الله هو الآخر ورد عليه فى استسلام :

ـ الله يسامحك يا زكريا ٠ ولا أذكر أن السعدنى كان موجودا ليلتها ولكنه أبدا لم يغب عن أى جلسة أخرى جمعتنا بالشيخ قطامش وزكريا فهو يكمل أضلاع المثلث ٠ الذى كان يجمع بين أمتع ظرفاء جيلنا بأسره ٠٠

الحجاوى كاتبا اذاعيا

وكانت المفاجأة الثالثة فى حياتى مع الحجاوى أن أقابله فى الاذاعة ٠٠ أيامها كنت قد شرعت فى الكتابة للميكروفون وكان هو قد دخل حلبة الميدان الاثيرى بكل ثقله ٠٠ وبدأت معاركه المشهودة مع المخرجين وأبرزهم الصديق يوسف الحطاب الذى أخرج له أنجح برامجه ٠ وتحول الحجاوى بكليته الى الاهتمام بالفنون الشعبية والفلكلوريات ٠٠ لا عن دراسة ولكن عن اصالة ٠٠ وهو اهتمام أساسى ظل لاصقا به متفانيا فيه حتى نهاية عمره ٠٠ وقدم منه الكثير من البرامج الاذاعية ٠٠ وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وانشاء وزارة الثقافة التقيت بالحجاوى فى مجال العمل بمصلحة الفنون وكان أستاذنا الكبير يحيى حقى مدير مصلحة الفنون ايامذاك قد عينه مسئولا ومشرفا على فرق الرقص والغناء الشعبى بعد أن سبقته شهرته فى هذا المجال ٠ وهكذا تبدلت حياة الحجاوى تبدلا كليا تاما ٠٠ فانصرف عن الكتابة وانجرف الى ميدان الأغنية الشعبية وجمع التراث وطافا بمعظم المحافظات يجمع الأغانى الشعبية والملاحم الغنائية ويسجل الرقصات الفلكلورية ثم ينتهى بهالمطاف ليقع فى غرام خضرة وأغانيها وينشىء باسمه فرقة خاصة تاركا وراءه كل شىء الا هذه الهواية التى استغرقته حتى نهاية العمر ٠

فرقة زكريا الحجاوى

تألق زكريا الحجاوى بفرقته الشعبية واندمج فيها الى حد التمثيل والغناء مع أفرادها .. وكان يعتمد فى كل ذلك على ميوله وحدها وعشقه وهيامه لهذا الجو الشعبى الخالص عن أصالة واخلاص وغير قليل من مواهبه الكامنة القديمة فى الزعامة والتوجيه .. لكنه والحق يقال كان يفتقر الى الدراسة العلمية المنتظمة لهذه الفنون وكانت مواهبه ذاتها غير مستوفاة فى هذا المجال .. لكنه كان صاحب جهد خارق وطاقة كبيرة على التحمل والمثابرة واجتياز أصعب العقبات وظل يحيى ليالى رمضان فى خيمته وبفرقته فى ساحة الحسين لعدة سنوات .. واجتذب الى هذا الفن العديد من المشاهدين والمعجبين .. ورغم ما كان يبذله من جهد وما يقوم من نشاط مع فرقته العجيبة والروح الانسانية التى كان يتعامل بها مع أعضائها فانه لم يستطع المتابعة لانعدام الامكانيات المادية وانصراف المسئولين عن مساندته .. كانت الهواية هى كل ما يحركه ..

حدث ذات ليلة وأنا أهنئه بعد مشاهدة احدى عروض فرقته فى الحسين وكان يلهث اعياء ويتصبب عرقا ويكاد يتهالك بجسمه الضخم ليقع على الأرض كالفيل الذى خارت قواه .. أن أخذنى من يدى الى وراء الخيمة .. ووضع ذراعه فوق كتفى وكانت عيونه حمراء مسهدة وهو يقول فى صمت هامس وخجل واضح :

ـ اسمع .. اذا كان معاك عشرة جنيهات اديهالى .. أنا فطرتهم فول وطعمية ولازم أسحرهم كباب ..

كان يتحدث عن أعضاء الفرقة ..

وهكذا عاش زكريا سنيه الاخيرة فى مصر على هذا الحال ..

نهاية اليمة

تعثر المسار نهائيا بزكريا الحجاوى وبدأت صحته تضعف وكان من المحال أن يتابع جهوده بغير عون من الدولة ورئيسها وبدأ الحجاوى يحس بمرارة الجحود والانكار وكان يشكو حتى حين اضطر الى أن يصفى فرقته بل وأن يرتحل تاركا مصر ليلجأ الى احدى الدول الخليجية التى احتضنت جهوده وفنه .. ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن كانت طاقته قد استهلكت

وكان أن توفى هناك على الخليج بعيدا عن أرض مصر وشعبها الذى عاش الى نهاية عمره يتغنى بتراثه ·· ولم يذكره أحد الى أن ذكره السادات بعد سنين من وفاته ·· لكن الذكرى التى كان يستحقها زكريا فى حياته كانت أهم وأكثر فائـدة من الذكرى التى لحقته بعـد مماته ·· وهنا تحضرنى الآية الكريمة التى كان زكريا يرددها دائما وهو يحمل حاجياته من السوق متجها الى بيته ·· « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا »·· صدق الله العظيم ·· والحمد لله على الفقر والجدعنة ·· فقد مات زكريا فقيرا جدعـا ·

***

نجيب سرور

صورة أدبية

تعود أن يجلس دائما منزويا بنفسه فى ركن بعيد على الرصيف الذى تمتد فوقه موائد قهوة عبد الله الشهيرة بالجيزة وكان ذلك مع بداية الخمسينيات شابا فى ريعان الصبا يبتسم ابتسامة غامضة ويدخن بافراط ولاحظت انه يمتد بأذنيه حيث كنا نجلس أنا وأنور المعداوى وزكريا الحجاوى رحمهما الله • يحاول أن يسمع ما نقول ويبتسم فى خفاء لبعض ما كان ينفرط من « أبو الزيك » أى زكريا الحجاوى من أحاديث ونكات طيبة تطلق عقائرنا بالضحك •

وفى ذات ليلة ضاقت جلستنا بمن فيها واحتاج جمع شمل الوافدين اليها لمقعد أو مقعدين ولاحظ هو ذلك وكان يجلس الى مائدته وحده وأمامه أكثر من مقعد خال • فاذا به يحمل المقاعد الخالية ويأتى لنا بها ثم يستسمحنا فى أن يجلس معنا •• وهكذا كانت أول معرفتى بنجيب سرور •• لم تتم بيننا صداقة فى البداية وانما نشأت معرفة عابرة •• عرفته من خلالها على أنه شاعر وأنه من مواليد قرية أجا المجاورة لبلدتنا وأنه يعرف الكثير من الناس الذين أعرفهم من « بلدياتنا » وانضم الى جلستنا فكان يأتى كل ليلة تقريبا •• يجلس صامتا يستمع فى شغف لما يقال ولكنه لا يشترك فى أى حديث • فلما ازداد التصاقا بالقهوة وروادها زالت عنه ما يمكن أن أسميه « الحصانات الشخصية » التى كان

يحيط بها نفسه وبالذات حصانة السن لأنه كان أصغر سنا منا جميعا ·
وأصبحنا أصدقاء على مر الليالى ·· وكان أول ما لفت انتباهي في شخصيته
طباعه الريفية الخالصة ·

كان تلقائيا مندفعا صريحا صراحة مباغتة لا يعرف كيف يكتم عواطفه
أو يتحكم فى آرائه · يقول كل ما يعن له حتى ولو كان فيه ما يصدم
الآخرين الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ·· وهذا من شأنه أن يخلق
العداوات ·· لكن نجيب سرور رحمه الله كان يتحلى بصفة أخرى هى
الطيبة المتناهية التى تجعله يضحك لمن يعاديه ثم يندفع ليقبله ويصالحه
وكأن شيئا لم يكن ·· عرفت نجيب اذن كشاعر شاب وأديب من الأدباء
الجدد بين رواد قهوة عبد الله بالجيزة ، ولم تتوطد بيننا أيامها صداقة
قوية لاصقة لأنه كان شديد الملل والنفور · ولذلك سرعان ما اختفى
من قهوة عبد الله ·· وربما كان سبب ذلك أنه ارتحل ليقطن بعيدا عن
الجيزة ·· ولم أره الا بعدها بسنوات ·· كنت قد نقلت الى مصلحة
الفنون بوزارة الثقافة للعمل مع أستاذنا الكبير يحيى حقى ·· وعهد الى
بتولى مسئولية الرقابة على المصنفات الفنية · النصوص المسرحية وقصص
وسيناريوهات الأفلام ، وكانت المفاجأة الكبرى أن أجد نجيب سرور يعمل
فى نفس الادارة رقيبا · أيامها توطدت معرفتنا لتنقلب الى صداقة
حميمة · واكتشفت فى نجيب قارئا نهما شديد التمسك بالقيم الأدبية
والحرص على الكمال الفنى والتعنت الجاد فى الحكم على الأعمال الأدبية
والفنية ، لذلك كنت أعهد اليه دون غيره بمراجعة النصوص المسرحية
ذات القيمة والقصص والمعالجات السينمائية ذات المستوى ·· وكان هذا
من شأنه أن يوقعنى معه فى كثير من المناجزات مع أصحاب الفرق المسرحية
القائمة حينذاك وعلى الأخص فرقة اسماعيل يس ·· وذات مرة قدم
المخرج يوسف شاهين الى الرقابة قصة ثم سيناريو فيلمه الشهير « باب
الحديد » من تأليف السيناريست عبد الحى أديب · وعهدت الى نجيب
بمراجعته فقرأه ووافق عليه بحماس ·· وفوجئنا بعد التصريح باخراجه
فيلما باعتراض من بعض الجهات المسئولة عن الأمن بحجة أن الفيلم يحمل
فى طياته أفكارا وآراء متطرفة ·· وتردد أكثر من مسئول من مسئولى
الأمن لمحاولة الغاء موافقة الرقابة · ولكن الموافقة كانت قد سلمت الى
المنتج وهو يوسف شاهين نفسه ·· وتعرضت للمساءلة الادارية وحاولت
استبعاد نجيب لكنه أصر على ضرورة التحقيق معه لأنه كان أول من وافق
على السيناريو ·· وعبثا حاولت أن أفهمه أنه غير مسئول لأننى أتحمل
المسئولية المباشرة ·· ولكن دون جدوى · فاشتبك مع رجال الأمن فى
عصبية وتشدد بلغ حد التهور · ولم ينقذ الموقف الا الاحتكام للاستاذ

يحيى حقى . فلما قرأ السيناريو أجازه مثلما أجزته وأجازه نجيب من قبلنا .. واستند فى ذلك الى أن الفيلم يدعو العمال الى تكوين النقابات للدفاع عن مصالحهم .. وهذه دعوة قانونية ومشروعة واقنع رجال الأمن بعد أن قدمت لهم قانون النقابات - كشف لى هذا الحادث عن جانب آخر من شخصية نجيب وهو أنه اذا اقتنع بشىء فانه على استعداد للدفاع عنه حتى الموت .. والواقع أن نجيب كان انسانا عاطفيا لا يقدر على كتمان مشاعره أبدا لا فى أبسط المواقف ولا فى أحرجها .. حدث أيامها أيضا أن عهد الى بترشيح رقيب لبعثة الى الاتحاد السوفيتى لدراسة التذوق الفنى فرشحت لها نجيب . وحصل على البعثة وسافر بالفعل .. وانقطعت أخباره .. لم يكن نجيب يحفل بأى مبادىء سياسية .. لكنه كان شديد الايمان بالحرية وفيه ما كان يسميه محمود حسن اسماعيل بشموخ الشاعرية .. ولذلك كان عجبى شديدا حين سمعت انه وهو فى الاتحاد السوفيتى ابان الأزمة التى سبقت الستينيات عامى ٥٨ ، ١٩٥٩ بيننا وبين الروس يهاجم عبد الناصر ونظامه .. ربما كان متأثرا فى ذلك بوجوده هناك وممارسة ضغط عليه . وقد عاتبته عن هذا الموقف بعد عودته فأنكر أى ضغط من الروس .. وقال انه لا يعادى عبد الناصر وزعامته ولكنه يعادى تجاوزات النظام .. وعاد نجيب الى مصر بعد أوائل الستينيات ولكنه عاد شخصا آخر .. عاد يهاجم النظام السوفيتى ويتحمس فى نفس الوقت لقرارات عبد الناصر الاشتراكية .. لم يكن لنجيب فكر سياسى ولا موقف سياسى واضح . كان يرى العالم برؤية شاعرية مطلقة .. الحرية الكاملة ، المساواة التامة .. العدالة المطلقة .. معاداة الظلم والاضطهاد ولاستغلال والاستعباد .. الوقوف الى جانب المضطهدين والمتعبين والمظلومين . وهكذا جنحت به رؤياه .. مع نشأته الريفية وتعلقه بالقرية وطين الأرض أن يقف الى جانب الفلاحين .. « أنا فلاح ابن فلاح » كما كان يقول دائما .. وتعلق نجيب فى وطنيته بهذه الأصالة الريفية بالتراث النضالى للفلاح المصرى وظهر ذلك واضحا حين أقدم على الكتابة للمسرح فاذا كل مسرحياته تلف وتدور حول السيرة النضالية لياسين وبهية وأدهم الشرقاوى وغيرهما من أبطال السير الشعبية الريفية .

كتب نجيب للمسرح متأخرا . لقد عاد الى مصر فى أوج ازدهار مسرح الستينيات .. ولكنه لم يجد لنفسه مكانا فيه . فانكب على الشعر . لا سيما بعد أن حرمت عليه الوظيفة وطالت مطاردته على أنه من أصحاب المبادىء الهدامة .. وأصبح أسير الحانات يخرج من واحدة ليدخل الأخرى .. كان قد تزوج من فتاة روسية وأنجب منها .. ولكنه جاء

ليعيش وحده في مصر ٠٠ مطاردا شريدا بلا مورد ٠/ ولم تستطع زوجته اللحاق به ٠٠ وسمحت ظروف التوسع في الحركة المسرحية وطبيعة دراسة نجيب للموسيقى والأداء التعبيرى الدرامى وهو فى بعثته أن يتقدم فى حماس بالغ ليكون مخرجا مسرحيا ٠٠ وأيامها كان قد تقرر عرض مسرحيتى « وابور الطحين » كمسرحية افتتاح لمسرح الحكيم ٠٠ والمسرحية كانت فى الأصل أوبريتا غنائيا تعثر تقديمه لأكثر من عامين ٠٠ فى مسارح هيئة المسرح ٠ وقمت بتحويل نص الاوبريت الى نص تمثيلى درامى ٠٠ قرأه نجيب سرور وجاءنى يطلب أن يقوم باخراجه ٠٠ ولم أتردد أمام حماسه للعمل باخراجه مع انه لم يكن قد سبق له أى تجربة فى الاخراج ٠٠ وسارع نجيب الى احتضان النص فى حماسه العاطفى الجارف ٠٠ كانت خطوة جريئة من جانبى اتخذتها متأثرا بوضع نجيب نفسه ولكن أيضا بثقتى فى امكانياته ٠

وبدأ نجيب فى فرح وحماس بالغ بالاستعداد لاخراج وابور الطحين ٠ وبلغ به الحد انه بدأ البروفات قبل بداية الموسم المسرحى بثلاثة شهور ٠٠ وبدأ البروفات فى سرية تامة دون أن يخطرنى حتى علمت من بعض تلامذتى فى معهد الفنون المسرحية انهم يشتركون فى تمثيل نصى مع نجيب سرور ٠٠ وسارعت الى المسرح ٠٠ كان نجيب قد حرم على أى انسان دخول المسرح أثناء البروفات التى يجريها ٠٠ وبالفعل رفضوا السماح لى بدخول الصالة ٠٠ ولكننى صممت ٠ كيف يمكن أن استبعد من مشاهدة البروفات التى تجرى على مسرحيتى ؟! ووعدت مدير الصالة بأن أجلس صامتا حتى يستأذن نجيب سرور ودخلت بالفعل الى الصالة ٠٠ فتوقف نجيب عن الاخراج حين رآنى وصرخ غاضبا فى وجهى : « مين اللى قال لك تيجى انت مش مطلوب هنا » وقهقهت ضاحكا لهذا الموقف التمثيلى ٠ ولكنه كان غاضبا بالفعل ٠٠ فألغى البروفة وجاءنى منفعلا : « وجودك معناه عدم الثقة ٠٠ انت تيجى بعد شهرين تمام » ورفضت منطقه لأن هذا من حقى ومن عادتى فى كل مسرحياتى السابقة ٠٠ ولم يطل النقاش بيننا وحاول أن يبرر موقفه على أساس أنه لا يحب للمؤلف أن يرى « طبخة الاخراج الا بعد أن تستوى » ٠٠ فلما أدرك اصرارى وتشددى احتضننى وقبلنى ٠٠ وعاد الوئام بيننا من جديد ٠٠ والحق أشهد أن نجيب أخرج « وابور الطحين » بمنتهى التجرد والاخلاص والتفانى وكان دائما يشير الى فى بروفات الاخراج « أنت نفسك ما تقدرش قيمة كلامك قدى ٠٠ أنا فاهمك أكثر من نفسك » ٠٠ وفى ليلة الافتتاح جاءنى يبكى بعد نهاية العرض : « شايف أنا عملت لك أيه » لقد قام بمجهود خارق بالفعل ٠ ونجح العرض فلما هنأته قال : انت الأصل ٠ البركة فى كلامك وتصافينا تماما ٠

ذات مساء سهرنا معا ·· وكان نجيب فى منتهى التعاسة لانه حتى الآن لم يكن قد وجد وظيفة ثابتة يعيش من دخلها · وقد أدت به هذه الحالة الى مزيد من التشرد ·· كان قد أقلع عن كتابة الشعر العامى والفصيح معا وأصبح معلقا بين السماء والارض ·· فقد توازنه تماما وكان قد خرج على انطوائيته السابقة وأصبح يتكلم بصوت مرتفع ·· يسب ويلعن ويهدد ويتوعد الذين ظلموه والذين اضطهدوه··وقد غمره الاحساس بأنه يعيش مطاردا وهذا الاحساس ظل يلازمه حتى نهاية عمره ·· وفى تلك الفترة بالذات بدأ نجيب الكتابة للمسرح ·· وكانت هذه الخطوة بمثابة اكتشاف بالنسبة له ·· لانه وجد فى المسرح الوعاء الكبير الذى يستطيع أن يصب فيه جام سخطه ويأسه واحباطه ·· والذى يستطيع أن يفرغ فيه طاقته الحبيسة من الشعر الدافق المتصل··وهكذا وجد نجيب طريقه فى النهاية ولكن وسط العديد من العشرات لا أقلها الافراط فى الشرب وهواية ما كان يسميه « الصعلقة » ·· لكنه كان يأخذ نفسه بكثير من الدقة والحرص على الجدية مرددا فى اصرار ·· « أنا أكتب من دمى ·· أنا أسفح دمى كل يوم على الورق الى أن يفرغ منى الدم » ·

كان قد تزوج للمرة الثانية ·· ولكنه لم يستطع أن يستقر ·· وسرعان ما أطلق لنفسه العنان من جديد ·· ووجد فى الشعر العامى والهجاء الصارخ ما يشبع أكوام السخط المختزن الكامن فى داخليته والعودة الى سيرته الأولى فى « الصعلقة » ·· ولم يهدأ حتى بعد أن لحقت به زوجته الأولى بولديه ·· لم يكن فى استطاعتها أن تكبح جماحه ·· وتحولت كتاباته الى ما يشبه الصراخ بصوت عال فى داخل جب عميق مكتوم الصدى ·· وعاش نجيب السنوات الاخيرة من عمره فى حالة ضياع ·· كان من المستحيل انقاذه خاصة بعد أن لقته الامراض من كل جانب نتيجة افراطه فى صحته ·· كان أشبه بانسان تخلى عن نفسه فتخلت عنه الحياة ·· ولم ندرك قيمة انتاجه الا بعد ان مات ·· رحمه الله ·

***

صلاح عبد الصبور

لا أدرى كيف أبدأ الكتابة عن صلاح عبد الصبور فموته المباغت أذهلني بقدر ما أحزنني ٠٠ وحتى الآن كتب عنه الكثير وسيكتب ما هو أكثر لانه شاعر متميز الانتاج ترك بصمات لا تمحى عى مسار الشعر العربى المعاصر ٠٠ ومسرحى رائد التجربة وباكر النضج ٠ له فى هذا المجال الجديد انتاجه المتفوق البارز ٠ وليس فى مقدورى أن أحدثكم عن شعره رغم اننى من أشد الناس اعجابا وحفاوة به ٠ وهو نفسه كان يعرف في ذلك الشغف بشعره ٠ وما من مرة صدر له ديوان الا وسارع باهدائه لى لانه كان يدرك من مناقشاتى له اننى أتذوقه باحساس واع وتقدير عميق ٠٠ وقد كان يرخى جفونه ويسبل عينيه خجلا كلما أبديت استحسانى لقصيدة أو اعجابى بأبياتها ٠ فاذا خرجنا الى مجالات ابداعه الأخرى فى مجمل كتبه ومقالاته لامكننا ان نضع يدنا على القوام الأساس لاشعاعات فكره التى امدت شاعريته الأصيلة بكل هذه الرحابة الموضوعية التى يتميز بها شعره ٠٠ فالواقع ان اهتمامات صلاح بالتاريخ والتراجم ثم هذا الكلف المتصل بقضايا المجتمع فى مدلولاتها العامة هى التى زودت شعره بما هو أبعد وأشمل من المطلقات والرمزيات والدلالات التجريدية البحتة ٠ ولهذا استطاع صلاح ان يربط بين شعره ومسرحياته الشعرية من خلال كل هذه الاهتمامات وبين الحياه الواقعية التى يعيشها عصره ٠ فاذا أضفنا الى ذلك تغلغله فى دراسة التراث ومتابعته ودأبه

على القراءة المتصلة للابداعات المعاصرة من الالوان المختلفة ومن أهمها المسرح ٠٠ لامكننا ان نضع أيدينا على الأرضية الواسعة الرحبة التى كان ينبعث منها شعره الراكز سواءا فى دواوينه أو مسرحياته ٠ وفى هذا يختلف صلاح عبد الصبور عن كثير من الشعراء المعاصرين الآخرين الذين تقف بهم طاقاتهم عند حدود الارتكان على الموهبة وحدها ٠٠ نعم كان صلاح يميل الى الانفراد والعزلة والتأمل والعيش مع شياطين الشعر كما يقال ولكنه لم يكن يخطف رؤياه أو يبلورها حول عموميات الفكر السائد العابر ٠٠ وانما كان يستمد مكونات رؤيته من صلب ما يزود به نفسه دائما من معارف مقروءة وممارسات حية ٠٠ ومن أجل ذلك لم تهتز شاعريته حتى النهـاية لتنفرط مهلهلة فى اسـهاب نثرى وانما تزداد تركيزا ٠ وهذا طبيعى فى مقومات شاعر يمكن أن يغلبه الجانب النثرى سيما وهو يختط طريقه فى ثبات نحو الاعلاء من قيمة شعره الحر وهو شعر أكثر منالا لطغيان وجور المادة التعبيرية النثرية ٠٠ ومن هنا جاء تصوره أو تصويره لنفسه كفارس يمتشق الحسام ويرتدى قميص الصلب وخوذة النحاس ليعبر بملكاته الشعرية المغاوز الضيقة التى لا تخلو من نتوءات وعثرات الارتطام ٠٠ هذا هو معنى الفارس الذى يوصف به دائما والمستمد أصلا وحقيقة من طبيعة مساره كشاعر يقف على رأس الصفوف فى اقتحام ساحة جديدة من ساحات الشعر ٠٠ وهى سـاحة الشعر الحر ٠٠٠

على مشارف الخمسين

ولكنى أعود بكم الى ما أهدف الى كتابته عن صلاح ٠ وهو تقديم صـورة عنه من واقع صداقتى له ومعرفتى به ولقاءاتى معه على ضوء ما أوجزت من محاولة سابقة لفهمه كفنان أصيل وشاعر رائد وكاتب مبدع خلاق ٠ وسأبدأ من العام الأخير وأنا أتابع مقالاته فى مجلة الدوحة القطرية التى اختار ان يكتبها بعنوان « على مشارف الخمسين » ٠٠ ولن أحدثكم عن كتاباتى هذه ولكنى أشرككم معى فى دهشتى لان يكون صلاح عبد الصبور لا يزال فى الخمسين من عمره وان يكتب مثل هذا العنوان وكأنه هو نفسه لا يصدق نفسه أو يستكثر على نفسه ان جاز التعبير أن يكون قد شارف الخمسين ٠ وموضع الدهشة اننى عرفت صلاح من سنوات بعيدة وطويلة وكنت أحسبه أكبر من ذلك سنا ٠ على الأقل اذا لم يكن قد بلغ الستين مثلنا فهو فى منتصف الخمسين ٠٠ اما أن يكون فى

بدايتها أو على مشارفها كما قال ٠٠ فهذا هو المثير للدهشة ٠ والا فكم كان سنه حين قابلته لأول مرة أو المرات الأولى في قهوة عبد الله الشهيرة بميدان الجيزة على نهاية الأربعينات ٠٠ ان الذاكرة لا يمكن ان تخونني وان كانت قهوة عبد الله لم تغلق الا بعد ذلك ربما بثلاث أو أربع سنوات ٠ ومعنى هذا انني حين لقيته لم يكن صلاح قد تخطى العشرين ٠

الفتى اليافع

وعلى هذا الأساس أصف لكم الفتى اليافع ابن العشرين ٠٠ شاب أسمر داكن السمار لا يمكن الا أن يكون صعيديا من أسيوط أو سوهاج ٠٠ فلما عرفته وسألته عن مسقط رأسه ٠ قال انه شرقاوي وربما كان أجداده من الصعيد لان الشرقية تعتبر من امتدادات الهجرة الصعيدية الى الشمال مثلها مثل الاسكندرية مهد الاستيطان الثاني للصعايدة في وجهنا البحري ٠ كان يأتي الى المقهى في البداية ليجلس وحده في عزلة تامة تغمر وجهه مسحة من القنوط الدائم ٠٠ فاذا دققت في عينيه وجدته يحاول ان يخفي ما يعتمل في داخليته من قلق متصل تكشف عنها نظراته لانها لم تكن نظرات سابحة شاردة وانما نظرات تنم عما يدور في عقله أكثر مما تنم عما يتأجج في خياله ٠٠ وكان هذا هو موضع دهشتي بعد ان عرفت انه شاعر وليس كاتب مفكر كما حسبته في أول الأمر ٠ ووجهه لم يكن ينم عن سنه لانه كان يبدو من كثرة ما فيه من تجعدات وما يحيط عينيه من هالة سوداء وكأنه قد تخطى الثلاثين ٠ ويظل صلاح منفردا بنفسه على مقعد منعزل يدخن في شراهة ويعب أكواب الشاي وكأنه خارج من كارثة أو ينتظر وقوع كارثة على عكسنا جميعا نحن رواد المقهى ٠٠ كنا في عز شبابنا ونستقبل الحياة في حبور وثقة واستبشار وليس وراء أحدنا ما يشغله أو يقلقه أو يضنيه وانما ينصب اهتمامنا على اطلاقه في الاستمتاع بجلسة المقهى وما يدور بيننا من مناقشات ومساجلات وما يلفنا من ضحك متصل يسعى كل منا الى تهيئته لنفسه حتى يشرك الآخرين معه ٠

حزن ووجوم

في بداية تعارفنا انفردت بصلاح أكثر من جلسة وبحكم العادة التي ركبت في طبعي لم أستطع أن أخفي عنه حقيقة شعوري بالنسبة لشخصه ٠

فاتهمته بأنه يتعمد الحزن والقلق فاذا به يبتسم ويرمى بكتفه الى الوراء وهو يشعل سيجارة من سيجاره ويردد شارحا فى اشارات من يديه يتحرك معها ذراعيه ·· أنه يحسدنى على صراحتى فأنا أتكلم من خلال عقلى بكل ما فى قلبى ولا أنقطع عن السخرية من كل شيء والتهكم على كل شيء فى بساطة طبيعية ·· ويهز رأسه مرددا ·· « ياريتنى طلعت ذلك » ··
فاذا التأم الشمل فى المقهى جلس صلاح فى الطرف البعيد وقبضته تحت فكه وراح ينصت لما يقال ·· نهلل جميعا ضاحكين وهو يبتسم فى قنوط حتى يشعر نفسه بانه ليس خارج الدائرة · ثم سرعان ما يجتاحه الملل والسأم فيهب واقفا وينصرف · فاذا طالبناه بالجلوس اختار ان ينسحب بمقعده الى جوار أنور المعداوى أو محمود حسن اسماعيل وكلاهما كان يجلس فى جدية ونادرا ما يشترك معنا فى نقاشنا الضاحك · لكننى لم أكتشف سر ما كان يعانيه الا بعدها بزمن ·· فقد كان يأتى وفى جعبته ما كتب من شعر ·· يحاول على استحياء ان يحدثنا عنه ويخشى ان يطالبه أحد بتلاوته لانه لم يكن يحفظ ما يكتب ويتعثر فى تلاوة أبيات قصائده الا اذا أخرج من جيبه الورقة التى تحويه وانفرد بالمعداوى ليقرأ له منها ·· كان شديد الخجل من شاعريته ولكنه لم يكن قليل الثقة فى شعره ·· وربما كان هذا الخجل هو مبعث ما كان يحيطه من وجوم ··

الكتابة المنتظمة

هكذا عرفت صلاح عبد الصبور وهو شاب ·· لكنه لم يستمر على هذه الحال طويلا ولعله لم ينفتح على الناس والحياة بطلاقة متزايدة الا بعد أن بدأ يشتغل بالكتابة النثرية وينشر مقالاته فى الصحف ويندمج فى هذا الوسط الحى الزاخر بكل موجبات النشاط وهذه الفترة الصحفية هى التى كونت ما يمكن أن أسميه الشخصية الخارجية لصلاح ·· وليس معنى هذا انه كان مزدوج الشخصية ·· بل على العكس ·· ولكن معناه ان التجربة الصحفية ساعدته كثيرا على الخروج بذاتيته من خلف الستائر والحجب السوداء التى كان يحيطها بها · وخلال هذه لفترة عرف كيف يضحك من قلبه وكيف يسخر من الناس · والشيء الوحيد الذى كان يؤرقه ما كان يسميه « العيش بظهر مكشوف » وهو يعنى التعرض لمهنة تلزمه بالكتابة المنتظمة كمهنة الصحافة ولهذا سعى الى الوظيفة لانها وحدها التى تتيح له أن يكتب وقتما شاء · وأنا لا أزعم اننى خبير بشخصية صلاح عبد الصبور لان صداقتى له كانت متقطعة ·· لكننى كنت أحسه

عن بعد وأدرك نوازعه ومؤرقاته كما لا يدركها اللاصقين به · لقد عاش دائما يسعى الى الهدوء والدعة والعيش فى أمان حتى يستطيع أن يكتب الشعر ·· ولهذا ارتمى فى أحضان الوظيفة فاردا زراعيه على مقعدها الوثير ·· لكنه كان صاحب موهبة أصيلة يدعمها فكر قوى والتزام حازم بالقضايا العامة ·· وذلك كله كان يجد له مجاله الواسع فى الكتابة النثرية ولم يكن مما يؤرقه كثيرا مثلما يؤرقه شعره ورسالته كشاعر · « أنا لا أجد نفسى الا فى الشعر » بهذه العبارة كان يبدأ دائما نقاشه كلما أخذ عليه أحدا هفوة فيما يكتبه من مقالات وموضوعات ودراسات ·· من أجل هذا عاش صلاح يتحين الفرص الملائمة للابتعاد عن الكتابة الصحفية مع انها كانت بالنسبة له أسهل وأيسر من كتابة الشعر · لقيته يوما وهو يعمل فى الصفحة الأدبية بجريدة الاهرام كان ساخطا نافرا يهز يديه فى استنكار ويجهر بغضبه على غير عادته انه لم يعد يطيق الكتابة المنتظمة ·· أبدا ·· هو لم يخلق لذلك · ثم ان مثل هذا التقييد بالكتابة فى مواعيد محددة تجور على كل تأملاته وتأخذه بعيدا عن كثير من السياحات التى يقوم بها بينه وبين نفسه لاستكمال قصيدة أو التأمل فى ابداع شعرى جديد · انها تخنق انفعالاته وتطمر خياله · وأذكر له فى ذلك تفسير كثيرا ما كان يردده شاكيا « فاكر القلم البسط اللى كنا بنكتب به واحنا صغيرين فى الكتاب لتجويد الخط ·· كان بيفرشح فى أيدينا وينفصف ويتحول الى بوص مهلهل مثل نفاية القصب ·· هذا هو نفس ما يحدث لشعرى وأنا فى هذا الموقع ···

فى الوظيفة

بعدها لم أدهش ان يترك صلاح عبد الصبور الصحافة ويسعى للالتحاق بالوظيفة · كان لا بد أن يهىء نفسه لدخل ثابت يغنيه عن هذه الطرطشة العلمية · وبالفعل انقطع للشعر من خلال الوظيفة وهرب فى شعره من الكتابة النثرية · أيامها بدأ يكتشف لشعره الحر منطلق ووجد ضالته المنشودة فى المسرح الشعرى ·· ولكن ذلك لم يأت مباغتة وانما جاء من دراسة متأنية وحرص دائب على متابعة مختلف الألوان والاتجاهات ··

كان صلاح من خريجى كلية الآداب قسم اللغة العربية ··· وهو قسم لم تكن تدرس فيه الدراما ·· لكنه كان قد قرأ أرسطو وتأثر بكتابه عن الشعر وهو كتاب يلصق الدراما بالشعر كأساس · ناقشنى فى ذلك

طويلا فتبينت من مناقشته اللبنات الأولى لمفهومه للمسرح وانطباق هذا المفهوم على الشعر الذى برع فيه صلاح . وهو الشعر الحر أقرب ألوان الشعر للتعبير الدرامى الخالص .. لذلك تميزت مسرحياته بدعامة قوية من الموهبة الواعية المدروسة الحقيقية الصنعة الدرامية .. ذات ليلة التقينا وكان يشهد عرض احدى مسرحياتى فاحتضننى فى اعتزاز ثم راح يشرح لى السبب وهو اننى فيما اكتب للمسرح اضاعف من رسوخ وعيه بشاعرية المسرح حتى ولو كان مغرقا فى الواقعية .. وان هذا الجانب الجديد .. وهو « الواقعية الشعرية » كما سماها كانت تترسب أيامها فى داخليته .. لكنه لم يجرؤ على استخدامها فى مسرحياته الأولى بقدر ما برع فى استغلالها بعد هضم كامل لعناصرها فى مسرحياته الأخيرة .. ومن هنا تبرز المعاناة التى يعيشها الفنان الخالق فى محاولته وحرصه على دعم مكوناته الابداعية . وقد كان صلاح من هذا النوع لانه كما اسلفت كان يشق طريقه فى عناء وفى مجال صعب لم تكن الموهبة وحدها لتكفى صاحبها ان يرتاده لا لم تؤسس على مثل هذه المعاناة .. معاناة الدارس ومعاناة الممارس ومعاناة الحريص على تحقيق رسالة .. ولهذا كان صلاح يأخذ نفسه بكثير من التأنى وهو يكتب مسرحياته .. واحسب ان الوظيفة كانت لها دخل كبير فى ذلك لانها عاشها فى ظل صراعات متلاحقة لم يستطع ان ينجو بنفسه منها كواحد يقف فى الصفوف الأولى بين المثقفين ..

مواقف سياسية

فى تلك الفترة من حياة صلاح لم يكن من الصعب على من يعرفه جيدا أن يلحظ بعض التبدل لا فى مسلكه ولا فى تصرفاته وانما فى نظرته للأمور . لقد ارتد الى أيامه الباكرة .. فرغم اندماجه الصارخ بالحياة الثقافية فانك تلحظ اذا ما لاقيته أو حادثته .. انه يكاد يشيح بذهنه واهتمامه وفكره عن كل شيء .. كان يحاول دائما الهروب بنفسه عما يواجهه .. ولكنه لم يستطع ان ينزوى بعيدا عن المعترك كما كان يفعل فى باكورة عمره وهو جالس مبتعد فى مقعده على المقهى .. فبعد ان أصبح صاحب مكانة راسخة فى الشعر والمسرح .. لم يكن من السهل ان يتجاهل موقعه أو يختار العزلة .. لكنه وجد مهربا فى أخذ الكثير من الأمور بسخرية أو امتعاض ظاهرى يدارى بهما طابعه الجدى

الذى يحاسب به نفسه دائما • سافرت مع صلاح الى الجزائر ضمن أعضاء وفدنا المصرى فى مؤتمر الأدباء العرب •• وكان ذلك على ما أذكر عام ١٩٧٥ •• وكانت بقية الوفود المصاحبة لنا فى الطائرة من وفود البلاد العربية تضم العديد من الشعراء والكتاب وصلاح له مكانته فى الساحة العربيــة •• لكننى لاحظت من الدقيقة الأولى ان هنــاك شبه نفور بينه وبينهم • ولم أدرك السبب فى فى البداية وارجعته الى ما كان يتحلى به صلاح فى تلك الأيام من رغبة دائمة فى الابتعاد بنفسه عن الناس فى غير ترفع وفى كثير من النفور المشوب بالامتعاض • وسرعان ما اكتشفت من حوارهم معى ومناقشتهم لى ان هناك فجوة كبيرة تفصلهم عنه •• كانوا متحاملين تحاملا واضحا عليه لأنه يسير فى ركب غير ركبهم •• خلاف منشأه سياسى بحت •• اذ يعتبرونه من عملاء يوسف السباعى وبالتالى من مؤيدى الرجعية الساداتية • وعبثا حاولت ان أثنيهم عن هذا الفهم وانه يمثل نظرة ضيقة من جانبهم لأن الحكم على فنان فى قامة فنــه لا يمكن أن يكون تابعا لأحد • ونزلنا من الطائرة فأحسست بنفور منهم والتقيت مع صلاح فى الفندق • كان بينهم العديد من الشــعراء الشبان وأغلبهم يمكن ان يعتبر من تلاميذه أو المتأثرين به • وذات مساء ومسرحه وكتاباته •• ثم ان الفنان •• أي فنان يعى حقيقة مكانته وقيمة دعانى الجواهرى الشاعر العراقى العتيد الى سهرة فى حجرته •• وأنا أعرف الجواهرى من سنوات عديدة •• وجاءت سيرة صلاح فى حديثنا عن الشعر فهب فى حماس •• كنت أحسبه هو الآخر سيتحامل على صلاح ولكنه أمسك بسماعة التليفون وطلب رقم غرفة صلاح فوجده فيها •• ولم يكتفى بدعوته وانما اندفع ليأتى به معه بعد لحظات وهو يتعذر فى اصرار وندم عميق • ولم تكن هذه هى عادة الجواهرى أبدا •• ولا من طباعه •• فهو انسان مترفع لا يكاد يهتم بأحد غير أمجاده الشخصية •• وراح يعاتب صلاح •• « يا أخى انت تعرف طباعى أنا لا أقبل على أحد الا اذ أقبل هو على وأنت تتحاشانى من البداية فلماذا !؟ » •

مع الجواهرى

كان صلاح يعتقد ان الجواهرى هو الآخر يتحامل عليه مع الباقين فاتضح العكس وانه يتعرض من جانبهم لنفس ما يتعرض له صلاح • وراح الجواهرى كعــادته يسب ويلعن الأقزام الذين لا تطاول رؤوسهم أصابع قدميه •• ثم انطلق ينشد احدى قصائده التى يتحدث فيها عن

نفسه ومكانته وشعره . كانت قصيدة طويلة لم يتلعثم فى القائه لها لأن الجواهرى لا يكاد ينسى حرفا من شعره . وطلب الى صلاح ان يجاوبه باحدى قصائده .. فاعتذر .. وظن الجواهري ان صلاح يتمنع .. لكن الحقيقة انه لم يكن يحفظ من شعره الا بعض الأبيات المتناثرة .. وأمام اصرار الجواهرى تلى علينا صلاح بعض أبيات قصيدة اهتز لها الجواهرى .. وان اعترض عليها لأنها من الشعر الحر وهو شعر لا يطيقه . وأصبح الصباح فاذا الجواهرى يبحث عنى وعن صلاح .. وهذه أيضا ليست من عاداته .. فهو من أكثر الناس حبا للانزواء الا اذا كان محاطا بالمعجبين . وانقضت أيام المؤتمر ونحن فى صحبة متصلة مع الجواهرى .

فى خدمة الثقافة

وعدنا من المؤتمر ليمر عام أو بعض عام فاذا مكانة صلاح تزداد وتتوطد فى الساحة العربية أكثر من ذى قبل . والسبب واضح وبسيط . فالفن الحقيقى أقوى من نزهات المواقف الوقتية والمقاطعات المتشنجه . لكن هذه التجربة مع ذلك كانت قاسية أحس بعدها صلاح انه فى حاجة الى الابتعاد عما كان يحيطه . ولهذا سعى حتى استطاع السفر بعيدا الى الهند .. وكانت هذه السفره بمثابة الترياق الواقعى الشافى لأنه عاد بعدها وقد زال عن نفسه الكثير من الغشاوات التى غامت فى داخلية كيانه . عاد أكثر تغنى وأكثر انطلاقا وأكثر تعلقا بالكتابة .. كانت تجربة مفيدة ومجدية جعلته قادرا على ان يخلع عن نفسه كل اردية التعاسة والقنوط والانزواء التى عاش يتخفى خلفها لينقذ مواهبه مما يرديها من داخليته .. هذا الوجوم .. وهذا الحزن والمحاولات الدائمة للانطواء . وهى أحاسيس لم يستطع ان ينساها حين اكتشف على حين بغته .. انه أصبح على مشارف الخمسين .. ولم يكن غريبا بعدها حين يرتد الى الوظيفة أن يحاول المزج بين ذاتيته الجديدة فى تفتحها وانطلاقها وبين ما أتيح لها من خلال رئاسته لهيئة الكتاب ان يركز جهده على محاولة خدمة الحياة الثقافية .. لكنه ما كاد يبدأ المسير حتى سقط فمات ميتته المفاجئة المفجعة



فهرس

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٢٦٢ ـ ٣

هذه ذكريات متلاحقة أخذتنى إليها أيامى وأنا أحفر دربى عبر السنين مع من عاشرت من أدبائنا الرواد الكبار الذين سبقونا فى المسالك الوعرة لحياتنا الأدبية .

وهى تدل على أن التلاحم بين الأجيال فى هذا المدمار تلاحم حتمى وليس صراعاً ملزماً لأننا تعلقنا بهم على أنهم أبطال يعبدون الطريق لنا ومعنا ، ولهذا لم أبتعد بذكرياتى عن رواد جيلنا أيضا لأنهم يحملون نفس المشاعل التى أضاءت ولا تزال تضىء المسيرة الكبرى نحو أدب عظيم وفن رفيع وفكر نفاذ وهو ما نبتغيه جميعا لشعبنا الخالد .

مطابع الهيئة المصرية ال

١٧٥ قرشـا